محمد

في الكتاب المقدس

تأليف البروفسور

عبد الأحد داود

ترجمة

فهمي شمّا

مراجعة وتعليق

أحمد محمد الصدّيق

MUHAMMAD IN THE BIBLE

By Prof. DAVID B. KELDANI

Translated into Arabic

FAHMI M. SHAMMA



مؤلف الكتاب : البروفسور عبد الأحد داوود

اسمه قبل إسلامه : القسيس دافيد بنجامين كلداني

وهو من طائفة الكلدانيين الموحِّدين ، التابعة للكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وكان يحمل شهادة الليسانس في علم اللاهوت .

* حينما سئل : كيف صرت مسلمًا ؟ كتب قائلاً :

« إن اهتدائي للاسلام لا يمكن أن يُعزى لأي سبب سوى عناية الله عز وجل ، وبدون هداية الله فإن كل القراءات والأبحاث ومختلف الجهود التي تبذل للوصول إلى الحقيقة ، لن تكون مجدية . . واللحظة التي آمنت بها بوحدانية الله ، وبنبيه الكريم صلوات الله عليه ، أصبحت نقطة تحوّلي نحو السلوك النموذجي المؤمن » .

الطبعة الأولى
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ
كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ
خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

سورة الأنعام - الآية ٢٠

تقديم الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وأصحابه والتابعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد ،

فإن البعثة المحمدية ، هي أعظم حدث في تاريخ البشرية ؛ لأن الله سبحانه ختم بمحمد صلى الله عليه وسلم أنبياءه ، وبرسالته أديانه ، وأعلن في كتابه العزيز قوله : (إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ)(١) .

وقد لزم من ذلك أن يتضمن هذا الدين ما يكفل سعادة الإنسان في دنياه وفي أُخراه ، وأن تكون شريعته صالحة لكل زمان ومكان ، وأن يكون ناسخاً لما قبله من الأديان ، يستبقي منها ما يصلح ، ويلغي ما سواه .. قال تعالى : (.. وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ، وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ)(٢) . قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : .. هذا الكتاب العظيم الذي أنزله ، آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها ، حيث جمع فيه محاسن ما قبله ، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره ، فلهذا جعله الله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها ، وتكفل الله حفظه بنفسه الكريمة ، فقال تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)(٣) . وقال الطبري : «القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله ، فما وافقه منها فهو حقّ ، وما خالفه منها فهو باطل ..» .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٩ .

(٢) سورة المائدة الآية : ٤٨ .

(٣) سورة الحجر الآية : ٩ .

أنزل الله هـــذا الكتاب العظيم على محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، هُدًى للناس ، وَبَيِّنَات مِنَ الهُـــدَى وَالْفُرْقَان ، وخاطبه الله قـــائلاً : (يَا أَيهَا النَّبِيُّ ، إنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً . وَدَاعِياً إلَى اللهِ بإذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً) (١) . ، (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ، بَشِيراً وَنَذِيراً) . (٢) وأمره أن يصدع في الناس بهذه الحقيقة : (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً) (٣) .

فهو إذن رسول الله إلى البشرية كلها . . وما عاد يحلّ لمن يسمع به ويعرف حقيقة دينه إلا أن يكون تبعــاً له ، ففي الحديث الذي رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قـــال : « والذي نفس محمد بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ، يهودي ولا نصراني ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به ، إلا كان من أهل النار » . (رواه مسلم) .

وقد جاءت البشائر به ﷺ ، على ألسنة الأنبياء ، في التوراة والإنجيل والزبور .

ففي قول يوحنا حـــكاية عن المسيح عليه السلام ورد ما يـــلي :

« إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي ، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليطا آخر ؛ ليمكث معكم إلى الأبـــد » ، وفي مكان آخر يقـــول : « . . وأما الآن ، فأنا ماض إلى الذي أرسلني ، وليس أحد منكم يسألني أين تمضي ، لكن لأني قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم ، لكني أقول لكم ، إنه خــــير لكم أن أنطلـــق ؛ لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم الفارقليط ، لكن إن ذهبت أرسله إليكم . ومتى جاء ذاك يبكّت العالم على خطيئته وعلى برّ وعلى دينونه . . » ويقول بعد ذلك : « إن لي أقوالاً كثيرة أيضاً لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ، وأما مـــتى جاءَ ذاك روح الحـــق ، فهـــو يرشدكم إلى جميع الحق ؛ لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأُمور آتية ، ذاك يمجّـــدني . . » .

(١) سورة الأحزاب الآية : ٤٥ .
(٢) سورة سبأ الآية : ٢٨ .
(٣) سورة الأعراف الآية : ١٥٨ .

وإن ترجمة « الفارقليط » أو « البارقليط » بالعربية هي « أحمد » كما يفيد أصل الكلمة ، حسبما أثبته المؤلف في تحقيقها .

وهذا مصداق قوله تعالى « . . وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ ، مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ »(١) .

وقد تصرف المترجمون في هذه اللفظة ، فنقلوها عن العبرانية والكلدانية واليونانية إلى « المعزّي » تارة ، وإلى « المخلّص » تارة أُخرى . . أو كتبوها « البارقليط » كما هي .

وإذا نظرنا إلى بشارة المسيح عليه السلام ، حيث يقول : « . . لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به » وجدنا أن هذا هو معنى قوله تعالى : (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)(٢) ، (. . إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ، وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)(٣) .

وإذا كان « الفارقليط » لا يشير إلى محمد ﷺ ، فإلى من يشير إذن ؟ ! وهل جاءَ بعد عيسى عليه السلام نبي غيره ؟ ! وإلى متى ينتظر أهل الكتاب ذلك المخلص أو المعزّي الموعود ؟ ! أليس محمد ﷺ هو الذي بكّت العالم على خطيئته ، وهو روح الحق الذي لا يتكلم من نفسه ، وإنما يتكلم ما يوحى إليه ؟ وهو — كما أخبرت التوراة — النبيّ الذي أقبل نوره من « فاران » — صحراء الحجاز — ومعه عشرة آلاف قديس — إشارة إلى فتح مكة وهو عدد الجيش الذي قاده النبي ﷺ — ومن يده اليمنى برزت نار شريعة لهم — وهي الشريعة الإسلامية الخالدة .

أجل . . إنه محمد رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه . . ولا أحد قطّ سواه .

---

(١) سورة الصف الآية : ٦ .
(٢) سورة النجم الآية : ٣ ، ٤ .
(٣) سورة الأحقاف الآية : ٩ .

وجاءَ في التوراة في سفر التثنية : إن الله تعالى قال لموسى عليه السلام : « قل لبني إسرائيل : إني أقيم لهم آخر الزمان نبيًّا مثلك من بني إخوتهم . . » وكل نبيّ بعث بعد موسى كان من بني إسرائيل ، وآخرهم عيسى ، فلم يبق أن يكون من بني إخوتهم إلا نبينا محمد ﷺ ؛ لأنه من ولد إسماعيل ، وإسماعيل أخو إسحاق ، وإسحاق جدّ بني إسرائيل . فهذه هي الأخوة التي ذكرت في التوراة . ولو كانت هذه البشارة بنبيّ من أنبياء بني إسرائيل ، لم يكن لذكر أخوتهم معنى .

ولقد كان أحبار اليهود والنصارى ، يعرفون صدق محمد ﷺ ، ويرون فيه العلامات المذكورة في كتبهم .

وقد أثنى الله على الذين عرفوا الحق فاتبعوه منهم فقال :

(. . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ ، الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ والإنجِيلِ . .) (١) .

وأما الذين استكبروا وتمسكوا بالباطل ، فقد عنفهم الله ووبخهم ، بمثل قوله : (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ، لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ) (٢) . أي تشهدون نعت النبيّ موافقاً لما في كتبكم . . ثم تكفرون به ! . . (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ ، وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ . .) (٣) .

* * *

وفي هذا العصر ، وبعد أن أصاب الإنسانية ما أصابها من العنت ، والتردّي في هوة الشقاء والحيرة والتمزّق ، بسبب بعدها عن الله ، وتخبطها بين مناهج الأرض الوضعية ، التي لا تزيدها مع الأيام إلا خبالاً وضلالاً . .

(١) سورة الأعراف الآية : ١٥٧ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ٧٠ .

(٣) سورة آل عمران الآية : ٧١ .

وبعد أن وقفت الديانتان : النصرانية واليهودية ، المحرفتان ، عاجزتين معاً عن هداية أتباعهما فضلاً عن هداية الآخرين . . وأشد منهما عجزاً الديانات الوثنية على اختلاف نحلها ، والفلسفات الوضعية المتهافتة . . التي لم تعد تليق بنضج الإنسان علمياً وعقلياً ومعرفياً . . ولا بكرامته كعبد لله لا لغيره من المخلوقين . . فضلاً عن كونها لا تشبع له روحاً ، ولا تقنع عقلاً ، ولا ترضي ضميراً . .

بعد هذا كله . . لم يبق إلا الإسلام . . كلمة الله الأخيرة للبشرية ، والوثيقة السماوية الباقية ، التي لم يتطرق إليها تحريف ولا تبديل .

الإسلام . . .

والإسلام وحده . . هو المنقذ . . وهو سفينة النجاة . . وهو النداء الرباني المجلجل إلى قيام الساعة ، يدعو الناس إلى رحابه ، ويأخذ بأيديهم إلى بر السلام الذي يفتقدونه ، ويمنحهم السكينة والأمن والنور . . ويهديهم إلى صراط الله المستقيم .

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ، وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ، قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ، وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)(١) .

* * *

لقد وعى هذه الحقيقة كثيرون من مفكري هذا العصر وعلمائه ومثقفيه ، فإذا بهم يدخلون في دين الله ، وينطقون بشهادة التوحيد ، ثم ينطلقون دعاة هداة ، يكرسون الجهد ، من أجل إنقاذ الآخرين ، وهدايتهم إلى الإسلام . .

ولكن المشكلة أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، مازالوا يرفضون التسليم بنبوة محمد ﷺ . . والله سبحانه يقول : (وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ ، لَكَانَ خَيراً لَهُمْ . .) وتنعكس الصورة ، حين يقوم هؤلاء بحملات تبشيرية

(١) سورة المائدة الآية : ١٥ ، ١٦ .

لتنصير المسلمين . . وهم أنفسهم قد أعرضوا عن دينهم وأهملوه في بلادهم وفي أنفسهم . . فلا يقيمون شيئاً منه في شئونهم الخاصة والعـامة . . باستثناء بعض الطقوس في كنائسهم . . التي لا تزيد عن كونها صوراً مظهرية شكلية . . خالية من الروح ومن صدق التـدين . .

وقد أصبح من المطلوب دعـوة هؤلاء بدعـوة الإسلام ، ولعل أنجع وسيلة إلى ذلك هي إقناعهم بأن محمداً ﷺ هو النبي الموعود ، الذي بشرت به كتبهم وأنبياؤهم . . فإن كانوا يؤمنون حقاً بما بين أيديهم من كتب مقدسة ، فإنها رغم ما طرأ عليها من تحريف وتغيير ، لازالت تضم البشارات التي أشرنا إلى بعضها آنفا ، والتي هي موضوع هذا الكتاب ومحوره الأساسي ، وهذا يفرض عليهم أن يراجعوا أنفسهم ، وأن يطامنوا من كبريائهم وغلوهم في التعصب ، فيعترفوا بالحـق ويتبعوه ، والله سبحانه لا تنفعه طاعتهم ولا إيمانهم ، كما لا تضره معصيتهم وكفرانهم . . وإنما ذلك من أجـل خلاصهم وخيرهم في الدنيا والآخـرة .

وإن هذا الكتاب « محمد في الكتاب المقـدس » الذي نقدمه بهذه الكلمات ، لنرجو أن يكون مساهمة مباركة في هذا المجال ، حيث يتغلغل مؤلفه في أحشاء الكتاب المقدس بعهديه : القـديم والجـديد . . ويعرض علينـا حقـائق مذهلة ، وأسراراً مثيرة . . تزيد المسلم إيماناً واعتزازاً بدينه وبنبيه ، وتضع غير المسلم على مفترق الطريق : فإما أن يكون صادقاً مع نفسه ، سديداً في فكره ، منصفاً في حكمه ، راغباً في نجاته عند ربه . . فيسلّم بالحقـائق ، ويعلن إسلامه بلا تردد ولا التواء . . وإما أن يكابر ويصرّ على جحـوده وكفره . . عناداً واستكباراً . . وتلك ليست خطة العقـلاء ، ولا طريق الناجين يوم البعث والجزاء .

ولئن وجـد القارىء بعض التقيد في الترجمة عن الأصل الإنجليزي لهـذا الكتاب ، فذلك أمر خارج عن إرادتنا ، فإن المؤلف عالم لاهوتي متبحر ، كان قسيساً للروم الكاثوليك ، وقد أكمل تخصصه في الدراسات الفلسفية واللاهوتية وتمّ ترسيمه كاهناً . . ومن هنا جاءت كتاباته ذات صبغة معينة ، لا تخلو من التعقيد . . وقد أجرينا كثيراً من التنقيح والتصحيح على هذه الترجمة ، كما أُعيدت صياغة كثير من الفقرات فيها ، لتكون عبارتها أسلم ، وأقرب إلى استيعاب المعـنى المراد . .

والأهم من ذلك ، ما أضفناه من تعقيبات وتعليقات في الهوامش ، على بعض القضايا التي رأينا ألاّ نمرّ بها غافلين ، نظراً لما تتضمنه من مسائل ، تستدعي التصحيح أو التوضيح . . وقد لاحظنا أن المؤلف متأثر بفكر المعتزلة إلى حدّ ما . . مما كان له الأثر في كتابه ، بحيث يلمح اعتقاده ببدعة خلق القرآن ، وأن صفات الله العليا حادثة غير قديمة - خلافاً لعقيدة أهل السنة والجماعة . . إضافة إلى مآخذ أخرى . . لعل ثقافته اللاهوتية هي المسئولة عن تسربها إلى ثنايا السطور . .

وإن النفع المتوخّى من هذا الكتاب ، في ضوء ما أسلفنا ، هو الذي دفعنا إلى ترجمته وطبعه وتوزيعه بالمجان على نفقة دائرتنا ، التي أخذت على عاتقها نشر الثقافة الإسلامية الواعية ، بالوسائل والإمكانات المتاحة لها .

واللهَ نسأل ، أن يكلّل الجهود بالنجاح ، وهو سبحانه من وراء القصد . . والموفق إلى سواء السبيل

الدوحة في : ١٨ / ٢ / ١٤٠٤ هـ .

الموافق : ٢٢ / ١١ / ١٩٨٣ م .

عبد الرحمن بن عبد الله آل محمود
وكيل رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المترجم

عجيب أمرُ هذا الكون ، وليس أعجبَ منه إلا بنو البشر ، الذين يغفلون عن صنعة هذا الكون وعن صانعه ، والأعجب من هذا كله ، أن يتناسى سكان هذا الكون النهاية الحتمية له ولهم ، ذلك أن من كانت له بداية فله حتماً نهاية ، ولعل سر غفلتهم أنهم لا يذكرون البارئ الأعظم والخالق المبدع ، إلا عندما تضيق بهم أحوالهم أو يشرفون على نهايتهم ، فيذكرون الله حينئذ لكشف الضر ، ويدعونه لينجيهم من الكرب ، وقد يسارعون إلى التوبة والندم على ما فرطوا في جنب الله ! ! . . فإذا حقق الله لهم ما أرادوا ، عادوا إلى غفلتهم من جديد . . ونسوا ما ذُكّروا به . . وكأن توبتهم سراب خادع . . لا ينتهي إلى شيء . ويلاحقهم السؤال : هَلْ حَقّاً هُمْ إلى الله تائبون ، وعن العمى والضلال راجعون ؟؟ . . كم من معجزة يرَوْنَ كل يوم ، وكم من حيرةٍ تنتابُهم وتستَحْوذُ على تفكيرهم ؟ ؟ . . ولكن الإنسان هو الإنسان ، فتراه في معزل عن الهداية الربانية نمروداً جباراً ، ضعيفاً هلوعاً ، ظلوماً كفوراً ؟ ! ! وسبحان من ابتلى الناس بالنسيان . . . إنّ الإنسان لينسى أنه إنما خُلِقَ مِن صَلْصَالٍ كَالفخّار ، ومِن حَمأ مَسْنُون ، ومِن نُطفةٍ ثَمّ من علقةٍ ثم من مضغة . . . أو بكلمة واحدة : خلق من طين .

أرسل اللهُ أنبياءَ عديدين لكي يهدوا الناس . . فهل اهتدوا ؟ ! ! كلا ، لقد عَميَتْ منهم الأبصار فشك أكثرهم ولم يُصَدّقوا . أرسل اللهُ إبراهيم وابنَيْه ، وأنبياءَ آخرينَ من بعدِهم ، ثم أرسَل « موسى » لبني إسرائيل ، وضلّ بنو إسرائيل ، وكابروا واعتدوا على الأنبياء والقديسين . واضطهدوهم ولم يؤمنوا ، ثم بعَثَ الله

« بعيسى » معجزةً لهم ، فاضّطهدوه وكَذَّبوه ، وأخيراً بعث الله برسوله الأعظم، بعث مُحَمَّداً ﷺ ، وأنزل عليه كتابه العزيز : القرآن الكريم . وهو – عليه الصلاة والسلام – لاقى العذاب والشدة لكنه ثَبَتَ وتَحَدَّى المشركينَ والكافرينَ ولم يَخضعْ ولم يستكن ! ! حاول الهدايةَ بالحُسنى وبالموعظة ، وكأنَّ الكُفر والشِركَ والجهلَ وغوايةَ الشيطان أراد بكل ما استطاع من قوة وبأس وشعوذة وسحر ، التغلب على الإيمان بالله وبوحدانيته، وعندئذٍ شُرِعَ الجهاد للدفاع عن العقيدة وعَنِ النَفْس، فهبّ النبي ﷺ ومعه أصحابه لمقاتلة أهل الشرك والضلال من اليهود ، ومن أهل الجاهلية الوثنية ، الذين ضربت جذورُ الشركِ عَميقاً في قُلُوبِهِم ، وأخضَعهم الرسولُ المؤيّد من اللهِ ، وكَسَر شوكَتهم ، وفتح عيونَهم على الهداية والنُور ، وَوَضَحتْ الحقيقة لهم ، وتَفتَّحت أفئدتُهم على الرسالة المحمدية ، واستذكروا على يدي هذا الرسول العظيم تاريخَ الأديان وسيَر النّبيين وأحداثَ ورسائلَ موسى ، وعيسى ، والأسباط ، وبني إسرائيل ، وأخيراً ، وبعد هذا الجهد والعناء الطويل ، آمنوا وصدقوا . . لقد انبهروا بالقرآن المُنَزَّلِ من عند الله ، بسوره وآياتِه الرائعات المحكمات . والله جل شأنُه عندما أرسل رسوله بالهدى ، وأنزل عليه الكتابَ ، لم يعهد بحفظه إلى الناس ، وإنما تولّى حفظه بنفسه العليّةِ فقال : (إنَّا نَحنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (١) . فلم يطل الأمد بعد وفاة النبي ﷺ حتى جُمع القرآن بسوره وآياته على نحو ما هو بين أيدينا الآن ولم يسمح جلت حكمته بالجدل والحيرة أو التردد فيما أُنزل ، فلم تكن هناك فرصةٌ زمنيةٌ للنقل أو الترجمةِ أو التضليلِ ، ولا للتحريف أو التأويل ، لأن القرآن نزل على محمدٍ بلسان قومه وهو اللسان العربي المبين ، وقد كانوا عرباً فصحاء بلغاء ينطقون بالعربية ويفصحون بها خطابة وكتابة وحديثاً وشعراً ونثراً وحكمة . . ، وهي هي لغةِ القرآن المعجز « الّذي لا يأتيه الباطِلُ مِنْ بينِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ » ، بينما الناس منذ أن جاء سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء ، وحتى يومنا هذا ، يختلفون فيما بينهم ، أيُهم يعرف بالضبط كيفَ وبأيةِ لغةٍ نزلت التوراة أو الإنجيل في الأصل ، هل كان ذلك باللغة الآرامية أو السريانية

(١) سورة الحجر الآية : ٩ .

أوالعبرانية ، ثم هل ما تُرجم من التوراة والإنجيل إلى اللغـة اللاتينية ، والإغريقية ، والرومانية ، والإفرنسية ، والإنجليزية ، وأخيراً إلى اللغة العربية ؛ هل ما تُرجم يُفسّر ويُعبِّر أو ينقلُ تماماً الأصل الذي نزلت به التوراة والإنجيل ؟ . . . ولقد ضاعت ويالِلأسف جميع الكتب القديمة ، بل وأحرقت وأفنيت ، وتبارى القديسون والأحبار والنُسَّاخ والكُتَّاب ، وأخذ كل واحد منهم يشدد على صحة ما كَتَبَ أو سَمِعَ أو نَقَل ، حسبما نزل بالأصل على أُولئك الأنبياء . ولم يعد أحد يعلم عما كُتِبَ هل هو الصحيح أم هو الغلـط ؟ . . . وتباينت الآراء والآيات وعَمَّتِ العـداوةُ والبغضاء بين الطوائف والمـلل ، كلٌّ يَدَّعي أنه صاحب حـق ، وآخرون يكذبون ويفترون ويحرفون . . . وكانت عقـائد . . . وكانت ملل ، ثم كانت نبوءات ، ما صدقَ منها نَزْرٌ ضئيلٌ يسير ، وما كذب منها كثير وكثير ؟ ؟ . . . ! !

واحتار العلماء ، وتبلبلت أفكار « أصحاب القداسة » منهم و« أصحاب الرؤى » ، ولم يبق في الميدان إلا القليل ممن ألهمهم الله جلت قـدرته أن يفرقوا بين الغث والسمين ، وتدارسوا فيما بينهم وما يزالون يدرسون ، ولكنهم يخافون من غطرسة أقوامهم ، فإذا عرفوا الحقّ ، وميّزوا بينه وبين الباطل ، فإنهم يلوذون بالصمت خوفاً من العاقبة ، ولا يفصحون عنه ولا يصرّحون ! !

وجـاء صاحبنا القسيس الكبير العالم الذي درس اللاهوت ، وحصل على أعلى الدرجات العلمية والدينية فيه ، والذي جاب الشرق والغرب ، وازدادت يوماً بعد يوم حَيْرَتُه وتساؤلُهُ أيهم أصدق ، وأَيُّهم على حق ، وأَيُّهم على ضلال ؟ ! ! . وقرر الانطواء على نفسه ، واعتزل في بيته لا يخرج منـه ولا يبين ، وكثرت صَلاتُه ، وكثرت دعواته إلى ربـه ، وأخذ يقرأ ويقارن ، وأخذ يدرس ويتعمق ، ويبحث ، ويستقصي ، ويقرأ ، ويتعبد ، ويطلب الهـداية ، ثم يصلي ويقرأ ويلحّ في الدعاء طالباً من الله الهـداية ، إلى أن أيقـن أخيراً ، أن الله سبحانه وجَلَّتْ قدرته قـد هَدَاهُ إلى الإيمـان بوحدانيته تعالى ، فخلع رداء الكهنوت ، ولبس لباس الهداية ، وقال للناس : « لا فضل لأحدكم عليَّ باهتدائي وهدايتي ، لقد فتح الله عليَّ وآمنتُ به واحداً أحدَ لا شريكَ له ، ولن أُشْرِكَ بِعِبَادةِ ربي أَحَداً » ، واستسلم

لقدرِه الذي هَـداهُ الله إليه ، وجمع تلك الصفحات وكتبها في حلقات متناسقة تتسلسل في الأحداث ويربط بعضُها بعضاً برؤيا واضحةٍ واعيةٍ ، وعين نقادةٍ مدركة ، وابتعد عن الغرَض ، لا يريد من أحدٍ جزاءً ولا شُكوراً ، فجاءت أَحاديثُه قولاً فصلاً ، أَحاديث عالم عميقِ الإدراكِ ، ضرب المثلَ في علم اللاهوت وفي القديم مما وجد من التوراةِ والإنجيلِ ، ثم القُرْآن ، لعله ينفع الذين في قلوبهم شُكُوك وريبٌ ، فيتجهون إلى الله ، يُوَحِّدونَه ولا يُشرِكونَ به أَحداً ، وهو لا ريب يهديهم سواءَ السبيل .

وهنا ، ندعو الله فنقول : نستغفرك اللهم ، ونتوب إليك ، ونُصلّي ونُسَلِّمُ على نبيك ومصطفاك وعلى أنبيائك أجمعين ، ونستعينُ بك اللّهُمَّ ، ونَعُوذُ بك من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، ونرجو دائماً هِدايَتكَ ورَحْمَتكَ ، ونشهد حقاً أن لا إله إلا أنت وحدك لا شَريكَ لَكَ ، صاحبُ السلطةِ العُظْمىَ ، وربُّ المَشْرِقَيَن والمغرِبَين ، ونشهد أنك أرسلت لنا رسلَك جميعاً وختمتهم بمحمدٍ نبيّكَ ، يَهدِينَا ويُرشِدُنا ، وأنزلت عليه دستورك الْقُرْآنَ العظيمَ ليعلِّمنا ويُرَبِّيَنَا ويَهدِيَنا بِهِ ، ندعوك اللّهُمَّ دائماً يا فاطر السماوات والأرض ، ويا عالم الغيب والشهادة ، أن تهدينا سواء السبيل ، وأن تجعل عملنا خالصاً لوجهك ، وأن تجعلنا هادين مهديين « وآخر دعوانا أن الحمدُ للهِ ربّ العَالَمِينَ » .

فهمي شما
المترجم

محمد في الكتاب المقدس

كلمة سماحة الشيخ
ابراهيم القطان

قاضي قضاة الأردن ـ سابقًا (رحمه الله)

ليس كل كتاب يستحق الاهتمام ، وليس كل ما يكتب حَرِيًّا بالتسجيل أو بالنشر ، وليس كل الذين يكتبون يقدمون للناس شيئاً نفيساً ، أو غذاءً للروح منعشاً ، وإن القليل منهم من أُوتيَ الحظ باختيار ما يكتب ، وبالعطاء النافع المفيد .

ولقد وفق الله أخانا الأستاذ فهمي شما ، إلى ترجمة هذا الكتاب « محمد في الكتاب المقدس » الذي ألفه بالإنجليزية البروفيسور عبد الأحد داود ، وهذا اسمه بعد أن اعتنق الإسلام ، وكان قبل ذلك يدعى « ديفيد بنجامين كلداني » من كبار الآباء الروحانيين الكاثوليكيين في الطائفة الكلدانية .

وقد عَرَّف بِهِ الأستاذ فهمي في مقدمة كتابه ، ونقل كلامه الذي يشرح به كيف اعتنق الإسلام عن دراسةٍ وقناعةٍ وتوفيقٍ إلهي . . .

إن الترجمة فن وليس كل من تصدى لها يتقنها ، ويؤدي المعنى المترجَم بالوجه المرضي والأسلوب المطلوب ، وهي تحتاج إلى جُهد وصبرٍ وأناةٍ وخبرة ، ولاسيما ترجمة كتابٍ مثلِ هذا الكتاب الذي اعتمد مؤلفُهُ فيه على كثيرٍ من المصادر اللاّهوتية ، والكتب المقدسة ! ! . . فضلاً عن لغته وأسلوبه الذي لا يخلو من صعوبة في فهمه واستيعاب مراده . .

ومن هنا كانت المشقة والمعاناة في ترجمته . . وقد اشتمل الكتاب على معلومات مذهلة حقاً ، تبين مدى التحريف الذي لحق التوراة والإنجيل ، مِمَّا يبين صدق

القـــرآن حيث يقول الله تعالى (مِنَ الذينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ) (١) .

ويقول : (وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ) (٢)

ويقول : (وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ) (٣) .

ويقـــول : (أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (٤) .

والقـــرآن الكريم كتاب الله تعالى عندما ينص على شيء فهو صحيح لا مرية فيه .

يقـــول لوثر ، وهو من أعمـــدة رؤساء الدين عند المسيحيين « ألم يكتفِ اليهـــود ، مصاصو الدماء ، أنهم حرفوا الكتاب من الدفة إلى الدفـــة » .

وهنا في كتاب « محمد في الكتاب المقدس » يأتي المؤلف وهو الخبير العـــالم بما في الكتاب المقـــدس ، يأتي بالحقـــائق من مصادرها ، وهو الذي درس وتعمَّق في اللاهوت ، ودرسه وغاص في أعماق تلك الكتب ومحَّصها وخرج بهذه النتائج الباهرة .

يقول تحت عنوان : « نَبِيُّ الجـــزيرة العربية كما جـــاء في الكتاب المقـــدس » :

ولكنني حاولت أن اعتمد في مناقشتي على بعض أقسام من الكتاب المقدس والتي قلما تسمح بأي جدلٍ لغوي . ولن أذهب إلى اللاتينية أو الإغريقية أو الآرامية ، لأن ذلك يكون عـــديم الجدوى ، إلا أنني فقط أورد فيما يلي النص بنفس الكلمات من النسخة المصححة التي نشرتها جمعية الكتاب المقدس البريطانية ، والأجنبية ، ولنقرأ الكلمات التالية الواردة في سفر « التثنية من التوراة ، وفي الفصل الثامن عشر الجملة (١٨) :

« أقيم لهم نبيـــاً من وسط إخوتهم مثلك ، وأجعلُ كلامي في فمـــه » .

---

(١) سورة النساء الآية : ٤٦ . (٢) سورة المـــائدة الآية : ١٣ .

(٣) سورة المـــائدة الآية : ٤١ . (٤) سورة البقرة الآية : ٧٥ .

فإذا كانت هذه الكلمات لا تنطبق على « محمد » فإنها تبقى غير مُنجَزة ولا نافـــذة .

فالمسيح نفسه لم يدَّعِ أبداً أنه النبي المشار إليه ، حتى أن « حوارييه » كانوا على نفس الرأي . . .

ويقـــول : وعند التأكيد على شخصية النبي الموعود ، فإن النبوءة الأخرى هي على أي حـــال ، تساعد كثيراً عندما تتحدث عن « نـور الله المشعِّ ، القادم من فَاران » ، وهي قفار مكـــة ، فالكلمات الواردة في « التوراة » في الفصل (٣٣) الجملة (٢) تنص على ما يـــلي :

« وجاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من سعير ، وتلألأ قادماً من جبل فاران ، وجاء معه عشرة آلاف قديس ، ومن يده اليمنى برزت نار شريعـــةٍ لهم » . . .

ولم تكن لأي واحد من الإسرائيليين ، بما فيهم المسيح أية علاقة بفاران ، فإن « هاجر » مع ولدها إسماعيل تجولا في متاهات بئر السبع وهم الذين سكنوا بعد ذلك في قِفار فاران . (سفر التكوين فصل ٢١ جملة ٢١) .

« وأخذت له أمُّه زوجةً من أرضِ مصر ، ومن ولده الأول قيدار « عدنان » جاء الأحفاد العرب الذين ـ منذ ذلك الزمن ـ سكنوا واستوطنوا في قِفَار فاران .

فيقول البروفسور معلقاً على هذه النبوءة : « فإذا كان محمد وهو معروف للجميع ، قد جاء من نسل إسماعيل ، وابنه (عدنان) ثم ظهر بعد ذلك نبياً في قِفار فاران ، ثم دخل مـــكة مع عشرة آلاف قديس (مؤمن) وجاء بالشريعة النارية إلى شعبه ، أوليست هذه النبوءة تحققت بالحرف الواحد ، وصدقت على محمد ﷺ ؟ !

ثم يقـــول : إن النبوءة التي جاء بها حبقوق النبي ، وهي على وجه التخصيص جديرة بالملاحظة والانتباه وهي : القدوس من جبل فاران ، جلاَلُه غطّى السماوات ، والأرض امتلأ تْ بحمـــده وتسبيحه ، والكلمة « حمـــد » هنا لها معنى هام ، ذلك أن اسم « محمد » بالذات تعني حرفياً « المَمْدُوح » . ثم ينقل عدة نبوءات من إشعيا . (الاصحاح ٤٢ الجملة ١١ ، ١٢) . (وأيضـــاً الفصل ٦٠ الاصحاح ٢١ الجمل ١٣ ـ ١٧ من إشعيا) .

وهـكذا يمضي المؤلف في سرد النبوءات من الكتاب المقدس ويقول : وليست لديّ أية نيةٍ أَو رغبةٍ في إيذاء مشاعر أصدقائي النصارى ، فأنا أحب المسيح ، وأحب موسى ، وإبراهيم كما أحب محمداً ، وكافة أنبياء الله الآخرين .

ولا يستهدف ما أكتُبُه إثارة أي جدل مرير عقيم مع الكنائس ، بل لا تَعْدو الغاية أَن تكون دعوةً لهـا ، لبحثٍ واستقصاءٍ رضيٍّ وُدِّي ، لهـذه المسألة البالغة الأهمية ، وبروح المحبة والتجرد ، وإذا ما تخلى النصارى عن محاولتهم غير المجـدية في تعريف جوهر الكائن الأعظـم ، واعترفوا بوحدانيته المطلقة ، فإن الوحدة عندئذ بينهم وبين المسلمين ليست محتملة فحسب ، بل هي في غاية الإمكان .

« فإذا ما تم القبول والتسليم بوحدانية الله ، فإن نقـاط الخلاف الأخرى بين الديانتين يمـكن تسويتها بصورة أسهل وأيسر » .

وهذا كلام جدير بالاحترام ، وهو في غـاية الأهمية والموضوعية .

وتحت عنوان : « وسوف يأتي أحمد لكل الأمم » ،

يقـول : الترجمـة المحرفة لبعض الكتب المقدسة تأتي في الاصحاح الثاني من سفر حجيّ هكذا :

« ويأتي مشتهى كل الأمم » ! ! ! . . .

وخـلال تلك الفرصة النادرة أرسل الله خادمه النبي ، حجيّ ليُسرِّيَ عن هؤلاء المحزونين ومعه هذه الرسالة الهـامة :

« ولسوف أزلزل كل الأمم ، وسوف يأتي حمـادةُ لكـل الأمم ، وسوف أملأ هذا البيت بالمجـد ، كذلك قال رب الجنود ، ولي الفضة ، ولي الذهب ، يقول رب الجنود ، وإن مجـد ذلك البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول ، وقال رب الجنود ، وفي هذا المكان أُعطي السلام ، يقول رب الجنود » . (الاصحاح الثاني من سفر حجيِّ الجملة ٧ ـ ٩) .

ثم يتكلم عن تحريف هذا الكلام ، ويأتي بتفصيل وشرح مستفيض ليثبت تحريف كلمة « حمدة » و « شالوم » إلى أن يقول : وفي إنجيل يوحنا الذي كُتب باليونانية

استعمل كلمة « باركليتوس » وهي صيغـــة وثنية لم تكـــن معروفة في دنيـــا الأدب الإغريقي ·

ولـــكن كلمة بيريكليتوس توافق وتطابق تمـــاماً اسم « أحمد » في معناها ومغزاها ، في لمعانها ومجدها ومديحها . . . ولكن وا أسفاه لا يوجد هناك إنجيل باق على الزمن باللغـــة الأصلية التي تحدث بها السيد المسيح .

وفي الكتاب شرح طويل ودراسة مستفيضة عن إبراهيم ، وإسماعيل ، والألفاظ التي حُرِّفَتْ عن مواضعها ، كما أَثبت ذلك القرآن الكريم ، وفيه إيضاحٌ لما في الأناجيل من خلط وأخطاء وما دخل عليها من تحريف وتغيير ؛

وإن هذا الكتاب وثيقة عظيمة تبين حقائق ثابتة وأصيلة تسترعي الانتباه ، وتستحق التفهم والاهتمـــام .

إن الأستاذ « فهمي شما » بقيامه بهذا الجهد العظيم والعمل الشاق يستحق منا كل الشـــكر والتقـــدير .

وإنني أتمـــنى له الصحة والعافية ، وأن أرى له عدة مؤلفات أُخرى نافعة قيمة تنير الطريق وتظهر الحقـــائق ، والله ولي التوفيـــــــــــق .

إبراهيم القطان

مقدمة المترجم

مؤلف هـذا الكتاب ، ليس شخصاً عادياً ، وإنما هو عالم لاهوتي متبحّر ، إنه الأب الروحي المبجل البروفسور « ديفيد بنجامين كلداني » ، الكاثوليكي المذهب قسيس طائفة الكلدانيين الموحِّدة سابقاً ، شرح الله صدره للإسلام وآمن به إيماناً عميقاً راسخاً وقال في ذلك :

(إني لا أعزو اعتناقي الدين الإسلامي لأي سبب غير التوجيه الإلهي الكريم الذي هداني للإسلام ، وبغير هذا الهَدْي الإلهي ، فقد يصاب الإنسان بالحيرة والضلال من تعدد التعاليم الدينية ، ومن كثرة الجهود المضنية التي تُجابه الإنسان في سبيل البحث عن الحقيقة .

ومنذ تلك اللحظة التي آمنت فيها بوحدانية الله أصبح نبيه « محمد ﷺ » هو النموذج ، بل النمط المتميز الذي اتبعتُه وسرت على هَدْي خُلقه وتعاليمه) .

وصدق الله العظيم حيث قال في كتابه « القرآن المجيد » في سورة الأعراف : (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (١) .

والمؤلف الذي أصبح يدعى بعد إسلامه « عبد الأحد داود » وضع باللغة الإنجليزية سلسلة من الأحاديث والحلقات، جمعتْها دولة قطر تحت إشراف رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في ذلك القطر العربي الشقيق .

(١) سورة الأعراف الآية : ١٥٧ .

وقد لفت نظري إلى صدور هذا الكتاب ، صديقان أحدهما مسلم والآخر مسيحي ، وقالا بالحرف الواحد : « إنك لتحسن إلى العالم العربي وإلى الأديان جميعها لو أنك تقــوم بترجمة هذا السفر النفيس » ودأبت على قراءته ، وانتابتني الدهشة وأخذني العجب ، لمــا جاء به من أسانيد « توراتيه ، وإنجيليه ، وقرآنيه » استند إليها هذا العالم الجليل في وضع كتابه هذا ؛

وترجمة مثل هذا الكتاب ، تحتاج إلى جهــد كبير ، ومراجع دينية عدة : أولهــا القرآن المجيد ، والإنجيل المقدس (العهد القديم ، والعهد الجديد) وتواريخ اللغات ، التي يعتقد بعض علماء اللاهوت أن أول لغة كـتُبت بها الترانيم المقدسة والتعاليم التي نزلت على الأنبياء قبل محمد ﷺ كانت هي اللغة الآرامية ، وتُرجمتْ بعد ذلك إلى اللاتينية ، ثم إلى اليونانية ثم إلى الإنجليزية وأخيراً إلى اللغة العربية ، بينما نزل القرآن الكريم على النبي محمد ﷺ باللغة العربية (١) ، عن طريق أمين الوحي جبرائيل عليه السلام ، وهي اللغة التي كان العرب يَنظمون بها أشعارهم ، ويكتبون بها سِيَرهم ، وينطقون بها في كلامهم .

ولابد لنــا من الإشارة إلى عقبة هــامة تعترض السبيل عند القيام بالترجمة الصحيحة في هذا الكتاب ، وهي أن ما أشار إليه المؤلف من مراجع إنجيلية وتوراتية ، اعتُمدت بالنص الحرفي الذي جاء فيها دون تحريف أو تغيير . وربما يصعب على القارىء العربي ، خصوصاً من كان قد تشرَّب لغة القرآن ، وهو المعجزة الرائعة ، أن يجد فيما تُرجم من الكتاب المقدس تلك الجزالة اللغوية والتعبير الرصين ، والبيان السحري الجذاب الذي تميزت به لغــة القرآن المجيد ، ومع ذلك فقد كان لابد ، عند القيام بالترجمة الصحيحة ، من نقــل النصوص التي أشار إليها المؤلف كما هي حرفياً ، وكما جاءت نصاً في الكتاب المقدس (العهد القديم والعهــد الجديد) .

---

(١) « إنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » سورة يوسف الآية : ٢ .
« وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً » . سورة طــه الآية : ١١٣ .

وقبل أن اختم كلمتي هذه لابد لي أن أذكر بالامتنان والشكر . فضل بعض من أعانني وحفزني من الأصدقاء المخلصين على القيام بهذا الجهـــد وأدعو لهم الله بالتوفيق والرضى والسداد .

والله نسأل أن يوفقنـــا جميعاً لمـــا فيه الخـــير والهـــدى والصلاح .

المترجـــــم
عمـــان ــ الأردن



نبذة مختصرة

عن حياة وسيرة مؤلف الكتاب
البروفيسور عبد الأحد داود
أستاذ علم اللاهوت

عبد الأحـــد داود ، هو الكاهن المبجل « بنجامين كلداني » الأستاذ في علم اللاهوت ، وقِسِّيس الروم الكاثوليك لطـــائفة الكلدانيين المُوحِّدة . وقد ولد عـــام ١٨٦٧ في « أورميا » من بلاد فارس وتلقى في صباه تعليمه الابتدائي في تلك المدينة .

وفي خلال ثلاثة أعوام (من سنة ١٨٨٦ – ١٨٨٩) ، كان أحد موظفي التعليم في إرسالية رئيس أساقفة « كانتربوري » المبعوثة إلى النصارى الأشوريين (النسطوريين) في أُورميا . وفي عام (١٨٩٢) أرسله الكاردينال « فوهان » إلى روما حيث تلقى تدريباً منتظماً في الدراسات الفلسفية واللاهوتية في كلية « بروبوغاندا فيد » وفي عام ١٨٩٥ تم ترسيمه كاهناً .

وفي عام (١٨٩٢) اشترك البروفسور داود في وضع سلسلة مقالات في مجـــلة « ذى تابليت » حول موضوع « الأشورية ، وروما ، وكانتربوري » وكذلك في مجـــلة « ذي أيريش ريكورد » حول موضوع « صحة أسفار العهـــد القديم » . وللبروفسور داود عدة ترجمات عن « السلام المريمي » وهو تحية جبريل للعذراء بلغاتٍ مختلفة ، نُشرت في مجـــلة « الإرساليات الكاثوليكية المصورة » ، وعندما كان في إستانبول وهو بطـريقه إلى بـلاد فارس عام سنة ١٨٩٥ ، أسهم في نشر سلسلةٍ طويلـــة من المقالات باللغـــة الإنجليزية والفرنسية في الصحف اليومية ، وقد نُشرت هناك باسم « جريدة ليفانت هيرالد » حول موضوع « الكنائس الشرقية » .

وفي عـــام (١٨٩٥) انضم إلى إرسالية « لازارست » الافرنسية في أورميا ، ونشر لأول مرة في تاريخ الإرسالية منشورات فَصْلية دورية باللغة العامة السريانية تُدعى « كَاَلا – تَشْرَعْ » أي « صوت الحـــق » وفي عام ١٨٩٧ انتُدبَ من قبل اثنين من رؤساء أساقفة الطائفة الكلدانية الموحدة في « أورميا » و « سالماس » لتمثيل الكاثوليك الشرقيين في مؤتمر « القُربان المقدس » الذي عقد في مدينة « باراى – لو – مونيال » في فرنسا تحت إشراف ورئاسة « الكاردينال بيرود » وكانت هذه طبعاً دعـــوةً رسمية .

أما ورقة العمل التي قدمها الأب بنجامين في ذلك المؤتمر ، فقد تم نشرها في صحيفة « الأنال » التي نشرها مؤتمر القربان المقدس والتي كانت تدعى « لو – بلرين » في ذلك العام . وقد جاء في هذه الورقة التي قرأها « كبير الكهنة الكلداني » (وهـــكذا كان لقبه الرسمي آنذاك) استنكاراً للطريقة الكاثوليكية في التعليم بين النسطوريين ، وتنبأ كذلك بقرب ظهور الكهنة الروس في « أورميا » "Urmia" .

وفي عام (١٨٨٨) عاد الأب بنجامين مرة أخرى إلى بلاد فارس حيث قريته ومسقط رأسه « ديجالا » التي تبعد ميلاً واحداً عن المدينة ، وهناك افتتَح مدرسةً بالمجـــان . وفي العام الذي تلاه ، أرسلتْهُ السلطات الكنسية إلى « سالماس » كي يتولى المسؤولية هناك ، حيث كانت النزاعات والفضائح على أشُدِّها بين رئيس الأساقفة الاتحادي « خوداباش » وبين الآباء اللازاريين ، تلك النزاعات التي كانت تهـــدد بالانقسام . وفي أول يوم من السنة الجديدة (سنة ١٩٠٠) قام الأب بنجامين بإلقاء موعظته الأخيرة ، تلك الموعظة التي لا تُنسى ، حيث صلى بجمعٍ حاشدٍ من المصلين بما فيهم عددٌ كبير من الأرمن غير الكاثوليكيين ، وغيرهم كثير ، اجتمعوا في كاتدرائية « سانت جورج » – خوروثاباد في « سالماس » وكان موضوع الموعظة « عصر جديد ، ورجال جُدُد » ومن الحقـــائق التي ذكرها فيها ، أن الإرساليات النسطورية ، قبل ظهور الإسلام ، كانت تعِظُ الناس بالإنجيل (أحد الكتب الأربعة الأولى من العهد الجديد التي تتحدث عن حياة المسيح وموته وانبعاثه) في جميع أنحـــاء آسيا ، وأنَّه كانت لهم عدة مؤسسات في الهند (خصوصاً في ساحل مالابار) وفي بلاد التتار ،

والصين ، ومنغوليا ، وأنهم ترجموا هذا الإنجيل إلى اللغـة التركية (يوغُوْرس) وإلى لغـات أُخرى ، وأن الإرساليات الكاثوليكية الأميريكية منها والإنجليزية ، لم تقدم من العمل الطيب للأمة الأشورية الكلدانية سوى القليل عن طريق التعليم الابتدائي ، وعملت من جهـة أُخرى على تقسيم تلك الأمة القليلة في عددها ، والموزعة في بلاد فارس وكردستان وبلاد ما بين النهرين ، إلى طوائف متعددة يُعادي بعضها بعضاً ، وكأنما كانت جهود تلك الإرساليات قد قُدِّرَ لهـا أن تجلب الدمار والانهيار النهائي للأمة المذكورة ، وبالتالي فإن الواعظ نَصَحَ الأهالي بأن يقوموا ببعض التضحيات ليقفوا على أرجلهم كالرجال ، ولا يعتمدوا على الإرساليات الأجنبيـة . . . الخ ! ! .

ولقـد كان البروفسور الواعظ مبدئياً على حق ، ولكن ملاحظاته لم يرض عنها أسيادُ الإرساليات ولا هي كانت في صالحهم ؟ ؟ ! ! . . . ولهـذا فقد نتج عن هذه الموعظة أن سارع المندوب البابوي المونسنيور « ليزيه » بالحضور من « أورميا » إلى « سالماس » ولكنه بقي حتى آخر لحظة صديقاً للأب بنجامين ، وقد عاد كلاهما إلى « أورميا » . وكان قد تم تأسيس إرسالية روسية جديدة في أورميا منذ سنة ١٨٩٩ . أما النسطوريون فقد اندفعوا بحماس إلى اعتناق الديانة المقدسة « ديانة امبراطور عموم روسيا » ! ! . . .

وكانت هناك خمس إرساليات عظيمة هي : « الأميريكية ، والإنجليكانية ، والإفرنسية ، والألمـانية ، والروسية » بالإضافة إلى كلياتهم ، وصحافتهم التي كانت تدعمها الجمعيات الدينية الغنية ، والقناصل ، والسفراء ؛ جميع هؤلاء كانوا يسعون لتحـويل مـا يقرب من « مائة ألف كلداني أشوري » هرطوقي ليتبعوا واحداً أو أكثر من الخمسة المهَرْطقين المنشقين عن العقيدة الأصلية .

ولـكن الإرسالية الروسية سرعان ما سبقت وتقدمت على الآخرين ، وكانت هذه الإرسالية بالذات هي التي دفعت بـل أجبرت الأشوريين الفرس عام ١٩١٥م ، وكذلك القبائل الجبلية الكردستانية ، الذين كانوا عند ذاك قد هاجروا إلى سهول سالماس وأورميا ، لأن يحملوا السلاح ضد حكوماتهم . وبالنتيجة فقد هلك نصف هؤلاء الناس في الحرب ، أما الباقي فقد طُردوا من أَراضيهم الأصلية .

والتساؤل الكبير الذي كان لمدة طويلة يتفاعل ويبحث عن الحلّ في ذهن صاحبنا الكاهن ، قد وصل الآن إلى القمة . هل كانت هذه الديانة المسيحية مع ألوانها وأشكالها المتعددة ، ومع عدم مصداقية شرعيتها ، وفسادِ كتبها المتعددة ، هل هي ديانة الله الصحيحة ؟ ؟ ! ! .

ففي صيف (١٩٠٠) عزل الكاهن نفسه عن الدنيا في منزله الصغير الواقع وسط حقول العنب قرب عين « شاليبولاغي » المشهورة في « ديجالا » ، ومكث هناك شهراً كاملاً يقضي وقته في الصلاة والتأمل ، يعيد قراءة الكتب المقدسة بنصوصها الأصلية مرة بعد مرة . وأخيراً انتهتِ الأزمة على صورة استقالة رسمية بعث بها إلى رئيس الأساقفة في « أورميا » والتي شرح بهـا وبصورة صريحة إلى المونسنيور « توما عاوْدُو » الأسباب التي حدت به إلى التخلي عن وظائفه الكهنوتيه . وقد قامت السلطات الكنسية بعدة محاولاتٍ لكي يعود عن قرارهِ ولكن دون جدوى ، ولم تكن هناك أية خصومات شخصية ، ولم تكن هناك أية خلافات بين الأب بنجامين وبين رؤسائه ، بل كلٌ ما حدث كان مسألة شعور ووعي مقصود .

وطوال عدة أشهر كان السيد داود ــ وهذا ما أصبح يُدعى به الآن ــ قد استُخدم في « تبريز » مفتشاً في البريد والجمارك الفارسية تحت إمرة أحد الخبراء البلجيكيين ، ونُقِل بعد ذلك ليدخل في خدمة ولي العهـد « محمد علي ميرزا » كمدرسٍ ومترجم . وفي عام (١٩٠٣) زار بريطانيا مرة أُخرى حيث انضم إلى « الجماعة المُوَحِّدةِ بالله » وفي عام (١٩٠٤) أرسلتْهُ « جمعيةُ الموحدين البريطانية الأجنبيـة » إلى فارس كي يقوم بمهمة التعليم والتوعية بين مواطنيه وأهـله .

وفي طريقه إلى بلاد فارس ، زار مدينة إستانبول ، وبعد مواجهات عديدة مع شيخ الإسلام جمال الدين أفندي وعلماء آخرين ، اعتنق الديانة الإسلامية المقدسة .

بسم الله الرحمن الرحيم

محمّد ﷺ في الكتاب المقدسّ

« نبيٌّ الجزيرة العربية كما جاء في الكتاب المقدس »

وحـــي من « جهة بلاد العرب »

(إشعيا ٢١ / ١٣)

هذه الحقبةُ الحالية العقيمة من الثقافة الأصيلة ، وذلك العجز المضطرد عن معرفتنا باللغات القـــديمة ، قد شل الأذواق في عصرنا هذا وحال بينها وبين استيعاب أية محاولة كالتي أقوم بها في هـــذا الصـــدد .

والصفحات التالية تقدمُ لنا سلسلةً من الحلقات الرائعة البارعة ، وهي بقلم الأب الروحي البروفسور عبد الأحد داود . إلا أنني أشك كثيراً فيما إذا كان هناك عدد كبير ، حتى من بين هيئة الكهنوت في الكنيسة المسيحية ممن يستطيعون أن ينحوا هذا النحو فيقدموا عرضاً عميق المعرفة كهذا الذي قام به هذا البروفسور العالم .

ومما زاد إعجابي فوق هـــذا ، كيف يسعى هذا العالم أن يزج بقُرّائِهِ في متاهات لغوية قديمـــة ، عفّى عليها الزمن ، وقد مضت وانقضت منذ آلاف السنين ، ولنضرب مثلاً لذلك : اللغة الآرامية ، فهناك القلائل ، حتى من بين رجال الكهنوت ، ممن يستطيعون فهم الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس ، المعتَمَدَةِ عند الكنيسة الكاثوليكية أو أن يستوعبوا النص اليوناني الأصلي لكتاب العهد الجديد ؟ . . . وعلى الأخص عندما تـعتَمِـدُ أبحاثُنا ببساطة على أُصول وتواريخ الكلمات اللاتينية واليونانية ! ! . . .

ومهما كانت قيمةُ تلك الحلقات الطويلةِ عند من لا يَرضى عنها ، فإننا في هذه الأيام عاجزون تمـــاماً عن تذوّقها ، على الأقل من زاويةِ التعمق الواسع في بطون

الكتب ، ذلك أن غموض النبوءة التي تُلازم الأقوال والتعابير التنبوئية التي أُشير إليها ، يجعلها مرنة (مطاطة) بصورةٍ كافية لكي تغطي أي موضوع؟ ؟ ! ! . . . أما الصغير المشار إليه في نبوءة القديس يوحنا ، فإنه قد لا يكون المقصود به ابن مريم ، رغم أن قبيلته نفسها اعتبرته كذلك ، ونظرت إليه بعين الازدراء .

إن النجار المقدس قد انحدر من أبوين متواضعين ، وقد كان الناسُ من بني قومهِ يستهزءونَ به ويسخرون ، وكانوا يُصَغِّرونَ من شأنه ، ويُظهرونه بأدنى القيم في مُجتمعهِ ، بين الفريسيين وهم (طائفة اليهود المُرائين والكاذبين والنساخ) ؟ ؟ . . لكن المبالغةَ في الحماسةِ التي أبداها أتباعه في القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد ، والتي كانت تَنْزِع إلى التصديقِ والأخذ بأية صورةٍ من صور النبوءات الواردةِ في الكتاب المقدس ، فقد كان طبيعياً أن تُغريهم على الاعتقاد بأن سيدهم الأعظم هو الشخص الذي كان يشير إليه المعمداني في نبوءاته .

وعلى كل حال ، فهناك صعوبة أُخرى تواجهنا ، وهي كيف يمكن لأي شخص أن يعتمد على بينةٍ أو شهادةٍ من كتاب كان أصلاً ، وباعتراف الجميع ، محشواً بالفلكلور (أي الحكايات والتقاليد ، والعادات) ؟ ؟ . . . حتى أن أصالة الكتاب المقدس كانت ، وعلى المستوى العالمي ، موضعَ تساؤل ؟ ؟ ! ! . وبدون الخوض في مسألة الأصالة هذه ، يمكننا القول – على أقل تقدير – بأننا لا نستطيع الاعتماد على التصريحات التي وردت فيه ، والمتعلقة بالسيد المسيح ومعجزاته ، بل إنّ البعض ليذهبون إلى أبعد من ذلك ، فيجزمون أن وجودَه كشخصٍ تاريخي هو أمرٌ موضع تساؤلٍ أيضاً ؟ ؟ !! . واعتماداً على ما جاء في الإنجيل يصبح الأمر خطيراً عندما يصل الإنسان إلى نتيجة واضحة سليمة في هذا الشأن ، فإن أي مسيحي ، ولو كان مذهبه « العصمة » في الإنجيل ، لا يستطيع أن يبدي أي اعتراض على قولي هذا . وإذا كانت هناك بعض الجمل القليلة ، أو الكلمات البارزة في العهد القديم ، والتي أمكن لبعض الكُتّاب من واسعي الأفق أن يطبقوها على المسيح ، فإن التعليقات التي جاء بها بعض الكتاب العلماء عن هذه المقالات الفياضة العميقةِ يجب أن تحوز على الاحترام وتنال التقدير حتى من رجال الدين أنفسِهم .

وإنني أكتب بنفس الجهـــد والتصميم ، ولكنني حاولت أن اعتمد في مناقشتي على بعض أقسامٍ من الكتاب المقدس والتي قلّما تسمح بأي جدلٍ لغوي . ولن أذهبَ إلى اللاتينية أو الإغريقية أو الآرامية ، لأن ذلك يكون عديم الجـــدوى ، إلا أنني فقط أورد فيما يلي النص بنفس الكلمات من النسخة المصححة التي نَشرَتْها جمعية الكتاب المقدس البريطانية والأجنبية . ولنقرأ الكلمات التالية الواردة في سفر « التثنية » من التوراة (الفصل الثامن عشر الجملة ١٨) :

« أُقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك ، واجعلُ كلامي في فمـــه » .

فإذا كانت هذه الكلمات لا تنطبق على « محمد » فإنها تبقى غير متحققة ولا نافذةٍ ، فالمسيح نفسه لم يدَّعِ أبداً أنَّه النبي المشار إليه . حتى أن « حوارييه » كانوا على نفس الرأي ، وأنهم يتطلعون إلى عودة المسيح مرةً ثانية لكي تتحقق النبوءة (١) وحتى الآن ، فإنه من الثابت غير المنقوض بأن « الظهور الأول للمسيح » لم يكن ليدل على ما جاء في الجملة : « أُقيم لهم نبياً مثلك » ، وكذلك فإن عودة المسيح مرةً ثانية ، لا تكاد تحمل معنى هذه الكلمات . . وإن المسيح ، كما تؤمن به كنيستُه ، سوف يظهر كقاضٍ وليس كـمقدّمٍ للتشريع ، بينما « الموعود » هو الذي يجيء حاملاً « الشريعة الناريّة المشعَّةَ بيده اليُمنى » .

وعند التأكيد على شخصية النبي الموعود ، فإن النبوءة الأخرى المنسوبة إلى موسى هي ، وعلى أية حـــال ، تساعد كثيراً عندما تتحدث عن « نور اللهِ المشعِّ ، القادم من فاران » وهو قفـــار مـــكة . ثم إن الكلمات الواردة في « التوراة » وفي الفصل (٣٣) الجملة (٢) تنص على ما يلي :

---

(١) فيُرسل إليكم المسيح المقدر لكم أي يسوع ذاك الذي يجب أن تحتفظ به السماء إلى أزمنة التجديد الشامل ، الأزمنة التي أوحاها الله إلى أنبيائه الأطهار ، فلقد قال موسى : « سيبعث الله ربنا من بين إخوتكم نبياً مثلي فاستمعوا إليه في جميع ما يقول لكم ، ومن لم يستمع لذلك النبي يُستأصل من بين الشعب » .
الفصل (٣) الجملة (٢٠) . [المؤلف]

« وجاء الربُّ من سيناء ، وأشرقَ لهم من ساعير ، وتلألأ قُدُماً من جبل فاران ، وجـــاء معه عشرة آلاف قديس ، ومن يده اليمـــنى برزت نارُ شريعةٍ لهـم » ففي الكلمات شُبّه نور الرب بنور الشمس « وهو قادم من سيناء وقد أَشرق لهم من ساعير » ولكنه تلألأ بالمجد من « فاران » حيث وجب أن يظهر مع عشرة آلاف قديس ، ويحمل بيده اليمنى شريعة لهم ، ولم تكن لأي واحدٍ من الإسرائيليين ، بما فيهم المسيح ، أية علاقة بـ « فاران » فإن « هــاجر » مع ولدها « إسماعيل » تجولا في متاهات « بئر السبع » وهم الذين سكنوا بعد ذلك في قِفار « فاران » .

(سفر التكوين فصل ٢١ الجملة ٢١) :

« واتخذت له أمُّه زوجةً من أرض مصر ، ومن ولده الأول قيدار (عدنان) انحدر الأحفاد العرب الذين سكنوا منذ ذلك الحين في قِفار « فاران » واتخذوها موطناً لهم ، فإذا كان « محمد » وكما هو معروف للجميع قد جاء من نسل إسماعيل ، وابنهِ قيدار (عدنان) ، ثم ظهر بعد ذلك نبياً في قفارِ فاران ، ثم دخل مكةَ مع عشرة آلاف قديس (مؤمن) ، وجاء بالشريعة النارية إلى شعبه ، أو ليست هذه النبوءة السالفة الذكر هي التي تحققت بالحرف الواحد ؟؟ ... ثم إن النبوءة التي جاء بها « حبقوق النبي » وهي على وجـــه التخصيص جديرة بالملاحظة والانتباه ، وهي كما يلي : « القدوس من جبل فاران ، جلاله غطّـــى السماوات ، والأرضُ امتلأتْ بحمدهِ وتسبيحهِ » والكلمة « حَمْد » هنا ، لهـــا معنى هام ذلك أن اسم « محمد » بالذات تعني حرفياً « الممدوح » وفوق هذا ، فإن العرب ، وهم سكان قِفار « فاران » كانوا قد وُعدوا أيضاً بنزول « الوحـــي » : « لترفع البرية ومدنها صوتها ، الديار التي سكنها قيدار (عدنان) لتترنَّمْ ، سكانُ « سالع » من على رؤوس الجبال ليهتفوا ويمجدوا الرب تمجيداً ، ولينشروا تسبيحه في الجزر ، الرب كالجبار يخرج ، ويثيرُ حميته كرجلِ حرب ، ويهتف ويصرخ ، ويقوى على أعدائه » (إشعيا الاصحاح ٤٢ الجملة ١١ و ١٢) .

وحول هذا الموضوع ، هناك نبوءتان أُخريان جديرتان بالملاحظة ، حيث وردت الإشارة إلى ذكر قيدار (عدنان) ، في الفصل (٦٠) من إصحاح « إشعيا » ونصه :

« قـومي استنيري لأنه قد جاءَ نورُكِ ، ومجـد الرب أشرقَ عليكِ . . . تغطيكِ كثرةُ الجمـال ، بكران ومديان وعيفة ، كلها تأتي من شيبا . . كلُّ غنمِ قيدار تجتمع إليك ، وكِباشُ بنايوت تخدُمُكِ وتصعدُ مقبولةً على مذبحي ، وأُزين بيتَ جمالي . . الخ » .

وكذلك فإن النبوءة الأُخرى وردت في إصحاح إشعيا « الإصحاح (٢١) الآيات (١٣ ـ ١٧) تقول هذه النبوءة : « وحـي من جهة بلاد العرب ، في الوعر في بلاد العرب ، تَبيتينَ يا قوافلَ الدّدانيين ، ويا سكان أَرضِ تَيماء ، وافـوا الهاربَ بخبزه ، فإنهم من أمام السيوف قد هربوا ، ومن أَمام القوس المشدودة ومن أَمـامِ شدةِ الحرب ، فإنه هـكذا قال لي السيد ، في مـدة سنةٍ كسنةِ الأجير ، يَفْنَى كل مجد قيدار ، وبقيةُ عدد الأقواس من أبطال بني قيدار تَضْمَحِلّ » .

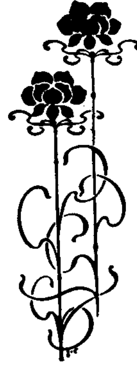
اقرأ هذه النبوءات في « إشعيا » ، كما جاءَت في سفرٍ من أسْفار التوراةِ ، التي تتحدث عن « قـدوم نور الله من فاران » .

فإذا كان إسماعيل قد سكن في قِفار « فاران » حيث وُلِدَ له قيدار (عدنان) ، وهو الجـد والسلف الأعلى للعرب ، وإذا كان قد كُتِبَ على أولاد قيدار (عدنان) أن يأتيهم الوحي من الله ، وإذا كان على رعية قيدار أن تُبدي تَقبُّلَها للمذبح المقدس تمجيداً لـ « بيت عظمتي » حيث كان الظلام يلف الأرض لقرون عديدة ، ثم كان على تلك البقعة من الأرض أن تستقبل النور من الرب ، فإذا كان كل ذلك المجد الذي تحقق لقيدار ، وذلك العدد من الرّماة ، وكذلك كل أمجاد الأبطال من أولاد قيدار ، إذا كانت هذه كلها يجب أن تتلاشى خلال سنة واحدة ، بعد الفرار أمام السيف المسلول ، والقوس المشدودة ، فهل هناك من يعنيه هذا الكلام غير شخص واحد من « فاران » هو « محمد » ؟ ! (حبقوق / الإصحاح الثالث،الجملة « ٣ ») . « فمحمد » هو من نسلِ إسماعيل وبَـنيهِ من قيدار (عدنان) الذي استقرَّ في قِفار « فاران » ، « ومحمد » هو النبي الوحيد الذي تَقبَّل العرب عن طريقه « الوحي الإلهي» عندما كان الظلام يلف الأرض ، ومن خلاله شعشع النور الإلهي في « فاران » ، ومكةُ هي البلد الوحيد الذي تَمَجَّدَ اسمُ الرب في بيته ، « وكذلك جاءَت » رعيةُ

قيدار تتقبل الوحي على مذبح « بيت الله » ، فها هو محمد ، قد اضطهده شعبه ، فاضطر للهجرة « من مكة» ، وقد انتابه العطش أثناء هربه من السيوف المسلولة والأقواس المشدودة ، وبعد عام واحد من هروبه ، قابله أحفاد قيدار في موقعة « بدر » وهذا هو المكان الذي وقعت فيه أولُ معركة بين أهل مكة وبين النبي . وبعد ذلك انكسَرَ أحفاد قيدار « الذين يحملون الأقواس » ، ثم انحسرت كل أمجاد قيدار ، فإذا لم يكن الأنبياء المقدسون هم الذين تقبلوا الوحي ، وحققوا جميع هذه النبوءات ، فإن ذلك يعني أن تلك النبوءات لم تتحقق بعد ؟ . . . وكذلك فإن « بيت الرب الذي يُمجَّد اسمهُ فيه » والمشار إليه في الإصحاح (٦٠ الجملة ٧) ، هو بيت الله الحرام في مكة ، وليس كنيسة المسيح ، كما كان يعتقد المفسرون المسيحيون ، وإن رعية قيدار ، كما هو مذكور في الفصل (٧) ، لم ينضّموا مطلقاً إلى كنيسة المسيح،والحقيقة أنّ القرى التابعة « لقيدار » وسكانها هم الناس الوحيدون في هذا العالم ، الذين لم يتأثروا من ذلك الحين بأية تعاليم من كنيسة المسيح ، وكذلك ، فإن ذكرَ العشرة آلاف قديس كما جاء في تَثْنِيَه » التوراة ، ذو مغزى هام (الإصحاح الثالث والثلاثون) . « الله أشرق نوره من فاران وجاء مع النور عشرة آلاف قديس » فإذا قرأت جميع التواريخ المتعلقة بقِفار « فاران » فإنك لا تجد أية حادثة أُخرى غير هذه أمامك ، وهي أنه عندما فتح النبي مكة ، دخلها على رأس عشرة آلاف مؤمن من أتباعه في المدينة ، ثم يعود إلى « بيت الله » وبيده اليمنى الشريعة التي حولت جميع الشرائع الأخرى إلى رماد . وإن « الهادي » وهو « روح الحق » الذي بشر به المسيحُ ، لم يكن غير « محمد » نفسه ولا يمكن أن نأخذ باعتبارنا أنه « الروح القدس » كما تَدَّعي النظريات اللاهوتية ، إذ يقول المسيح « إنه من المناسب إليكم أن أرحلَ بعيداً ، لأنني إن لم أذهب بعيداً ، فإن « الهادي » لا يجيء إليكم ولكنني إذا رحلت فإني مُرسِلهُ إليكم » وهذه الكلمات تعني بوضوح أن « الهادي » كان يجب أن يجيء بعد المسيح ، وأنه لم يكن معه عندما نطَقَ بهذه الكلمات . وهل لنا أن نفترض أن « المسيح » كان مُجرَّداً من الروح القدس إذا كان مجيء الروح القدس مشروطاً بذهاب « المسيح » ؟ وعدا عن ذلك فإن الطريقة

التي وصفه بها المسيح تجعله إنساناً من البشر وليس روحاً : « سوف لا يتحدث عن نفسه لكنه يعيد على الناس ما سمعه » فهل يتوجب علينا أن نفترض أن الله والروح القدس ، كانا « وجودين متميزين » وأن الروح القدس يتحدث عن نفسه وعما يسمعه من الله ؟ .

إن كلمات المسيح تشير بوضوح إلى بعض الذين أرسلهم الله ، إنه يدعوه « روح صدق » وكذلك يتحدث القرآن عن محمد بهذه الصفة تماماً فيقول : (بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ) (١) .



(١) سورة الصافات الآية : ٣٧ .

"محمدٌ ﷺ كما جاء في العهد القديم

أولاً – ملاحظـــات تمهيدية :

إنني أقصد من خـــلال هذه الحلقة ، والحلقات التي تليها أن أبيّنَ بأن العقيدة الإسلامية والمتعلقة بالذاتِ الإلهية وبخاتم رسل الله ، إن هي إلا العقيدة الصحيحة تماماً ، وأنها تتفـــق وتعاليم الكتاب المقـــدس .

وسأكرس هذه المقـــالة لمناقشة النقطة الأولى ، كما أنني سأحاول في مقالات لاحقة أُخرى أن أوضحَ بأن « محمداً » هو الموضوع وهو الهـــدف الحقيقي للعهد ، وأن نُبوءات العهـــد القديم قد تحققت فعلاً فيه وحده ، وليس في أحدٍ غيره .

كما أنه بودّي الإفصاح عن أن الآراء المطروحة في هذه المقالة وفيما يتبعها من مقالات ، هي آراء شخصية ، وأنا وحدي مسؤول عن أبحاثي الشخصية الأصيلة التي عثرت عليها في الأسفار العبرية المقدسة ، كما وأنني لا أدعي بأنني حجة في تفسير التعاليم الإسلامية ! . .

وليست لدي أية نية أو رغبـــة في إيذاء مشاعر أصدقائي النصارى ، فأنا أُحب المسيح ، وأُحب موسى ، وإبراهيم ، كما أُحب محمداً ، وكافة أنبياء الله الآخرين (١) .

ولا يستهدف ما أكتبه إثارة جدلٍ مريرٍ عقـــيم مع الكنائس بل لا تعدو الغايةُ أن تكون دعوةً لهـــا ، لبحثٍ واستقصاءٍ رضيٍّ وديّ ، هـــذه المسألةِ البالغة

(١) قال تعـــالى : ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَنُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ . سورة آل عمران الآية : ٨٤ . [المترجم]

الأهمية ، وبروح من المحبة والتجرد . وإذا ما تخلى النصارى عن محاولتهم غير المجدية في تعريف جوهر الكائن الأعظم ، واعترفوا بوحدانيته المطلقة ، فإن الوحدة عندئذ بينهم وبين المسلمين ليست محتملة فحسب ، بل هي في غاية الإمكان . فإذا ما تم القبول والتسليم بوحدانية الله ، فإن نقاط الخلاف الأخرى بين الديانتين يمكن تسويتها بصورة أسهل وأيسر .

ثانيـــاً — الله وصفـــــاته :

هنـــاك نقطتان أساسيتان بين الإسلام والنصرانية جديرتان بالدرس البالغ الجِدِّية والعُمق ، وذلك سعياً وراء الحقيقةِ والسلام الكوني . ولـمــا كانت هاتان الديانتان تدّعيان أنهما من مصدر واحد ، فإنه يترتب على ذلك أن لا يُسمح ببقاء أية نقطة قابلة للجـــدل بينهما . فكلٌ من هذين الدينين العظيمين يؤمن بوجود الله ، وبالعهد الذي أُبرم بين الله ونبيهِ إبراهيم ، ولا مندوحة من التوصل إلى اتفاق نهائي مخلص حول هاتين النقطتين الرئيسيتين بين الأتباع الأذكياء العاقلين للديانتين ، وهل علينا نحن البشر المساكين الجهـــلة أن نؤمن بإلـــٰهٍ واحد ونعبده ، أو أن نعتقد بتعدد الآلهـــة ثم نخشى هذا التعدد ؟؟ . . . ومَنْ مِنَ الاثنين : عيسى أو محمد هو المقصود بالعهد أو الميثاق الإلهي ؟؟ . . . لابد من الإجابة عن هذين السؤالين إجابة نهائية قاطعـــة .

وسوف يكون مجردَ ضياع للوقت ، تفنيد آراء الذين يفترضون بدافع من جهل أو حقد أن رب الإسلام يختلف عن الإله الحقيقي ، وأنه مجرد إلهٍ خرافي ابتدعه « محمد » ! ! . . ولو حاول القساوسة واللاهوتيون النصارى معرفةَ حقيقة كتبهم المقدسة التي وردت أصلاً باللغة العبرية بـدلاً من ترجمتها ، كما يفعل المسلمون الذين يقرأون قرآنهم بنصه العربي ، لاتّضح لهم أن الله هو نفس الاسم القديم السامي للكائن الأعلى الذي أَوحى وكلّم آدم وجميع الرسل من بعدهِ ، والله هو الكائنُ الوحيد الموجود بذاتـهِ ، وهو القويُّ العليم ، والله يحيط بكل فراغ ويملأه ، وبكل كائن وبكل شيء ، وهو منبع جميع الحياةِ والمعرفةِ والقوةِ ، وهو الخالق الأوحد المنظِّم والمسيِّر لهـــذا الكـون ، وهو صاحب الوحدانيةِ المطلقةِ . ثم إن جوهر الألوهية وطبيعتَها يتجاوز الإدراك البشري بصورة قاطعة ، ولذلك فإن كلّ محاولةٍ لتعريف

جوهر الله ليست عقيمةً فحسب ، بل إنها أيضاً ضارةٌ بسعادتنا الروحية ، وبإيماننا ، لأنها لابد وأن تقودنا إلى الضلال والخطـأ .

ولقد استنزفت الطائفةُ التي تعتقد بالثالوث الأقدس من الكنيسة النصرانية ، ولمدة تناهز السبعةَ عشر قرناً ، كلَّ تفكيرِ قديسيها وفلاسفتِها بحثاً عن تعريفٍ لجوهر الإلـه وشخصه ، فما الذي ابتكروه ؟ ؟ . . . لقد كان كل ما فرضه « أتباع » أمناسيوس ، وأُوغسطين ، وتوماس الاكويني ؛ على النصارى ، وتحت طائلةِ اللعنةِ الأبدية ، هو أن يؤمنوا بأن الله « ثالث ثلاثة » وهنـا يقول الله في قرآنه الكريم منددا بهذا الرأي في هذه الآية الجليلة :

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلـٰهٍ إِلَّا إِلـٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ ، لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (١) .

وقد كان السبب الذي جعل العلماءَ المسلمينَ من أصحاب الرأي الرشيد يُحجمون دائمـاً عن تعريف جوهرِ الله ، هو أن جوهَره يتعالى عن كافة الصفات التي يمكن تعريفه بها . إن للهِ أسماءً عديدةً ليست إلا نعوتاً مشتقة من جوهرهِ من خلال تجلياته المختلفة في هذا الكون الذي أبدعه دون شريك . وإننا ندعو الله بأسماء « القـدير » ، « الباقي » ، « الحيّ» «القيوم » ، « العليم » « الرحـيم » ، وهلم جرّا ، لأننَّا أدركنا أن البقاء ، والحياة والقيوّميّة ، والعلم الشامل والرحمة ، منبثقةٌ جميعُها من جوهره وتختص به وحده بشكل مطلق ، وهو وحده الذي لا حدود لعلمه ، وقدرته وبقـائه ، وقدسيته ، وجماله ، وخيرهِ ، ومحبتهِ ، ومجـدهِ ، وهو المنتقـم الجبار ، لأن منه وحده توجد وتنبعث صفات المعرفة والقدرة والحياة والقداسة والجمال ، وما إلى ذلك . وليست للهِ صفات بالمعنى الذي نفهمه ، فعندنا أن « الصفة » أو « الخاصية » شيء مشترك بين أفراد من البشر كثيرين ، من نوع أو من جنس واحد ، ولكن صفات الله تختص به وحده لا شريك لهُ فيها . فعندما نقول إن سليمان حـكيمٌ ، قـويٌّ ، عادلٌ ، وجميل ، فإننا لا نعزو له دون غيره

(١) سورة المـائدة الآية : ٧٣ .

كل الحكمة والقدرة والعدل والجمال ، وكل ما نعنيه من ذلك أن سليمان حكيم نسبياً بالمقـــارنة مع غيره من أبناء جنسه (البشري) وأن الحكمة أيضاً إحدى صفاته النسبية المشتركة مع أفراد ينتمون إلى طبقته .

وبعبارة أوضح ، فإن الصفةَ الإلهيةَ نابعةٌ من الله ، ولذلك فهي صفةٌ تتعلق بالفعل وكل عمل إلهـــي لا يعدو كونه عملية خـــلق وإيجاد .

ولابد أيضاً من التسليم بأن الصفات الإلهية ، بحـــكم كونها نابعة من الله فإنها تتجاوز الزمن والبدء . ولذلك فالله عندما قال « كن » فكان ، فإنه نطق بكلمته في وقت الخـــلق وعند بدء الخلق . وهذا هو ما يدعوه المتصوفةُ « بالعقل الكلي » أو « بالفكر الشامل » لكونه ينطلق من العقل الأول . إذن فقد انطلقت « النفس الكلية » أو « الروح الشاملة » التي كانت أول من سمع وأطاع هذا الأمر الإلهـــي ، من النفس الأولى ثم عملت على تغيير الوجود . وبالطبع لا يجب اعتبار هذه الآراء الصوفية تعاليم إسلامية ، فإذا ما أمعنا النظر في هذه العقائد الخفيـــة الغامضة فإنها قد تقودنا على غير رغبةٍ منا إلى وحدة الوجود " Pantheism " التي تهـــدم صرح الدين العلمي أو المنطقـــي .

وسيؤدي بنا هذا الجَدَل إلى استنتاجٍ هو أن كلّ فعل من الأفعال الإلهية ينطلق من الله على أنه أحد التجلياتِ والصفاتِ الخاصةِ بالله سبحانه ، ولكنه ليس جوهرَه أو كينونَتَه ، والله خالقٌ لأنه هو الذي خلق في بدء الزمن وكذلك يخلق باستمرار . وتكلم الله في بدء الزمن كما يتكلم دائماً بالكيفية الخاصة به .

ولكن كما أن خَلْقَه ليس أبدياً أو ذاتاً إلهيةً فإنه لا يمكن إعتبارُ كلمةِ الله ذاتاً إلهيةً وخالدة(١) . ويذهب النصارى إلى أبعد من ذلك فيجعلون الخالق أباً إلهياً وكلمته ابناً إلهياً . وكذلك ، بما أنه نفخ الحياة في مخلوقاته ، فإنه يُلَقَّبُ بالروح القدس ، وينسون أنه من الناحية المنطقية لا يمـــكن أن يكون الله أباً قبل الخلق ، ولا ابناً قبل أن يتكلم ولا أن يكون الروح القدس قبل أن يكون قد « وهب الحياة » إنني استطيع أن أُدرك صفات الله من أعماله ، كدلائل ، بعد حدوث الأعمال أو ناتجة عنها

(١) سيأتي التعليق على مثـــل هـذه الفكرة .

[المعلق]

" Posteriori " وليس لديَّ أي قـدر من الإدراك لصفاته الدائمـة قبـل قيامهـا " Apriori " ولا أستطيع تصور وجود أي ذكاء بشريٍ قادرٍ على إدراك طبيعةِ الصفةِ الأزلية وعلاقتِها بجوهر الله . والواقع أن الله لم يوح لنا بطبيعة وجوده في الكتب المقدسة ، ولا مكّن العقل البشري من ذلك .

وصفاتُ الله يجب أن لا تُعتبر هوياتٍ أو شخصياتٍ قائمـة بذاتها أو منفصلة ، وإلا فإنه لن يكون عندنا ثالوث واحد فقطً من الأشخاصً في الألوهية ، بل سيصبح لدينا عشرات التواليث . فالصفة ليس لهـا وجود إلا بعد أن تنطلق من مصدرها . ولا نستطيع إعطاء الموضوع صفةً معينةً قبل أن تنطلق منه هذه الصفة وتم مشاهدتها بالفعل . ومن هنا فإننا نقول إن الله هو الله عندما نتمتع بفعلهِ الخيِّرِ واللطيف . ولكننا لا نستطيع أن نصفه بأنه إلـهٌ في لطفهِ وطيبتهِ ، لأن الطيبة ليست هي الله ولكنها عمله وفعله . ولهـذا السبب فإن القرآن دائماً ينسب إلى الله نعوتاً مثل : حـكيم ، عـليم ، رحـيم (١) ولكن لا يمكن أن نخلع عليه أوصافاً مثل « الله محبة ، ومعرفة ، وكلمة » ، وما إلى ذلك ، لأن المحبة هي عمل المحب ، وليست المحب نفسه ، كما أن العلم أو الكلمة هي فعل الشخص العالم وليست ذاته ؟ ؟ ! ! . . .

وإني أُصِرُّ بصفةٍ خاصةٍ على هذه النقطة بسبب الخطأ الذي وقع فيه أُولئك الذين يقولون بالأزلية والانفصال الذاتي الخاص ببعض صفات الله . وقد قيل إن كلمة الله ليس لهـا أي مدلول آخر سوى التعبير عن علمه ومشيئته ، كما يُدعى القرآن أيضاً « كلمة الله » ، وقد قال بعض الفقهاء والمسلمين الأولين : إن كلام الله أزليٌّ وغير مخلوق . وتُعطى التسميةُ ذاتُها إلى « عيسى المسيح » في القرآن فيقول « كلمة منه » (سورة آل عمران الآية ٤٤) ولكن من الضلال البعيد أن نعتبر كلمة الله شخصية قائمـة بذاتها ، وأنها اكتست باللحم ثم تجسدت في شكل رجل من الناصرة أو على صورة كتاب،وسمي الأول « عيسى المسيح » وسمي الثاني « القـرآن » .

(١) ومن اسمائه الحسنى ما جاء في قوله تعالى : (هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) . سورة الحشر الآية : ٢٣ .
[المترجم]

وقصارى القول في هذا الموضوع ، فإني أصرح بإصرار بأن الكلمة أو أية صفة أخرى يمكن تصورها من صفات الله ليست ذاتاً أو شخصية إلهية ، كما أنه لا يمكن أن يكون لها وجود فعلي قبل بدء الزمن والخليقة (١) .

وكثيراً ما تعرضَتْ أولُ عبارة يبدأُ فيها إنجيل يوحنا للتفنيد من قبل الكُتَّاب الموحـدين الأوائل الذين جعلوا قراءتها الصحيحة كما يلي : « في البدء كانت الكلمة ، وكانت الكلمة مع الله ، وكانت الكلمة كلمة الله » .

وسنلاحظ أن صيغـة الإضافة باليونانية (Theou) أي الذي يخص الله God's (٢) قد جرى تحريفها إلى " Theos " أي صيغة الرفع لهذا الاسم . ويجب أن نلاحظ أن عبارة « في البدء كانت الكلمة » تدل بوضوح على أصل الكلمة التي لم تكن موجودة قبل البدء . ولا يُقصَدُ بالكلمة الصادرة عن الله على أنها مادة منفصلة أو مستقلة قائمة

---

(١) هذا القول مخالف لمعتقد أهل السنة والجماعة ، وهو أن الله سبحانه وتعالى ، لم يزل متصفاً بصفات الكمال : صفات الذات وصفات الفعل ، قديماً قبل خلقه ولا يجوز الاعتقاد بأن الله وُصِف بصفة بعد أن لم يكن متصفاً بها ؛ لأن صفاته سبحانه وتعالى صفات كمال ، وفقدها صفة نقص ، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال ، بعد أن كان متصفاً بضدّه . .
(انظر : شرح العقيدة الطحاوية : ١٢٧ – ١٢٨) . [المعلق]

(٢) الشـرح : لقـد قام حول (المسيح كلمة الله) « لوجوس » " Logos " وهو المبدأ العقلاني في الكون ، جدل حامي الوطيس ، بين أبناء الكنيسة الأوائل ، ولاسيما في الشرق ، واستمر الجدل بأن تم القضاء على الموحدّين قضاء مبرماً وأُتلِفت كتاباتهم . ولسوء الحـظ لم تكـد تبقى أية قطعة سليمة غير مُحرّفة من الأناجيـل والتفاسير " Gospels & Commentaries " ، وكـذلك من الكتـابات المُختَلَف عليها والمنسوبة إلى الموحِّدين سوى ما اقتُبِس منهم في كتابات خصومهم مثل البطريرك اليوناني العالم « فونيوس » ومن سبقوه .
ومن أبرز آباء الكنيسة الشرقية القديس « أفرايم السوري » وهو مؤلف عدة كتب ولاسيما تفسير التوراة أو الكتاب المقدس الذي نشر بالسريانية واللاتينية ، =

= وقد قرأت الطبعـــة اللاتينية بعناية في روما . وله أيضاً مواعظ ورسائل اسمها « المدراشي » وكذلك « ضِد الهراطقة » "Contra Haeretic" الخ . . . .

وهنـــاك المؤلف السوري المشهور « بارديسان » والمعروفة كتاباته باسم : "Bardisanes" ، وقد ازدهرت في نهـــاية القرن الثاني وبداية القـــرن الثالث الميلادي ولا يوجد بالسريانية من كتابات « بارديسان » إلا ما اقتبسه « إفرايم ويعقوب النصيبي » (نسبة إلى نصيبين) والنساطرة واليعاقبـــة الآخرون وذلك من أجل دحضها وتفنيدها ، وما عدا ما استخدمه معظم الآباء اليونانيين في لغتهم . وقد أكّدَ « بارديسان » على أن يسوع المسيح كان قاعدة لهيكل كلمة الله ، ولكنه (أي المسيح) والكلمة مخلوقان . ويقول القديس إفرايم في تفنيد هرطقة بارديسان ما يـــلي :

« ويـــل لك أيهـــا التعس يا بارديسان »

« فإنك تقـــرأ بأن (الكلمة كانت الله) »

« ولـــكن الإنجيل لم يكتب مثـــل ذلك »

« باستثناء ما جـــاء بأن (الكلمة هي الله) » ! ! . . .

ففي جميع المناقشات حول المبدأ العقلاني في الكون الذي ينص على أن المسيح كلمة الله ، يوصَمُ الموحدون بأنّهم « هراطقة » أي كفرة لأنهم أنـــكروا الأزلية والشخصية المقدسة لهذا المبدأ بتحريفهم لإنجيل يوحنا . . الخ ! ! وقد ردت هذه الاتهامات على القائلين بالثالوث من قبل النصارى الحقيقيين أو الموحدين . ولذلك يستطيع المرء أن يستنتج من الأدبيات الطفيلية بأن الثالوثيين كانوا دائماً يُعيّرونَ بأنهم حرفوا أو أفسدوا الكتاب المقدس . [المؤلف]

بذاتها ومتعايشة مع صفة القــوة أو القــوي " Almighty " بل يُقصدُ بها التعبير عن علمه تعالى ومشيئته عندما نطق بكلمة « كُنْ » . وعندما قال الله « كُنْ » وُجدت السماوات . وعندما قال « كُنْ » خلق القرآن(١) ودُوِّنَ على اللوح ، وعندما قال « كُنْ » خُلقَ عيسى في رَحِمِ العذراء مريم عليها السلام وهــكذا . . . وعندما يشاءُ أو يريد الله أن يَخْلُقَ فإن كلمة الأمر منه وهي « كن » كافية وافية .

وحتى صيغة الافتتاح النصرانية « باسم الآب والإبن والروح القدس » لا يذكر فيها اسم الله ، وهذا هو الإلــه النصراني . وتتألف العبارة النسطورية واليعقوبية من عشرة مقاطع مثل العبارة الإسلامية « بسم الله » ويمــكن نقل حروفها كالتالي :

« بسْم ، أَبَهـْا ، وبُهْـرا ، وروحاً قدساً » ولها نفس المعنى المتضمن في جميع الصيغ أو العبارات النصرانية الأخرى . أما الصيغة القرآنية التي تعبر عن أساس الحقيقة الإسلامية فهي مناقضة تماماً للصيغة الثالوثية ، والصيغة الإسلامية هي : « بسم الله الرحمن الرحيم »

(١) يبدو من عبارة الكاتب أنه يؤمن بفكرة خلق القرآن ، التي ابتدعها المعتزلة ، وتعرض من جرائها الإمام أحمد بن حنبل وغيره من علماء أهل السنة للسجن والتعذيب ، على يــد المأمون الذي استماله المعتزلة لفكرتهم تلك ، وقد ثبت الإمام أحمد كالطود الأشم ، ورفض هذه البدعة الضالة التي لا تقوم على دليل من كتاب ولا سنة .

كما فنّد علماءُ السلف دعوى المعتزلة ، وألزموهم الحجة ، وأثبتوا بالدليل القاطع أن القرآن كلام الله غير مخلوق ولا حادث ، تكلم به سبحانه وقام بذاته لا بغيره ، وهو عز وجل منزّه أن يكون محلاً للحوادث المخلوقة ، وإنما الكلام وصف من أوصاف الكمال التي تليق بذاته جــل وعــلا .

ومن أدلة السنة ، الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن السني بن حنبش مرفوعاً بسند صحيح : « أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بَرّ ولا فاجر » .

فهــل يقول عاقل بأنه ﷺ عاذ بمخلوق ؟

بل هذا كقوله : أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك » . =

والثالوث المسيحي أو النصراني ، بحكم اعترافه أو تسليمه ، بتعدد الشخصيات في الإلــه ، فإنه ينسب خصائص شخصية منفصلة لكلِ شخص ، ويستفيد من أسماء العائلة المشابهة لتلك الموجودة في الميثولوجيا الوثنية ، ولذلك لا يمكن قبول هذا التثليث على أنه المفهوم الصحيح للإلــه . فالله ليس أباً لابن ، كما أنه ليس إبناً لأب وليس له أُم ، وهو أزلي لا أول له ، أبديّ لا آخر له(١) ، والاعتقاد بأن الله هو الأب ، والله هو الابن ، والله هو الروح القدس ، هذا الاعتقاد كفرٌ صريح بوحدانيةِ الله ، واعترافٌ متهوّرٌ بثلاثة كائناتٍ ناقصةٍ ، وهي سواء كانت منفصلة أو متحدة معاً لا يمكن أن تكون إلهــاً حقيقياً .

= وكقوله : « أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » .

وكقوله « وأعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا » .

كل هــذه من صفات الله تبــارك وتعالى .

وصفة الــكلام واحــدة منهــا . .

وكأن المؤلف يريد أن يقول : لمــا كان المسيح هو كلمة الله ، وهو مخلوق ، فلزم أن تكون كلمة الله مخلوقة كذلك .

هــذا القول ينطــوي على خطأ كبير ، إذ المراد بالكلمة هي التكوين أو البشارة . فإن الله لما أرسل إلى مريم الروح الأمين جبريل عليه السلام ، بشرها بأنه مأمور بأن يهب لهــا غلاماً زكياً ، فاستنكرت أن يكون لهــا ولد ، وهي عذراء لم تتزوج ، فقال لهــا : « كذلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له (كن) فيكون » .

فكلمة « كن » هي الكلمة الدالة على التكوين ، بمحض قدرة الله تعالى عند إرادته خــلق الشيء وإيجاده ، وقد خلق المسيح بهذه الكلمة . . وهذا لا يعني أنها مخلوقة مثله ، لأنّ وجوده أثر لتلك الكلمة ، وهي قائمة بذات الله غير مخلوقة ولا حادثة .

(انظر : شرح العقيدة الطحاوية ١٧٩ ــ ٢٠٢ وتفسير المنار ٨٢/٦) . [المعلق]

(١) قال تعالى : (هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) سورة الحديد الآية : ٣ . المعلق

والرياضيات كعلمٍ إيجابي تـُعلـِّمُنَـا أن الوحدة ليست أكثر من واحد ولا أقل ، وأن واحداً لا يمكن أن يساوي واحداً + واحداً + واحداً ، وبعبارة أُخرى فإنه لا يمكن أن يكون الواحد مساوياً لثلاثة ، لأن الواحد هو ثلثُ الثلاثة . وقياساً على ذلك فإن الواحد لا يساوي الثلث . وبالعكس فإن الثلاثة لا تـُساوي واحداً ، كما أنه لا يمكن للثلث أن يساوي الوحدة . والوحدة : هي أساس جميع الأعـــداد وهي معيارٌ للمقاييس والأوزان من جميع الأبعاد والمسافات والكميات والزمن . والحقيقة ، فإنَّ جميع الأرقام هي حاصل جمع الوحدة«١» والعشرة هي حاصل جمع عشر وحدات متساوية من نفس النوع .

والذين يقولون بوحدانيةِ الله في ثالوثٍ من الأشخاص إنما يقولون لنا إن كل شخص هو « إله قديرٌ ، موجود ، دائمٌ ، أَزَليٌّ ، وكاملٌ . لكنه لا يوجد ثلاثة آلهة قديرين ، وموجودين ، ودائمين ، وأزليين ، وكاملين ، ولكنه إله واحدٌ قدير ... » .

وإذا لم تـــكن هناك سفسطة في المنطـــق المذكور أعلاه ، فإننا سنطرح هذا « اللغـــز » الذي تـُقـَدِّمـُهُ الكنائس ، ويكون طرحنا له بالمعادلة التالية :

إلـــه واحد = إلـــه واحد + إلـــه واحد + إلـــه واحد

كـــذلك فإن

إلهـــاً واحداً = ثلاثةَ آلهـــة ؟ ! . . .

أولاً : لا يمكن لإلهٍ واحدٍ أن يساوي ثلاثةَ آلهة ، بل يساوي واحداً منها فقط .

ثانياً : بما أنك تـُسَلـِّم بأن كل شخصٍ إلهٌ كاملٌ مثل قرينيه ؛ فإن استنتاجك بأن ١ + ١ + ١ = ١ ليس استنتاجاً رياضياً بل هو ضربٌ من السخف ! ! . .

فأنت إذاً إما مـُبالـِغٌ في عجرفتك أو لجاجـَتِـك عندما تحاول أن تثبت أن ثلاث وحدات تساوي وحدة واحدة ، أو أنك أجبن وأخوف من أن تعترف بأن ثلاثةً تساوي ثلاثة . وفي الحالة الأولى فإنك لن تستطيع أبداً أن تثبتَ حـلاً خاطئاً لمسألةٍ ما بعملية زائفةٍ ، وفي الحالةِ الثانيةِ تنقـُصـك الشجاعة لتعترف بإيمانك بآلهة ثلاثة .

يضاف إلى ذلك أننا جميعاً – مسلمين ونصارى – نؤمن بأن الله موجود دائماً أو أنه دائم الحضور والوجود " Omnipresent " فما من فراغ أو ذرّة إلا وقد أحاط الله به وهيمن عليه . فهل يعقل أن يكون الأشخاص أو الأقانيم الثلاثة للآلهة ، كل منهم وفي نفس الوقت يحيط بالكون ، أو أن واحداً منهم يحيط بالكون في وقت واحد ؟ . . إن قولك « الإله فعل هذا » لا يعطي جواباً قط ، لأن الإله ليس هو الله بل المتصف بالألوهية التي هي صفة . إن الألوهية صفة لإلـهٍ واحد وهي ليست قابلة للتعدد أو التقلص . ولا توجد ألوهيات بل ألوهية واحدة ، وهي صفة لإلهٍ واحد فقط .

ثم يُقال لنا إن لكل شخص في الثالوث صفات لا تنطبق على الاثنين الآخرين . وتدل هذه الصفات طبقاً للمنطق الإنساني واللغة الإنسانية ، على وجود « قَبْلِيَّةٍ وبَعْدِيَّةٍ » فيما بينهما . فالأب دائماً يَحظى بالمرتبة الأولى ويتقدم على الابن . أما الروح القدس فليس متأخراً فحسب لكونه الثالث في الترتيب العددي، بل إنه أقل درجة من أُولئك الذين انبثق منهم . ألا يعتبر نوعاً من الإلحاد إذا ما أُعيد ذكر هذا الثالوث بترتيب معكوس ؟؟ ! ! . . ألا يعتبر إنشاد الصَّليب ، عند مشاهدةِ القربان المقدس أو تجاوز مبادئه ، نوعاً من الزندقة عند الكنائس إذا عُكست العبارة وصارت على النحو التالي : باسم الروح القدس ، والابن ، والآب ؟؟ لأنها إذا كانت متساوية ومتعاصرة فإنه لا داعي لمراعاة ترتيب الأسبقية بدقة ؟؟

والواقع أن الباباوات والمجالس العامة قد نددت دائماً بالتعاليم السابيلية التي أصرت على أن الله واحد ، ولكنه يتجلى كأَب أو كإبن أو كروح قدس ، وهو دائماً نفس الشخص وذاته ، وبالطبع فإن الدين الإسلامي يرفض الآراء السابيلية ولا يقرها ، وقد أظهر الله جماله في عيسى ، وجلاله في محمد ، وحكمته في سليمان ، وهكذا دواليك في عدة أشياء أُخرى في الطبيعة ، ولكن ليس لدى أي واحد من هؤلاء الأنبياء صفة ألوهية كما ليس للمحيط الضخم أو السماء الجليلة شيء من تلك الصفة أكثر من دلالتها على الله .

والحقيقة أنه لا توجد دقة رياضية ولا مساواة مطلقة بين الأشخاص أو الأقانيم الثلاثة للثالوث . وإذا كان الأب في كل ناحية مساوياً للابن أو للروح القدس ، كما أن

الوحدة (١) مساوية للرقم (١) فسيكون بالضرورة شخص واحد فقط في الإلـه وليس ثلاثة ، لأن الوحدة لا يمكن أن تكون قسماً أو كسراً أو مضاعفاً لذاتها . إن الفرق والعلاقة التي يُسلَّمُ بوجودها بين أشخاص الثالوث لا تترك أي شك في أنها ليست متساوية ولا يمكن مطابقتها بعضها ببعض ، فالأب يُنتِج ولا يَنْتُج ، والابن مولود وليس بوالدٍ ، الروح القدس ناتجٌ عن الشخصين الآخرين والشخص الأول يوصف بأنهُ « موجدٌ ومُعْدِم » والثاني بأنهُ « مخلِّص أو فادٍ » والثالث بأنه « واهب الحياة » ، وبناءً على ذلك فإنه لا يمكن لأي واحدٍ من الثلاثة أن يكون وحده « الخالق والفادي وواهب الحياة » ، ثم يقال لنا بأن الشخص الثاني هو كلمة الشخص الأول ، ويصبح إنساناً ، ويُضحَّى به على الصليب إرضاءً لعدالة والدهِ ، وبأن تَجسُّده وقيامته تتمان وتُنجزَان على يد الشخص الثالث .

وفي الختام لابدَّ لي من تذكيرِ النصارى بأنهم ما لم يؤمنوا بوحدانيةِ اللهِ المطلقة وينبذوا الإيمانَ بالأشخاصِ الثلاثة ، فإنهم يكفرون قطعاً بالإلـه الحقيقي ، وعلى وجـه الدقة ، يمكن القول بأن النصارى مشركون ، ولكن باستثناء واحد ، وهو أن الآلهة التي يعبدها الوثني الكافر خيالية وباطلة ، بينما الآلهة الثلاثة للكنائس تتميز بطابع خاص بها،يكون فيه الأب – وهي صيغةٌ مرادفةٌ للخالق – هو الإلـه الوحيد الحقيقي ، ولكن الابن مجرد نبي وخادم لله ، وأما الشخص الثالث وهو الروح القدس ، فإنه واحد من الأرواح التي لا يحصيها عَدّ ، وكلها تعمل في خـدمة الله .

وفي العهـد القديم يدعى الله بالآب لأنه خالق وحامٍ ومحبّ ، ولكن الكنائس أساءت استعمال اسْمِـهِ ، ولعل هذا ما جعل القرآن يعرض عن استخدام هذا اللفظ .

ويندد العهد القديم والقرآن بنظرية الأقانيم الثلاثة ، أما العهد الجـديد فلا يؤيدها بصراحة ، ولكن حتى لو احتوى على تلميحات وإشارات حول التثليث ، فإنه ليس بحجة أبداً لأن المسيح لم يشاهدهُ ولم يكتُبْه ، ولم يوجد في كلامه الذي تكلم به ، ولم يوجد في شكله الحالي ومضمونه – على الأقل – طيلة القرنين اللذَيْن جاءا من بعده .

ويجدر بنا أن نضيف أن الكنائس الموّحِدة في الشرق قد عارضت دائماً وعارضت القائلين بالتثليث ، وأنها عندما شاهدت الدمار الكامل « للوحش الرابع » على يد

رسول الله العظيم ، فإنها تقبّلتْه واتبّعتْه . أما الشيطان الذي نطق من خلال الأفعى لحواء بعبارات الكفر ضد الإلـــه الأعلى من خـــلال فوهة القـــرن الصغير (Little Horn) الذي نَبَتَ مع القرون العشرة على رأس الوحش الرابع (سِفْر « دان » ، الإصحاح الثامن ») ، فلم يكن سوى « قسطنطين الكبير » الذي أعلن عن اتّباعِ عقيدة « المجمع المسكوني » بصورة رسمية وبعنف شديد ، وأما « محمـــد » فقد حطم إبليس أو الشيطان وأزاحه من الأرض الموعودة إلى الأبد ، وذلك بإقامة دين الإسلام ، دين الله الواحـــد الحـــق .



وسوف يأتي أحمد لكل الأمم

« إنجيل حجّي ٢-٧ »

الترجمةُ المُحَرَّفةُ لبعض الكتب المقدسة تأتي في الإصحاح الثاني من سفر حَجّي هكذا ، يقول : —

« ويأتي مُشتهى كل الأمم » ، أما القرآن الكريم فيذكر في سورة الصف وفي الآية (٦) : —

(وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ) .

وبعد قرنين من الزمان ، وبعد أن سقطت مملكة إسرائيل الوثنية الجاحدة ، وبعد أن تَمَّ نَفْيُ جميع الأهالي من القبائل العشرة إلى بلاد الأشوريين ، قام الكلدانيون بتدمير القدس وتدمير هيكل سليمان المجيد ، تدميراً كاملاً ، أما البقية المتبقية من أبناء يهوذا وبنيامين الذين سَلِمُوا من الذبح فقد نُقلوا إلى بلاد بابل . وبعد مدة سبعين عاماً من النفي ، سُمح لليهود بالعودة إلى بلادهم (١) ، مع منحهم الصلاحية الكاملة لإعادة بناء مدينتهم المحطمة وهيكلهم . وعندما وُضعتْ الأساسات لبناء بيت الرب الجديد ، قامتْ صيحاتٌ من الصخَب والفرح والتهليل بين المجتمعين من اليهود ، بينما قام الكبارُ من الشيوخِ والنساءُ الذين شاهدوا من قبل هيكل سليمان الراسخ ، بالعويل والبكاء المرير . وخلال تلك الفرصة النادرة أرسل الله خادمه النبي « حَجّي » لِيُسرِّيَ عن هؤلاء المحزونين ومعه هذه الرسالة الهامة :

(١) سمح لهم الفرس آنذاك وعلى يد (الملك قورش) بالعودة للقدس . [المترجم]

« ولسوف أُزلزل كل الأمم ، وسوف يأتي « حِمَدا » "Himada" لكل الأمم ، وسوف أملأُ هذا البيت بالمجـــد ، كذلك قال رب الجنود ، ولي الفضةُ ، ولي الذهب،هكذا يقول رب الجنود ، وإن مجدَ ذلك البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول ، هكذا يقول رب الجنود ، وفي هذا المكان أُعطي السلام ، هكذا يقول رب الجنود » . (الإصحاح الثاني من سفر حجي،الجملة : ٧ — ٩) .

ولقد قمتُ بترجمة هذه الفقرة المذكورة من النسخة الوحيدة من الإنجيل التي كانت بحوزتي ، والتي أعارتني إياها سيدة أشورية كانت إبنةَ عم لي ، والنسخة هذه هي باللغـــة الوطنية الدارجة آنذاك ، ولكن دعنا نرجع إلى الترجمة الإنجليزية للكتاب المقدس ، والتي نجد أنها ترجمت عن الأصل العبري كلمة « حِمَدا » إلى « الأمنية » ، وكلمة « شالوم » إلى « الإسلام » .

ولقد أولى المعلقون اليهود والمسيحيون ، سواءً بسواء ، أعظم الأهمية للوعد المزدوج الذي احتوته النبوءة المذكورة آنفاً . وهؤلاء المعلقون يعرفون النبوءة المسيحية المتعلقة بالكلمة « حِمَدا » . وفي الحقيقة ، هناك نبوءة رائعة أثبتتها الصياغة الإنجيلية العادية للقسم الإلهـــي « يقول الرب إله الصَّباءوت (الملائكة) » ذلك القسم الذي أُعيد ذكره أربع مرات . فإذا أخذنا هذه النبوءة بالصيغة التجريدية لكلمتَي « حِمدا » و « شالوم » على أنهما « الأمْنِية » و « السلام » ، فحينئذ تصبح تلك النبوءة لا شيء أكثر من « همس غامض مبهم ولا يُفهم معناه » ولكن إذا فهمنا المقصود من التعبير بكلمة « حِمَدَا » بأنه فكرة ثابتة عن شخص أو عن حقيقة واقعة ، وإذا ما فهمنا المقصود من كلمة « شالوم » بأنها ليست حالة مشروطة ، بل هي قوة فعالة وديانة رسمية ثابتة ومعترف بها ، عندئذ لابد من اعتبار هذه النبوءة على أنها صادقة لا إنكار فيها ، وأنها مطابقة لشخصية « أحمد » وبعثته بالإسلام ؛ ذلك لأن كلمتَي « حِمدا » و « شالوم » أو « شلاما » تؤديان بدقة نفس الدلالة والأهمية لكلمتَي « أحمد » ، و « الإسلام » .

ومن المستحسن ، قبل محاولة إثبات نفاذ ومطابقة هذه النبوءة،إيضاح وتعليل أُصول هاتين الكلمتين بصورة مختصرة وبقدر المستطاع :

أ ـ لنأخذ كلمة « حـمَـدا » ولعلي لست مخطئاً ، فإنها تـُقرأ باللغة العبرية الأصلية هكذا « في يافو حـِمـْداث كـُول هاجـُويم » والتي تعني حرفياً:« وسوف يأتي حـمدا لكل الأمم » . والحرفان « ها » في اللغة العبرية يقابلهما في اللغة العربية « أل » للتعريف ، أو « ل » عندما تكون في حالة الجر ، والكلمة مأخوذة من اللغة العبرية القديمة أو لعلها الآرامية ، وفي الأصل « حـِمـْدْ » بالحرف الساكن ، ويـُلفظ بدون التسكين « حـِمـِدْ » . وفي اللغة العبرية « حـِمـِدْ » تستعمل عادة لتعـني « الأمنية الكبيرة » أو « المشتهى » أو « الشهية » أو « الشائق » . وقد جاء في الوصية التاسعة من الوصايا العشر « لو تاهمود إيش رايخا » ومعناها « لا تَشْتـَهِ زوجة جارك » وفي اللغة العبرية يأتي الفاعل « حـِمـِيدَا » من نفس الحرف الساكن « حـِمـْدْ ، ومعناها : الحَـمْـد » وهـــكذا ؟ ؟

وهل هناك شيء أكثر من المدح أو حسن الأحدوثة يتوق إليه البشر ويشتهيه الإنسان أو يرغب فيه ؟

وأيًّا من المعنيين تختار ، فإن الحقيقة الناصعة تبقى بأن كلمة « أحمد » هي الصيغة العربية لكلمة « حـِمـْدا » وهذا التفسير هو تفسير قاطع لا ريب ولا مراءَ فيه .

ولقد جاء في القرآن الكريم ، وفي سورة الصف ، الآيـــة السادسة : (وَإذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إسْرَائِيلَ إنِّي رَسُولُ اللهِ إلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ..) وفي إنجيل يوحنا الذي كتب باليونانية استعمل الاسم « باراكليتوس » وهو صيغة وثنية لم تكن معروفة في دنيا الأدب الأغريقي ، ولكن كلمة « بيريكليتوس » والتي توافق وتطابق تماماً اسم « أحمد » في معنـــاه ومغزاه في « إشراقه » و « سموه » و « تمجيده » وفي « مقامه المحمود الأعلى » ، لابد وأن تكون ترجمتها من اليونانية ، « حـِمـْدا » أو لعلها « حميدة » بصيغتها الآرامية كما نطق بها يسوع المسيح ، ولكن وا أسفاه ، لا يوجد هناك إنجيل باق على الزمن باللغة الأصلية التي تحدث بها السيد المسيح .

ب ـ أما فيما يتعلــق بأصل هذه الكلمات وتاريخها ومغزاها « شالوم » ، و« شلاما » بالعبرية ، وفي العربية « سلام » و« إسلام » فإنه لا حاجة بي لأن أُعيق تسلسل تفكير القارىء ، فأَجُرَّهُ إلى تفاصيل لغوية ؛ لأنّ أي عالم في السامية يعرف تماماً أن « شالوم » و « إسلام » هما كلمتان مشتقتان من أصلٍ واحد ، وتعنيان نفس المعنى ، وهو السلام ، والإذعــان أو الاستسلام .

فإذا ما وضح هذا ، أود أن أقترح استعراضاً مختصراً لنبوءة « القديس حَجّي » وحتى نستطيع أن نفهمها بصورة أفضل دعونا نستشهد بنبوءة أُخرى من الكتاب الأخير من العهد القديم والتي تسمى « ملاكاي » أو « مــلاخي » أو كما جاءت في الترجمة المجازة :

« هأنذا أُرسل رسولي ، فيمهد الطريق أمامي ، ويأتي بغتةً إلى هيكله السيد الذي تطلبونه ، وملاك العهد الذي تُسرّونَ به ، وفي هذا المكان سوف أُعطي السلام ، هو ذا يأتي . هــكذا قال رب الجنــود » .

ثم دعونا نقارن بين هذا الوحيْ الغامض وبين تلك الحــكمة التي تضمنتها الآية في القرآن الكريم حيث تقــول :

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَــرَامِ إِلى الْمَسْجِدِ الأقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ) (١) .

وهذا يعني أن الشخص القادم فجأةً إلى الهيكل ، كما جاء في الوثيقتين السابقتين من الإنجيل ، هو محمد وليس المسيح ، مما يؤدي بنا إلى النقاش الآتي الذي يكفي لإقناعِ كلّ مراقب نزيهٍ وغيرِ متحيز : —

١ـ إن القرابة ، والعــلاقة والتشابه بين هــذين التعبيرين « حِمْدَا » و « أحمد » وكذلك التشابه في الأصل لـ « ح م د » الذي اشتُق الاسم منهما ، لا يترك أدنى جزء من الشك بأن المفهوم من الجملة « وسوف يأتي حِمْدا لكل الأمم » إنما هو « أحمد » أي « محمد » ولا يوجد أدنى صِلة في أصل الألفاظ ولا في تعليلها بين كلمة « حِمْد »

---

(١) سورة الإسراء الآية رقم : ١ .

وبين الأسماء الأخرى كمثل « يسوع أو المسيح ، أو المـُخَلِّص » حتى ولا في أية ناحية من توافق الأصوات أو التشابه بينهما .

٢- حتى ولو سَلَّمنا جدلاً أن الصيغة العبرية لكلمة « ح م د ه » (بدون حرف عِلَّة) تُقرأ « حَمْدَا » وأنها مجرد معنى إسمي لكلمات : « أمنية ، أو مُشتهى ، أو شهوة ، أو مدح » فإن هذا الجدل أيضاً هو في صالح ما نطرحه من بحث هنا ، ذلك لأن الصيغة العبرية تكون ، بحسب علم أُصول الكلمات ، متساوية تماماً بالمعنى والتشبيه أو حتى في التطابُق لكلمة « حِمْدَا ».وعلى أية حال إذا ما رَغِبْتَ في أخذ الحروف الأربعة « ح م د ه » ، فإن صلتها بـ « أحمد » أو « أحمدّية » هي صلة قاطعة ، وليس لها علاقة أبداً بـ « يسوع » أو « اليسوعية » ، فإذا كان القديس « سانت جيروم » ومن جاء قبله من العلماء المترجمين قد حافظوا ، ولم يمسوا الصيغة العبرية لكلمة « ح م د ه » بدل أن ينسخوا الكلمة اللاتينية « كوبيديتاس»، أو الكلمة الإغريقية « يوثيميا » فمن المحتمل أن المترجمين الذين وظفهم الملك جيمس الأول قد قاموا أيضاً بنسخ الصيغة الأساسية في الترجمة المُجازة ، وكذلك فقد اتَّبَعَتْ جمعية الإنجيل حرفياً نفس الأسلوب في الترجمة إلى اللغات الإسلامية .

٣- إن هيكل « زورو بابل » كان يجب أن يكون أعظم مجداً من هيكل سليمان ؛ ذلك لأن « ملاخي » تنبأ بأن الرسول العظيم ، أو رسولَ العهد أي « السيد » أو سيدَ الرسل ، كان لابد أن يزوره « فجأة » ، وهذا ما حصل فعلاً عندما زاره « محمد » في رحلته الليلية العجيبة التي نوّه بها القرآن الكريم (١) . وقد أعاد هيرودوس الكبير إصلاح أو إعادة بناء هيكل زورو بابل ، ومن المؤكد أن يسوع كان في كل مرةٍ أثناء زياراته المتكررة إلى ذلك الهيكل ، كان يشرفه بالحضور بشخصه الشريف ، وفي الحقيقة كانت زياراتُ كل نبي إلى بيت الرب تزيد من كرامة البيت وقدسيته . ولكن بهذا القدر يجب على الأقل أن نقر بأن الأناجيل التي كانت تسجل زيارات

(١) في قوله تعالى : (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) . سورة الإسراء الآية : ١ . [المترجم]

المسيح هذه إلى الهيكل وتعاليمه بداخله ، لم تأت على ذكر أيٍّ من نتاج هذه الهدايات أو التعاليم بين الحاضرين والمستمعين . فجميع زياراته إلى الهيكل ، كما يُروى ، كانت تنتهي بالمجادلات والنقاش المرير مع الكهنة والفريسيين الكفرة ، من غير المصدقين لما جاء به ، ويجب أن نُقرّرَ أيضاً بأن يسوع لم يخفق فقط في جلب السلام إلى ذلك العالم (كما صرَّحَ بهذا متعمداً في إنجيل متى الإصحاح - ٢٢٦ وإنجيل مرقس - ١٣ ولوقا - ٢١) ، ولكنه أيضاً تنبأ بالخراب الكامل للهيكل (إنجيل متى ١٠ / ٣٤ . .) الأمر الذي تحقق بعد أربعين عاماً تقريباً من تلك الفترة على أيدي الرومان عندما تم بالنهاية تشتيت الشعب اليهودي .

٤- إن « أحمد » وهو صيغة أُخرى لاسم « محمد » ومن نفس المصدر والتعبير ومعناه « الأمجد » ، وفي خلال رحلته الليلية زار البُقعة المُقدَّسة عند خرائب الهيكل المحطم كما ينصّ القرآن الكريم ، وهناك عندئذ ، أدىَّ الصلاة المباركة والتمجيد لله بحضور جميع الأنبياء كما تدل أحاديثه الشريفة التي طالما حدث بها أصحابه . وكان إذ ذاك « أن الله تعالى باركَ حول المسجد وأَطلَع آخر أنبيائه على آياته » ، فإذا استطاع موسى وإلياس أن يظهرا بحضورهما الجسدي على « جبل التجلي » فإنهما وجميع الآلاف من الأنبياء كانوا يستطيعون أيضاً أن يظهروا حول الهيكل في القدس ، وكان خلال ذلك « الحضور المفاجيء » لمحمد إلى « مسجده » (إنجيل متى ٣ / ١) أن الله قد ملأه فِعلاً بالمجد « إنجيل حجّي - ٢ » وكان على السيدة آمنة « غير المسلمة » وهي أرملة عبد الله أن تُسمي ولدها اليتيم « أحمد » وهو أول اسم عَلَم عُرف بهذه الصيغة في تاريخ البشر ، وهو بحسب اعتقادي ، أعظم معجزةٍ جاءَت لصالح الإسلام . أما الخليفة الثاني ، عمر رضي الله عنه ، فهو الذي أعاد بناء الهيكل ، وإن ذلك المسجد العظيم مازال باقياً في القدس ، وسوف يبقى حتى نهاية العالم ، وهو أثر سَرْمَديٌّ باقٍ على الزمن يمثّلُ صِدْقَ العهد الذي عقده الله تعالى مع إبراهيم وإسماعيل . (سفر التكوين ١٥/١٧) .

حق الابن البكر في وراثة عهد أبيه

هنـــاك خلاف ونزاع ديني قـــديم غارق في القدم بين بني إسماعيل وبني إسرائيل ، حول مسألة الابن البكر ووراثته لحـــكم وعهد أبيه . وإن أُولئك الذين قرأوا الإنجيل والقرآن الكريم يعرفون جيداً قصة النبي العظيم إبراهيم مع قصة ولديه إسماعيل وإسحاق . ويعرفون أيضاً قصة الدعوة التي حملها إبراهيم من « أور » الكلدانية وقصة ذُرّيتهِ التي امتدت حتى موت حفيده يوسف في مصر ، ذلك أنهما جاءتا في سفر التكوين (الفصل ١ — ٦) .

أما من ناحية تسلسل إبراهيم بالنسب فيأتي ترتيبه العشرين من بعد آدم عليه السلام كما هو مذكور في سفر التكوين ، وقد عاصر إبراهيمُ النمرودَ الذي بنى برج بابل العظيم .

وبداية قصة إبراهيم في « أور » الكلدانية ، رغم أن الإنجيل لم يأت على ذكرها إلا أن المؤرخ اليهودي المشهور (يوسف فلافيوس) قام بتدوينها في كتابه الذي أسماه « العصور القـــديمة » وهي أيضاً واردة في القرآن الكريم ، وينص الإنجيل صراحة على أن أبا إبراهيم وكان اسمه (أتيرا) أو (آزر) كان يعبد الأصنام (يوشع ٢٤ — ٢ / ١٤) وأعلن إبراهيم عن إيمـــانه وتعلقه بالله ، حينما دخل إلى معبد الأصنام وحطمها كلها ، وبذلك كان إبراهيم النموذج الأصلي الحقيقي الأول عن حفيده محمد ﷺ الذي جاء بعده بزمن طويل ، وقد نجا إبراهيم من النار ، وخرج منها سالمـــاً منتصراً ، بعد ما أُلقي فيها بأمرٍ من النمرود . وبعد ذلك غادر وطنه برفقة أبيه وابن أخيه (لوط) متجهـــين جميعاً إلى (حاران) . وكان إبراهيم قد بلغ الخامسة والسبعين من عمره عندما توفي أبوه في (حاران) ، وبدافع من الطاعة لله والتّوجّه المطـــلق للدعوة الإلهية المقدسة ، غادر إبراهيم بلادَه مبتدِئاً برحلة طويلة نحو أرض كنعان ثم إلى

مصر وبعدها إلى شبه الجزيرة العربية . ومع أن زوجته « ساره » كانت عاقراً فإن الله أعلن إليه بأنه قد قُدِّرَ له أن يصبح أباً لأمم عديدة ، وأن كل المناطق التي سوف يجتازها سوف ترثها ذريتُه من بعده ، « وأن جميع أُمم الأرض سوف تكون من ذريته وسوف تكون مباركة » ، فهذا الوعد الإلهي الفريد العظيم في تاريخ الأديان يتقبله إبراهيم بإيمان لا يتزعزع ، رغم أنه لم يكن له ذرية حتى ذلك الحين ولم يكن له ولد . وعندما أُوحي إليه أن يتطلع إلى السماء أثناءَ الليل أعلمه الله بأن ذريتَه سوف يتكاثرُ عددُها حتى تصبحَ كعددِ النجوم وكعددِ حبات الرمل على شواطىء البحار . آمن إبراهيم بهذا الوعد الإلهي . وكان هذا الإيمان بالله هو الإيمان المستقيم « الصادق » كما يذكر الكتاب المقدس .

أما تلك الفتاة المصرية الفقيرة واسمها « هاجر » ، فقد كانت تعمل في خدمةِ سيدتها أَمَةً وخادمةً . وبأمرٍ وبموافقةٍ من سيدتها « سارة » تصبح الخادمة زوجةً للنبي إبراهيم ، فَيُثْمِرُ هذا الزواج بميلاد إسماعيل ، تماماً كما تحدث الملاك بهذا إلى إبراهيم مسبقاً .

وعندما يبلغ إسماعيل الثالثةَ عشرةَ من عمره يوحي الله مرة أُخرى إلى إبراهيم بواسطة الملاك ويعيد عليه الوعد القديم بما في ذلك الأمر بالختان الذي تم تنفيذه بالنسبة لإسماعيل على الفور . وقد كان إبراهيم في التسعين من العمر حينما جرى ختان إسماعيل وكافة الخدم الذكور في البيت ، وبذلك يكون ميثاق الله لإبراهيم قد تمَّ الوفاءُ به ، وتمّ ختان ولده الوحيد « إسماعيل » ، وكأنما كان دمُ الختان علامةً للميثاق الذي أعطاه الله إلى إبراهيم . وكان ذلك نوعاً من المواثيق أُبرمت بين السماء والأرض الموعودة متمثلةً في شخص إسماعيل ؛ لأنه الذريةُ الوحيدةُ للشيخ الجليل الأب ، الذي يبلغ التسعين ، ويشارف على المائة من عمره . فيقوم إبراهيم بتقديم الوعد لخالقه بالطاعة والولاء ، ويَعِدُه الله بأن يكون حامياً لإسماعيل وذريته من بعده . وبعد ذلك أي عندما بلغ إبراهيم التسعين من العمر وبلغت زوجته سارة التسعين أيضاً ، نجد أن سارة قد حملت ولداً ، فأسمياه « إسحاق » لكي يتم أمرُ الله ووعده الإلهي .

ولما كان الترتيب الزمني أو التاريخي غير مقيد أو ملاحظ في كتاب سفر التكوين ، فقد قص علينا هذا السفر أن « إسماعيل » وأمه « هاجر » قد طردهما إبراهيم وأبعدهما بطريقة هي غاية في القسوة ، وذلك استجابة لرغبة سارة لا أكثر ، على إثر ولادتها « إسحاق » . ولقد اختفى إسماعيل وأمه في الصحراء وأوشك الغلام على الموت عطشاً ، لولا أن تفجرت عين من الماء بين يديه فيشرب منها الغلام وينجو من الموت . ولا نسمع شيئاً بعد ذلك عن إسماعيل وأخباره ، حيث لم يرد شيءٌ في سفر التكوين ، غير زواجه من امرأةٍ مصرية وأنه كان حاضراً مع إسحاق عندما تُوفي أبوهما إبراهيم وقاما بدفنه معاً .

ويواصل « سفر التكوين » ليسردَ قصة إسحاق وولديه وقصةَ نزولِ يعقوبَ في أرض مصر ثم ينتهي الكتاب بقصة وفاة يوسف .

أما ما تلا ذلك من حدثٍ هام في تاريخ إبراهيم كما جاء في سفر التكوين ، فهو قصة تقديم إبراهيم ابنه الوحيد إسماعيل ضحيةً لله ، وكيف أن الملاك جاء بكبش قدمه إلى إبراهيم كي يفتدي به الغلام ، وهذا ما قصه علينا القرآن الكريم . وكان ذلك امتحاناً لإيمان إبراهيم (القرآن الكريم سورة الصافات الآية : ١٠٢) (١) فأثبت بذلك أن حبه لخالقه فاق كل عاطفة ؛ ولهذا السبب تمت تَسميتُه بخليل الرحمن (٢) .

ويستمر التاريخ على هذا النحو المختصر لحياة إبراهيم فيما يتعلق بموضوعنا هذا حول حق الابن البكر في وراثة عهد أبيه وحكمه . وهناك ثلاث نقاط مميَّزة توجب على كل مؤمن بالله أن يتقبلها كحقائق صادقة :

فالنقطةُ الأولى : هي أن إسماعيل هو الابن الأكبر الشرعي لأبيه إبراهيم ، واعتماداً على هذا الأساس فإن حقه في ميراث عهد وحكم أبيه هو حق شرعي وعادل .

(١) (. . قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ، قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) .

(٢) (وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً) . سورة النساء الآية : ١٢٥ . [المترجم]

أما النقطةُ الثانية : فهي أنّ العهد المبرم بين الله وإبراهيم كان في نفس الوقت عهداً مبرماً بين الله وإسماعيل ، ذلك لأن العهد قد أُبرم قبل ميلاد إسحاق . والعهد وتشريع الختان كان يمكن أن يكونا دون قيمة أو معنى ، لولا تكرار الوعد كما جاء في الكلمات المقدسة « من خلال ذريتك سوف تتبارك كل الأمم على وجه الأرض لأن هذه الأمم قد جاءت من ذريتك » ، وتعبير الذُرِّية على الأخص وبالذات كانت واردة في (سفر التكوين ١٥ / ٤) « الذريةُ التي سوف تخرج من أحشائك سوف تَرِثُكَ » . وقد تم تحقيق هذا العهـــد عندما ولد إسماعيل (سفر التكوين ١٦) . وكان ذلك عزاء لإبراهيم؛لأن كبير الخدم أليعازر لم يعد بإمكانه أن يرث إبراهيم . ولذلك وجب أن نعترف بأن إسماعيل كان الوريث الحقيقي والشرعي المُمّيز لحكم وعهد أبيه إبراهيم . فالامتياز الخاص الذي حَظِيَ به إبراهيم من ربه والذي تكرر بصيغ مختلفة ، مثل : « كل الأمم على وجـــه الأرض من ذرية إبراهيم سوف تكون مباركة » . هذا العهد جعل الميراث الذي تفرضه الولادة هو من حق إسماعيل البكر . وهذا الميراث الذي يستحقه إسماعيل ، لكونه الوليد البكر ، لم يكن يُقصد به الخيمةَ التي عاش فيها إبراهيم ، ولا البعير الذي كان يركبهُ ، وإنما عُني به إخضاع كل الأرضِ الممتدةِ من النيل إلى الفرات ، واحتلالها إلى الأبد ، حيث كان يسكن هذه الأرض عشر أُمم مختلفة (١٧–١٨ / ٢١) وهذه البلاد لم تخضع أبداً لذرية إسحاق ، ولكنها خضعت لذرية إسماعيل ، وكان هذا تحقيقاً حرفياً وفعلياً لأحد الشروط التي قام عليها العهـــد بين الله وإبراهـــيم .

أما النقطـــةُ الثالثة : فهي أن ميلاد إسحاق كان ميلاداً إعجازياً ومباركاً بصورة خاصة بأمر الله ، ولذلك اعتقد أتباع إسحاق أن أرض كنعان هي الأرض الموعودة لهم فاحتلوها فعـــلاً تحت إمرة « يوشع » ولا يستطيع أي مسلم أن يفكر في انتقاص وذم الصفة الرسولية المقدسة لإسحاق وولده يعقوب فهما نبيان ، والانتقاص من قدر نبي من الأنبياء يتنافى مع مقتضى الإيمان الصحيح . وعندما نقـــارن بين إسماعيل وإسحاق لا نستطيع إلا أن نبجلهما ونحترمهما كرسولين من رسل الله . وبالحقيقة شعب إسرائيل وقوانينه وكتبه المقدسة ، تحمل تاريخاً دينياً فريداً في العالم القديم ،

فقد كان بنو إسرائيل فعلاً شعب الله المختار(١) ، وبالرغم من أن هذا الشعب قد عصى اللهَ كثيراً وعبد الأصنام ، إلا أنه قدَّم للعالم عدداً كبيراً من الأنبياء ، ومن الرجال والنساء الأتقياء ! ! . . .

(١) شعب الله المختار : يزعم اليهود أنهم « شعب الله المختار » وأن باقي الشعوب في نظرهم عبارة عن « جويم » أي بهـائم ومطايا لهم . وهذه الفكرة لهـا نتائجها الخطيرة التي تتلخص فيما يلي :
(أولاً) تشجع معتنقيها على العدوان واستغلال الآخرين وارتكاب الآثام استناداً إلى هذا التفضيل .
(ثانياً) تدفعهم إلى احتقار الشعوب الأخرى والاستهانة بهم .
(ثالثاً) فيه مساس بكرامة الشعوب الأخرى وحـط من شأنهم .
والحق أن التفضيل الذي قصد إليه القرآن بقوله تعالى : (. . وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ البقرة /٤٧) هو تفضيلهم لا على المؤمنين العاملين بشريعة الله ، بل على فرعون وحاشيته ، وسبب هذا التفضيل أنهم كانوا مظلومين وكان هو الظالم . . وكانوا يؤمنون برسالة أنبيائهم بينما كان فرعون طاغوتاً يدّعي الألوهية لنفسه . .
وقد علل بعض العلماء هذا التفضيل بكثرة أنبيائهم ، ولكن هذه الكثرة هي حجة عليهم ودليل اتهام على سوء عنصرهم ، إذ كانوا سرعان ما يرتدّون ويكفرون ، فيرسل الله إليهم الرسول تلو الرسول للتذكير والإصلاح ومحاربة الفساد ، وليس فيه ما يدل على تخصيص النبوة فيهم أو تفضيلهم على غيرهم بل إن معنى النبوّة في التراث اليهودي اتسع ليضمّ إلى قائمة الأنبياء المعروفين عدداً لاحصر له من أصحاب الرؤى والمتنبّئين ومفسّري الأحلام والعرّافين والكهنة والسحرة. . إلى غير ذلك .
وقد أنكر عليهم القرآن ما يدّعون من أنهم أبناء الله وأحباؤه ، فقال : (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُه ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ؟ بَلْ أَنتم بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ . .) المائدة /١٨ . =

وحتى الآن لا يوجد نقطة خلاف حقيقية بين ذرية إسماعيل وبين شعب إسرائيل ، وذلك لأنه إذا كان أمر الخلاف يتعلق بمباركة الله ، وحقوق الميلاد ، فإنه يعني أنه خلاف فقط على النفوذ والممتلكات ، وهذا النوع من الخلاف يمكن تسويته ، وقد سُوِّي فعلاً بالسيف ، والدليل على ذلك ، الحقيقة الساطعة ألا وهي احتلال العرب لكل الأرض الموعودة . ولكن هناك نقطة خلاف جوهرية بين الشعبين مضى على وجودها حتى الآن ما يقرب من أربعة آلاف عام ، وهذه المسألة هي « المسيح ومحمد » فاليهود لا يعترفون بتحقيق ما يسمى بالنبوءات المسيحية لا في شخصية « عيسى » ولا في شخصية « محمد » ، ولقد كان اليهود دائماً وأبداً على غيرة من إسماعيل ، لأنهم يعرفون جيداً بأنه كان يُجَسِّدُ ويمثلُ « العهد » وبختانه أُبرم وخُتِم هذا العهد . وإنه بدافعٍ من ذلك الحقد وتلك الضغينة قام النُّسّاخ وفقهاءُ الشريعة عند اليهود بتحريفِ وإفساد الكثيرِ من صفحات كتبهم المقدسة، فشطبوا اسم إسماعيل من العبارات : « الثانية ، والسادسة ، والسابعة من الفصل الثاني والعشرين » في كتاب: « سفر التكوين ووضعوا إسم إسحاق بدلاً منه » وقاموا أيضاً بِحَذْفِ الوصف الخاص بإسماعيل : « ولدك الوحيد » ، وذلك إنكار لوجودِ إسماعيل ، فلقد ذكر الله تعالى بوضوح في هذا الفصل مخاطباً إبراهيم:« لأنك يا إبراهيم قبلتَ أن تُضحي بابنكَ الوحيدِ من أجلي ، فسوف أزيد وأُضاعف من ذريتك ، ليصبح عددها كعدد النجوم، وكعدد حبات الرمل على شاطيء البحر » وكلمة « أُضاعف » ، جاءت خطاباً من الملاكِ إلى « هاجر » وهي في البرية على هذا النحو : « إن الله سوف يضاعف ذريتكِ

= ولو جاز لأمة أن توصف بالخيرية ، لكانت هي الأمة الإسلامية ، حين تقوم بحق دينها كما ينبغي . قال تعالى : (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ..) (آل عمران / ١١٠) .

(انظر : اليهود في القرآن ــ عفيف عبد الفتاح طباره ص ٤٢ ــ ٤٤) .

(ومقالاً بعنوان . . « تقييم إسلامي لتاريخ أنبياء بني اسرائيل » للدكتور محمد خليفة حسن أحمد ــ منشور في مجلة « الفيصل » عدد ٨٤ جمادى الآخرة ١٤٠٤) .

[المعلق]

إلى عدد لا يحصى وسوف يصبح إسماعيل ذا ذرية كثيرة » (سفر التكوين ١٦ / ١٢) وقد قام المسيحيون الآن بترجمة نفس هذه الكلمة العبرية التي تعني « وفير » أو « كثير » من الفعل (Para) الذي يرادفه بالعربية لفظ « وفير أو وافر » ترجموها إلى معنى مغاير لحقيقة اللفظ ألا وهو « الحمار المتوحش » ؟ ؟ . . . أليس من العار والكفر أن يُنعتَ إسماعيلُ « بالحمار المتوحش » وهو النبي الذي كرَّمهُ الله فَنَعَتَهُ « بصاحب الذرية الخصبة الكثيرة العدد » ؟ ؟ . . . وإنه لمما يسترعي الاهتمام أن المسيح نفسه ، وكما ورد في إنجيل « بَرْنابا » ، قد عنَّف اليهود الذين قالوا بأن الرسول العظيم الذي يدعونه المخلِّص ينحدر نسلُه من ذريةِ الملك داود ، فَوضَّح المسيح لهم بصراحةٍ بأنه لا يمكن أن يكون « ابن داود » ، لأن داود نفسه يَعتَبِرُ هذا الرسول سيدَهُ ، وأضاف موضحاً لهم كيف حرَّف أباؤُهم الكتب اليهودية المقدسة ، وأن العهد لم يكن من نصيب « إسحاق » كما يَزعمون،بل كان « العهد » من نصيب إسماعيل البكر ، وهو الذي تَقَبَّل راضياً أن يُضَحِّيَ به أبوه لله ، وأن التعبير الذي ورد في العهد « ولدك الوحيد » كان المقصود به « إسماعيل » وليس « إسحاق » .

و « القديس بولس » الذي يَدَّعي أنه من حواريِّ المسيح عيسى ، استعمل كلمات غير محترمة بحق « هاجر »(سفر الغلاطيين ٦/٢١-٣١)وبحق ولدها إسماعيل ، وهو بهذا يكون قد ناقض وخالف سيده المسيح صراحةً ، وهذا الرجل فعَلَ كل ما بِوُسعهِ كي يُضَلِّلَ ويُفسد النصارى وهم الذين كان يضطهدهم قبل اعتناقه الدين المسيحي . وبسبب ادعاءات بولس الباطلة فإني أشك كثيراً بأن المسيح الذي آمن به « بولس » ليس إلا المسيح الذي شُنِقَ على شجرةٍ قبل حوالي قرنٍ أو أكثر من الميلاد وكان يدعى « عيسى وابن ماري » وذلك بسبب ادِّعاءَاتهِ اليسوعية آنذاك . وفي الحقيقة فإن رسائل القديس بولس كما نقرأها تغصُّ بعقائدَ باطلة متناقضة ومتنافرة تماماً مع روح وعقائد « سفر التكوين » ، ومع روح وعقائد النبي الناصري المتواضع أيضاً . ولقد كان القديس بولس هذا ، رجلاً يهودياً ومتعصباً من الفريسيين ، وقد كان محامياً أيضاً . ويبدو أنه بعد تحوله إلى الدين المسيحي أصبح أكثرَ تعصباً من ذي قبل . وبسبب حقدهِ وكرههِ لإسماعيل وادِّعائهِ بأحقيةِ إسحاق في وراثةِ حكم وعهدِ أبيه بدلاً من إسماعيل ، نسي متعمداً ، بل وأهمَلَ وصايا موسى التي تُحرِّمُ

زواج الرجل من أخته ، تحت طائلة العذاب والعقاب الكبير . ولو هدى الله بولس هذا لرفض كتاب سفر التكوين وأعلن أنه مملوء بالتزوير والأباطيل حيث ينص مرتين (١٢/١٠– ٢٠ ، ٢٠/٢– ١٨)أن إبراهيم كان زوجاً لأخته ، أو لـمّـا جعل من النبي إبراهيمَ كاذباً وهو المعصوم عن ذلك ، ولكنه بالعكس يؤمن بكل كلمةٍ جاءت في كتاب سِفْرِ التكوين ولا يُعَذِّبُهُ ضميرُه مطلقاً عندما يصف هاجر بأنها التائهة في صحراء سيناء المقفرة ، بينما يصف « سارة » بأنها القُدُسُ الذي يحلق في السماوات سفر الغلاطيين ٢٥ – ٢٦ فهل قرأ القديس بولس في حياته عقاب الملعونين التالي : –

« ملعونٌ ذلك الذي يضطجع مع أختِه ابنةِ أبيه ، وابنةِ أمه ، والناسُ جميعاً يقولون آمين »(سفر تثنية الاشتراع ٢٧) .

وهـــل يوجد قـــانون بشري أو سماوي ، يعتبر ولادة ابن العم والعمة ، أكثر شرعية من ولادة من كان أبوه كلدانياً وأمه مصرية ؟ ؟

وهل يستطيع أي إنسان أن يطعن في عفة وتقوى هاجر ؟ بالطبع لا ، لأن هاجر هي زوجة نبي وأم نبي ، وهي نفسها قد خصها الله بوحيٍ مقدس من عنده (١) .

والله الذي أعطى إسماعيل العهـــد قد أنزل قانون الوراثة بنصه التالي :

« إذا كان لرجل زوجتان ، وكانت أحداهما مُفَضَّلةً عنده على الأخرى ، وكان لكل واحدةٍ منهما ولدٌ ، وإذا كان ابن غير المفضلة هو الولد البكر ، فإن الولد البكر هو المرشّح ليحلّ محلّ أبيه في تحمل الحكم وولاية العهد وليس ابن الزوجة المُفضَّلة ، وعليه فإن الولد البكر سوف يرث ضعف ما يرث أخوه » سفر تثنية الاشتراع (٢١ / ١٥ – ١٧) .

وعلى ضوء ذلك ، أليس هذا القانون من الوضوح بما يكفي ليُخرِسَ جميع الذين يختلفون ويتنازعون حول أحقّية إسماعيلٌ كي يأخذ مكانة أبيه في الدعوة وولاية العهـــد ؟!! . . .

(١) هذا خطأ ، فإن الله لم يختص هاجر بوحي من عنده ، وإنما الوحي خاص بالأنبياء ، وهي ليست كذلك ، وإن كانت زوجة نبيّ وأمّ نبيّ . (المعلق)

والآن دعونا نناقش مسألة أحقية إسماعيل في الحكم أو العهد بصورةٍ مختصرة وبقدر ما نستطيع . نحن نعلم أن إبراهيم كان شيخَ قبيلتهِ التي كانت تنتَقِلُ من مكان إلى آخر ، وفي نفس الوقت كان رسول الله . وكان يعيش في خيمةٍ ، ويملك قطعاناً كثيرة من المواشي مع ثروة كبيرة . ومن المعروف أن رجال القبائل لا يرثون الأرض والمرعى ، ولكن الشيخ الأمير يخصص لكل ولدٍ من أبنائه قبيلةً معينة تخضع له وتتبعه . وكذلك فإنه من المعروف كقاعدة مُتَّبعةٍ بين القبائل بأن الابن الأصغر يرث خيمة والديه ، أما الابن الأكبر فإنه يخلف أباه على عرشه ، ما لم يكن غير صالح لهذا المنصب .

والفاتح المنغولي الشهير « جنكيز خان » خلفه على العرش ابنه الأكبر « أُوغتايْ » الذي حكم في « بكين » باسم « الخاقان » ، وأما ابن « جنكيز خان » الأصغر فقد بقي في خيمةِ والدهِ في « كَارَاكُورَمْ » في منغوليا . وينطبق نفس الوضع على ولدي إبراهيم ، فإسحاق أصغر الولدين ورث خيمة أبيه ، وأصبح مثله ، ينتقل من مكان إلى آخر ، بدوياً يعيش في الخيام . لكنّ إسماعيل أُرسلَ إلى الحجاز ليحرسَ بيتَ الله الذي كان قد بناه مع أبيه ، كما يذكر القرآن الكريم (القرآن ii)(١) ، وهناك استقر وأصبح نبياً وأميراً على القبائل العربية التي آمنتْ به . وفي (مـكَّة) أو (بَكَّة) أصبحت الكعبةُ قبلة للحجاج . ونشر إسماعيل دين الله وسن مشروعية الختان ، وتكاثرت ذريتُه بسرعة وصار عددها كعدد نجوم السماء ، ومنذ أيامِ إسماعيلَ وحتى زمنِ قدومِ « محمد » كان عرب الحجاز واليمن وآخرون غيرهم ، شعوباً مستقلة وأسياداً في أوطانهم . وقد عجزت أمبراطوريتا الروم وفارس عن إخضاع شعب إسماعيل ، وبالرغم من انتشار عبادة الأصنام فيما بعد إلا أن اسم الله واسم إبراهيم واسم إسماعيل وعدد قليل من الأنبياء بقيت بين العرب تُذكر ولا تُنسى . وحتى « عيسو » الابن الأكبر لإسحاق ترك خيمةَ أبيه الأصغر يعقوب وسكن في « إيدوم » حيث أصبح زعيم شعبه ، وامتزج بسرعةٍ مع قبائل إسماعيل العربية ،

(١) لعله يريد ما جاء في القرآن الكريم في سورة البقرة :(وإذْ يَرْفَعُ إبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وَإسْمَاعِيلُ) . الآية : ١٢٧ . [المترجم]

وهو الذي كان من حيث النسب عمه وحماه أي أبا زوجته . وأما قصة بيع عيسو حقه في تولي مكانة أبيه إلى يعقوب مقابل طبقٍ من الحساء ، فهي حيلةٌ شرّيرة أُخترِعت كي تُبرر المعاملة السيئة التي نُسبت لإسماعيل . فقد زعموا أن « الله كَرِهَ عيسو وأحب يعقوب » وهما مازالا توأمين في رحم أُمهما ، وأن على الابن الأكبر أن يخدم أخاه الأصغر«التكوين:(٢٥ الروم ٩ /١٢–١٣) ولكن من الغريب أن هناك قصة أخرى قد تكون من مصدر آخر تُبين لنا أن الأمر كان على عكس ما جاءت به النبوءات المذكورة آنفــاً !! . . .

إننا نجدُ في الفصل الثالث والثلاثين من التوراة وفي سفر التكوين بالذات اعترافاً واضحاً بأن يعقوب كان يقوم على خدمة عيسو ويقدم له الخضوع سبعَ مراتٍ دلالةً على الولاء والطــاعة ، مخاطباً إياه بِـ « يا سيدي » ، ومعلناً عن نفسه قائلاً : « عبدُكَ يا سيدي » ؟؟ . . .

وقد ورد عند ذكر إبراهيم أنه كان له العديد من الأبناء الآخرين من « فيتورا » ومن « محظيّاته » وقد أرسلهم إلى الشرق بعد أن زودهم بالهــدايا والمِنَح العديدة ، ومن ذرياتهم تكونت قبائلُ كثيرة وقوية . وقد ورد بالنص أسماء اثني عشر من أبناء إسماعيل مع أوصافهم ، وكان كل واحد منهم أميراً على مدنه ومعسكراته وجيوشه الخاصة به وكذلك من أبناء (فيتورا) وغيرها من النساء الأخريات ، ومن أولاد عيسو الذين وردت أسماؤهم جميعاً .

إننا حين نعلم أن عــدد أفراد عائلة يعقوب عندما ارتحل إلى مصر كان لا يزيد عن سبعين نفراً ، وهناك خفَّ « عيسو » إلى لقائه ومعه أربعمائة من الخيالة المسلحين . وحين نعلم أن القبائل العربية القوية خضعت لحــكم الاثني عشر أميرا الذين يعود نسبهم إلى إسماعيل ، ثم إن محمداً ﷺ بعد بعثته قام بالدعوة إلى الإسلام ، ووجد قبــولاً من جميع القبائل العربية التي اتحدت تحت راية الإسلام واعتنقت رسالته ، وانطلقت تفتح البلاد التي وُعد بها أبناء إبراهيم من قبل .

إننا حين نعلم ذلك ، نقف على الحقيقة الساطعة التي لا يجوز أن نتعامى عنها ، وهي أن العهد قد نفذ وتحقق لحساب إسماعيل ، وأن الوعد الحق قد تم تحقيقه على يــدي محمد ﷺ .

وقبل الإتيان على نهاية هذا المقال أود أن ألفت نظر الطلاب الذين يدرسون التوراة والإنجيل ، وعلى الأخص أولئك الذين يتخصصون في الدراسات العليا في نقد هذا الكتاب بقسميه ، ألفتُ نظرهم إلى حقيقةٍ هامةٍ ، وهي أن التنبؤات المسيحية المزعومة تتعلق بدعايةٍ ضالةٍ ، كُتِبَتْ لصالح عائلةِ داود ، بعد موتِ سليمان ، الذي انقسمت مملكته إلى قسمين ، فالنّبيّان العظيمان « إلياس واليسع » اللذان اشتهرا في زمن مملكة السامرة أو إسرائيل ، لم يذكرا حتى اسم داود أو سليمان . ولم تعد القدس مركزاً دينياً للقبائل العشر ، ولذلك فإن المزاعم أو الادعاءات اليهودية القائلة بدوام واستمرارية الحكم ، إن هي إلا مزاعم مرفوضة بصورة قاطعة .

ولـكن الأنبياء من أمثال « إشعيا » وغيرهم ممن ارتبطت أسماؤهم بهيكل القدس وبيت داود ، كانوا قد أوحي إليهم بقدوم نبي عظيم ، صاحب سلطان كبير .

وكما ذكرتُ في المقالة الأولى ، فإن هناك علامات معينة واضحة سوف يُعرف بها خاتمُ الأنبياء . وسوف نحاول دراسة هذه العلامات المعينة في الحلقات القادمة .



لغز تقديس الحجر

Mispa

في هذه الحلقة حسب دلالة العنوان ، سأحاول إعطاء تفسير للتقديس العبري القديم للحجر ، الذي يخصّونه بالعبادة عنده ، وهو أمر ورثوه عن إبراهيم جدهم العظيم ، وأُبيِّنُ أن هذا التقديس للحجر قد أسسه في مكة هذا الأب الكبير وابنه إسماعيل ، وأقامه في أرض كنعان إسحاق ويعقوب ، وفي مؤاب وأماكن أُخرى وضع أُسسه آخرون ممن انحدروا من سلالة إبراهيم .

ويجب أن نفهم بأن عبارة « تقديس الحجر » لا تعني عبادة الحجر ، لأن تلك هي الوثنية ، بل إنني أفهم منها عبادة الله عند حجر مقدس ، خُصّص من أجل ذلك الغرض .

وفي تلك الأيام القديمة ، عندما كانت الأسرة المختارة تعيش حياة تجوال رعوية ، لم يكن لهـا موطن تستقر به وتبني بيتاً مخصّصاً لعبادة الله ، ولذلك اعتادت على نصب حجر معين جعلت تحج إليه ، وتطوف به سبع مرات على شكل دوران في حلقة للرقص . وقد تخيف كلمة « حـج » القراء المسيحيين بسبب صيغتها العربية ، ولأنها في الوقت الحاضر تعني شعيرة من الشعائر أو العبادات الدينية الإسلامية . وكلمة « حـج » مرادفة تماماً من حيث المعنى والأصل لنفس الكلمة في العبرية واللغات السامية الأخرى . فكلمة حجاج Hagag العبرية هي نفس كلمـة حجاج العربية Hajaj والفرق الوحيد هو لفظ الحرف الثالث من الأبجدية السامية وهو الجـيم التي يلفظها العرب جيما . وشريعة موسى تستخدم هذه الكلمة بعينها وهي Hagag أو

حجاج Haghagh (١) وذلك عندما تأمـــر بأداء طقوس الاحتفال . وتعني الكلمة الدوران حول بناء أو مذبح أو حجر ، بخطوات مهرولة منتظمة ومدرّبة ، تأديةً لطقس أو عيد ديني يحتوي على السرور والإنشاد . وفي الشرق لا يزال النصارى يمارسون ما يسمونه حِجَّة Higga إما أثناء أعيادهم أو في الأعراس . وبنـــاء على ذلك فإنه لا عـــلاقة لتلك الكلمة بكلمة الحـــج المشتقة من الكلمة الإيطالية Pellegrino والتي اشتُقَّت بدورها من الكلمـــة اللاتينية Peregrinus التي تعـــني الغريب أو « الأجنبي » .

وكان إبراهيم أثناء نزوله في مكان ما بصورة مؤقتة يقيم مذبحاً للعبادة والأضاحي في أماكن مختلفة ومناسبات معينة . وعندما كان يعقوب في طريقه إلى « بادان — آرام » رأى رؤيا ذلك السلم المدهش ، فنصب حجراً هناك وسكب عليه الزيت وسماه بيت أيل " Bethel " أي بيت الله . ثم عاد فزار ذلك الحجر بعد عشرين عامـــاً وسكب عليه الزيت وأهرق عليـــه الخمر الصافي (Pure wine) كما هو مسجل في سفـــر التكوين (١٠ — ٣٥/٢٢) وأُقيم حجر خاص بمثابة نُصُب (٢) على يد يعقوب وحميّه ، فوق كومة من الحجارة تسمى جلعاد بالعبرية وتسمى « يغارساهدوثا » « Yaghar Sahdutha » كمـــا أطلـــق عليها « لابـــان » " Laban " بلغته الآرامية ، ويعني كومة من الشواهد أو العلامات . ولكن اسم العلم الذي أعطوه للحجر المنصوب كان مِسْبَا " Mispa " (تكوين ٢١ / ٤٥ — ٥٥) وأُفَضِّلُ أن أكتب هذه الكلمة « مِسْفَا » بصورتها العربية الدقيقة ، وذلك توخياً لفائدة قرائي من المسلمين .

---

(١) إن العبرانيين والآراميين ليس لديهم « ج » كما عند العرب في أبجديتهم ، والحرف الثالث في الأبجديات السامية غير العربية هو (ج gamal) عندما يكون قاسياً و (غ Gh) عندما يكون ليناً أو حلقياً . (المؤلف)

(٢) قصة الحجر والنصب هذه وما يتعلق بها من إراقة الخمر والزيت . . والتقديس . . فيها شبهة الوثنية واضحة ، وهي هنا من الإسرائيليات المدسوسة في التوراة ، على نبيّ الله يعقوب عليه السلام ، إذ لا يتـــأتي أن يصدُرَ ذلك منـــه ؛ لأنه معصوم ، وداعٍ إلى التوحيد ، وترك الشرك وأسبابه المؤدية إليه . (المعلق)

وقد أصبحت هذه « المِسْفَا » فيما بعد أهم مكان للعبادة ، ومركزاً للمجالس القومية في تاريخ شعب إسرائيل ، فهنا نَذَرَ « نَفْتاح » وهو بطل يهودي أمام الرب نذراً ، وبعد أن هزم العمونيين يفترض أن يكون قد وفى بنذره وقدم ابنته الوحيدة لِتُحْرَقَ قرباناً . . . (سفر القضاة / ١١) وعند "المِسْفَا" تجمع أربعمائة ألف من حملة السيوف من أسباط إسرائيل وأقسموا أمام الرب أن يُبيدوا سبط بنيامين ، بسبب الجريمة البشعة التي اقترفها أبناؤه في « جيبَعْ » "Geba" ونجحوا في ذلك ، (سفر القضاة ٢٠ / ٢١) وعند "مسفا" دعا النبي صموئيل جميع الناس حيث أقسموا أمام الرب أن يدمروا جميع أصنامهم وتماثيلهم ، ثم كان بعد ذلك أن نجوا بأنفسهم من أيدي الفلسطينيين ، (صموئيل / ١ / ٧) وهنا اجتمعت الأمة وتمّ تنصيب شاؤول ملكاً على العبرانيين (صموئيل / ١ / ١٠) وباختصار فإن كل قضية ذات أهمية كبيرة كان يُبَتُّ فيها عند هذا المسفا أو في « بيت إيل » .

ويبدو أن هذه المقامات المقدسة كانت مبنية على أماكن مرتفعة أو منصات عالية ، وكثيراً ما كانت تدعى راموث "Ramoth" أي « المكان المرتفع » وحتى بعد بناء هيكل سليمان الفخم ظلت أحجار المسفا موضع احترام كبير . ولكن المِسْفَا هذه ، شأنها شأن الكعبة في مكة ، كانت مَليئَةً بالأصنام والتماثيل . وبعد خراب القدس والهيكل على أيدي الكلدانيين احتفظت المسفا بطابعها المقدس حتى عهد المكابيين أثناء حكم الملك انطيوخوس (١) .

والآن ما معنى كلمة « مسبا » هذه ؟ إنها تُترجَمُ عادةً إلى برج مراقبة أو مِرْقَب وهي في اللغات السامية اسم ظرف يُشتق من الشيء الذي تحيط به أو تحويه ، « ومسبا » هي المكان أو البناية وأصلها « صَفَاة » وهي كلمة قديمة معناها « حجر » والكلمة المألوفة التي تطلق عادة على (Stone) هي « ايبِنْ » (Eben) في العبرية

(١) إن التوراة التي أرجع إليها لا تتضمن الكتب المسماة « بالمزيفة » الواردة في العهد القديم . وقد نشرت هذه التوراة جمعية التوراة الأمريكية (بنيويورك سنة ١٨٩٣) والعنوان هو (الكتب المقدسة في العهد القديم والعهد الجديد مع الشهود ، تُرجمت من لغات قديمة وطبعت في مطبعة جمعية التوراة الأمريكية) . (المؤلف)

و « حَجَر » بالعربية . أما في السريانية فهي « كِيبَا » " Kepa " ولكن يبدو أن كلمة « صفاة » مشتركة بينها جميعاً ، وتدل على شيء أو شخص معين عندما يكون معناها « حجرا — Stone » ومن هنا فإن المعنى الحقيقي لـ « مسبا » هو المكان أو المنطقة التي يُقــام أو يُنصب فيها « الصفا » أو « الحجر » . وسنرى أنه عندما أطلق هذا الاسم « مسبا » لأول مرة على الحجر المنصوب فوق كومةٍ من الحجارة ، كان قائماً بمفرده لا يحيط به أي بناء ، فهو إذن البقعة التي يقــوم فوقها « الصفا » ويطلق عليه « مسبا » .

وقبل تفسير مدلول اسم « صفا » ، لابد لي مرة أُخرى من الاعتماد على صبر بعض قرائي الذين لا يعرفون العبرية ، فاللغة العربية تفتقر إلى حرف »« P — پ » في أبجديتها كما تفتقر إليه العبرية واللغات السامية الأخرى ، والتي يكون فيها حرف P قبل حرف h ناعماً أحياناً فتلفظ Ph مثل F ، وفي اللغة الإنجليزية فإن القاعدة العامة هي أن الكلمات السامية واليونانية التي تحتوي على صوت F تُنقَل حروفُها وتُكتب فيها Ph بدلاً من F مثــل " Seraph " " Mustapha " " philosophy " وحسب هذه القاعدة أفضل أن أكتب هذه الكلمة هكذا : " Safa " بدل " Sapha " .

وعندما لقّب يسوعُ المسيحُ أولَ تلاميذه شمشون (Simon) (سمعان) باللقب الشهير « صخر » " Petros " ، لابد وأنه كان يدور بخلده كلمة " Sapha " القديمة هذه والتي ضاعت منذ أمد بعيد ! ولكن للأسف لا نستطيع أن نقرر بصورة حتمية ما هي الكلمة بالضبط التي عَبَّر بهــا عن ذلك بلغته ، وكلمة Petros اليونانية هي صيغة المذكر ، وأما Petra فهــي صيغة المؤنث ، وهي ليست كلاسيكية وليست يونانية لدرجة أن المرء يستغرب من مجرد اعتمادها أو استعمالها من قبل الكنائس . وهل فكر عيسى أو أي يهودي آخر بأن يدعو الصياد « باريونا » باسم بيتروس ؟ الجواب هو حتماً:« لا » . والترجمة السريانية لما يسمى « Pshitta » كثيراً ما حُوِّلتْ عن هـذه الصيغة اليونانية إلى (Kipa أو Kepha) . وإن مجــرد كـون النص اليوناني قـد احتفـظ هو الآخر بالاسم الأصـلي كيفاس Kephas والذي أعادته الترجمات الإنجليزية على شكل " Cephas " يـدل على أن المسيح تكلم اللغـة الآرامية وأعطى لقب كيفا " Kepha "لتلميذه الأكبر .

وكثيراً ما كتبت الترجمات العربية القديمة اسم القديس بطرس على أنه « شمعون الصفاة » أي شمعون الصخرة أو الحجر . وكلمات المسيح « أنت الصخرة » إلى أخره . . . لهـا مرادف في الترجمة العربية وهو « أنت الصفاة » (إنجيل متى / ١٦/ ١٨ – وإنجيل يوحنا / ١ / ٤٢ . . . الخ) .

ولذلك ينتج عن هذا أنه إذا كان سمعان (شمعون) هو الصفا فإن الكنيسة التي تقام عليه سوف تسمى بالطبع « مِسْفَا » وكان بإمكان المسيح أن يشبه سمعان « بالصفاة » والكنيسة بـ « مِسْفَا » وهو أمر يلفت النظر بصورة واضحة . ولكن عندما أحاول حل اللغز أو جلاء الغموض المختص بهذا التشبيه والحكمة المتضمنة في الصفا ، فلابد من أن نقبلَ أبرزَ الحقائِق عن استحقاق « محمد » للقبه المجيد وهو (المصطفى) .

ومما ذكر أعلاه لابد وأن يقود المرء حُبُّ الاستطلاع إلى طرح الأسئلة التالية :

(أ) لمـاذا اختار المسلمون والموحدون من سلالة إبراهيم الحجر لكي يؤدوا طقوسهم الدينيـة عنده أو من حوله ؟ ؟

(ب) لمـاذا يجب أن يسمى هذا الحجر بالذات « صفا » ؟ ؟

(ج) ما الهـدف الذي يسعى إليه الكاتب ؟ ؟

وهـكذا قد تثور أسئلة أخرى عديدة أُختير الحجر كأفضل مادة مناسبة يستطيع المسافر المتدين أن يقدم عليها أُضحيته ويسكب زيته الصافي وخمره(١) ويقوم بطقوسه الدينية حـوله . وكان الأمر أكثر من ذلك ، فقد أُقيم هذا الحجر ليُخَلِّد بعض النذور والوعود التي قطعها أحد الأنبياء أو الاتقياء على نفسه لخالقه ، والوحي الذي تلقـاه من الله .

وعلى ذلك فقد كان نصباً مقدساً يديم الذكرى ويخـلد الطابع المقدس لحدثٍ ديني عظـيم . ومن أجل هذا الغرض لا يمكن لأية مادة أُخرى أن تَبزّ الحجر ؛

(١) الخمر ليست محرمة على شعب إسرائيل . (المؤلف)

إذ لا يقتصر الأمر على أن صلابة الحجر وقابليته للدوام تجعله مُلائماً لهذا الغرض ، بل إن مجرد بساطته ورخصه وانعدام قيمته في مكان منعزل سوف يحميه من جشع الناس أو عُدوانِهم الذي قد يَدفعهم لتخريبه أو سرقته . وكما هو مشهور فإن شريعة موسى تمنع بصورة قاطعة قطع أو نحتَ أحجارِ المذبح ، فالحجر المسمى « صفا » كان يجب أن يُترك كلية على طبيعته . وكان محظوراً صنع تماثيل أو نقوش أو زخارف عليه ، لئلا يعبد الجهلاء أي واحد من هذه في المستقبل . ولا يمكن للذهب أو الحديد أو الفضة أو أي معدن آخر تلبية المتطلبات المتوافرة في الحجر البسيط . ولذلك سوف نفهم أن أنقى وأدوم وأفضل وأسلم مادة لإقامة نصب ديني مقدس لا يمكن أن تكون سوى الحجـــر .

وقد أخذ تمثال البرونز المذاب لجوبتر الذي كان يعبد الجـــد الأكبر الروماني من البانثيون وأُعيد صبه أو تشكيله إلى تمثال للقديس بطرس بأمر من أحد الباباوات الحكام النصارى . والواقع أن الحكمة المتجسدة في « الصفا » حكمة مدهشة وجديرة بجميع الذين لا يعبدون شيئاً آخر سوى الله .

ويجب أن نتذكر أيضاً أنه ليس « الصفا » المقام نصباً تذكارياً هو المقدس وحده ، بل إن البقعة والدائرة التي يقع فيها مقدسة أيضاً . ولهذا السبب فإن الحج عند المسلمين كالحجـــة « Higga » عند اليهود ، يُؤَدّى حول بناية مثبت فيها حجر مقدس . ومن الحقائق المعروفة أن القرامطة الذين أخذوا الحجر الأسود من الكعبة وأبقوه في بلادهم عشرين سنة اضطروا لإعادته لأنهم لم يستطيعوا صرفَ الحجاج عن مـــكة . ولو كان من الذهب أو أي عنصر ثمين آخر لمـــا أمكن أن يدوم لمدة خمسة آلاف سنة تقريباً على الأقل . ولو أنه كانت عليه بعض النقوش أو الصور لدمره الرسول محمد ﷺ بنفسه .

أما من حيث المعنى أو بالأحرى المعـــاني التي للصفا " Sapha " فقد أشرت إليها من قبل على أنها صفات الحجر .

وتتألـــف الكلمة من حرفين ساكنين همـــا: ص ، ف " Sadi, phi " وتنتهي بحرف علّة (hi) كفعل وكاسم . وتعني صيغة « gal » التطهير ، والمراقبة ،

وتحديق النظر عن بعد ، والاختيار ، كذلك فإنها تعني « الصلابة والسلامة » أما في صيغة " pi'el " أو الفعل وهي سببية فتعني « أن يختــار ، أو أن يجعل شخصاً آخر يختار » وهــكذا .

وكان الشخص الذي ينظر أو يرقب من البرج يسمى "صوفي Sophi" (انظر سِفْر الملوك الثاني ٩ / ١٧ . . الخ) . وفي الصور القديمة أي قبل بنــاء هيكل سليمان كان النبي أو « رجل الله » يسمى (روي – Roi أو جوزي hozi) ومعناها الرائي (سِفْر صموئيل الأول ٩ / ٩) . وبالطبع فإن الدارسين أو العلماء المتبحرين في اللغة العبرية يعرفون جيــداً كلمــة مصَافِي " msaphi " أو مصَابي " msappi " التي تعادل في علم الإملاء أو ضبط التهجئة العربي المُصَفّي أي « الشخص الذي يحاول اختيار ما هو نقي وسليم وصحيح » وهكذا ، وكان المراقب على برج يزراعيل كما مرّ آنفاً ، يمــعن النظر ويراقب بدقة من مسافة بعيدة ليرى أو يميز مجموعة من الناس قادمة نحو المدينة « ورأى أول رسول للملك وصل والتحق بالجماعة لكنه لم يرجع » . وانطبق نفس القول على الرسول الثاني والثالث . وفيما بعد تمكن المراقب أو الصوفي Sophi من تمييز جيهــو – " Jehu " رئيس المجموعة . إذن مــاذا كان عمل المراقب ووظيفته ؟ . . لقد كان هو التحديق ببصره بدقة من مسافة معينة من أجل التعرف على شخص أو تمييزه من بين آخرين بهدف تحديد هويته وحركاته إن أمكن ذلك ، ومن ثم إعلام الملك . وإذا ما سألت : ماذا كان عمل ووظيفة المراقب " Sophi " المنعزل وحيداً على المسبا ؟ فالجواب هو أنه اعتاد أن يراقب من منارة أو برج للمراقبة من أجل تمييز الحجاج في الصحراء ، أو أنه اعتاد المراقبة للتحذير من خطر ما – وهذا الجواب لا يشفي غليل السائل المتشوق لمزيد من المعــرفة .

وإذا كان الأمر كذلك فإن « المسفا » ستفقد طابعها الديني والمقدس ، وتتخذ شكل أو طابع برج مراقبة عسكري . لكن الأمر كان مختلفاً بالنسبة لمراقب المسفا . ففي الأصل كانت « المسفا » مجرد نُصُبٍ أو مزار على مكان منعزل مرتفع في « جلعاد » حيث كان يعيش المراقب (Sophi) مع أسرته . ولكن بعد فتــح إسرائيل لأرض كنعان واحتلالها ازداد عدد « المِسْفَايات» وسرعان ما أصبحت مراكز دينية عظيمة

وتطورت إلى معاهد للتعليم والجمعيات الدينية . ويبدو أنها تشبه الجماعات الصوفية والإسلامية مثل المولوية ، والبكداشية ، والنقشبندية وغيرها ، وكل واحدة منها كانت تحت إشراف شيخها ومرشدها . وكانت هناك مدارس ملحقة « بالمسفا » حيث كان يجري تدريس الشريعة والدين والأدب العبري وغير ذلك من فروع المعرفة . ولكن فوق هذا العمل التعليمي ، كان الصوفي رئيس جماعة الداخلين في هذه المجموعة وقد اعتاد أن يدرسهم ويلقنهم الدين السري الذي يُعْرَفُ الآن باسم الصوفية . والواقع أن من نعرفهم الآن باسم الصوفية كانوا يسمون عندئذ نبيم " Nbiyim " أو أنبياء(١) ، وما يسمى الآن في التكايا الإسلامية بالذكر كانوا يدعونه التنبؤ(٢) . وفي زمن النبي صموئيل الذي كان رئيساً للدولة إضافة إلى رئاسة معاهد المسفا ، أصبح عدد هؤلاء التلاميذ والأعضاء كبيراً جداً . وعندما مُسِحَ شاؤول وتُوِّج ، انضم إلى الذِّكْر مع الأعضاء وأعلن في كل مكان القول:« انظروا شاؤول أيضاً بين الأنبياء » وأصبح القول مثلاً لأنه كان أيضاً يتنبأ مع الانبياء (صموئيل ١٠ / ٩ـ ١٣) .

---

(١) لعل هذا ناشىء عن اليهودية المحرّفة ، لأن النبوة شيء والصوفية شيء آخر . . ولا يوصف بالنبوة إلا من أوحى الله إليه بأمر شرعي ، أما الصوفي فإنه ليس إلا عابداً لله ، فإن كان على سنة النبي وطريقته فهو على صواب ، وإن كان من أهل البدع فهو على ضلال ولا تنفعه عبادته لأن الله لا يُعبد إلا بما شرع .

فـأين الصوفي من النبيّ ؟ ! . .

إن الصوفي إن استقام وصلح ، ليس إلا تابعاً للنبي ، وحسنة من حسناته .

وقد سبقت الإشارة في هامش صفحة ٥٩ إلى أن اليهود ضمّوا إلى قائمة الأنبياء عدداً كبيراً من رجالهم اعتبروهم أنبياء وما هم كذلك . [المعلق]

(٢) التنبؤ والذكر . . أمران مختلفان ؛ هذا شيء وذاك شيء آخر . .

فإن التنبؤ هو التكلم بكلام النبوّة ، فإذا كان المقصود التحدث بالأمور الغيبية ، فإن ذلك لا يكون إلا بأمر الله ، وبما يأذن به الله . . قال تعالى عن نفسه (عَالِمُ الْغَيْبِ ، فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ، إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ) . فعلم الغيب إذن لا يعلمه إلا الله ، وقد يكشف عن بعض الغيب لنبي من أنبيائه حسبما يشاء ويرضى سبحانه . . وهذا أمر يختلف عن الذكر ، ولا تشابه بينهما البتة . [المعلق]

واستمرت الصوفية بين العبرانيين كجمعيةٍ دينيةٍ سريةٍ تحت إشراف نبي العصر وحتى وفاة الملك سليمان . وبعد انقسام المملكة إلى مملكتين يبدو أن انشقاقاً عظيماً حصل بين الصوفيين أيضاً . وفي زمن النبي إلياس سنة (٩٠٠ ق.م) تقريباً يقال إنه كان هو النبي الحقيقي الوحيد الباقي وأن الآخرين جميعهم قتلوا وأنه كان هناك ثمانمائة وخمسون نبياً لبعل ، وعَشْرة كانوا يأكلون على مائدة الملكة « إيزابيل » (الملوك الأول / ١٨ / ١٩) ولكن بعد ذلك بسنوات قليلة التقى النبي اليسع تلميذ إلياس وخليفته في بيت إيل وأريحا بعشرات من « أولاد الأنبياء » الذين كانوا يتنبأون له بالصعود القريب جداً ، كصعود معلمه إلياس . (الملوك الثاني / ٢) .

ومهما كان الوضع الحقيقي للصوفيين العبرانيين بعد الانشقاق الكبير الديني والقومي ، فإن ثمة أمراً واحداً مؤكداً وهو أن المعرفة الحقيقية بالله والعلم السري أو الخفي للدين ظل محفوظاً إلى أن ظهر يسوع المسيح الذي أقام جماعته من التلاميذ العارفين بخفايا الدين عن سمعان الصفا . وأن المتصوفين الحقيقيين أو الحكماء « للمسباه» المسيحية أداموا هذه المعرفة ورعوها حتى ظهور من اختاره الله وهو محمد المصطفى (مصطفي Mustaphi باللغة العبرية) .

وتذكر التوراة كما قلت سابقاً عدةَ أنبياء متصلين « بالمسفاة » ولكن يجب أن نفهمَ ، ما يُعلنُ القرآن بوضوح :« اللهُ أَعْلَمَ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » فهو لا يعطي النبوة لشخص بسبب رفعة نَسبِهِ أو كثرة ثروته ، أو حتى تقواه ، بل يعطيها حسب مشيئته هو (الله تعالى) لأن الإيمانَ وكلّ أفعالِ التقوى والتأملات والتجارب الروحية والصلوات والصيام والمعرفة الدينية قد ترفع الشخص الجديد ليصبح مرشداً روحياً إلى مرتبة قديس أو وليّ ، ولكن ليس إلى درجة النبوة ؛ لأن النبوة لا يحصل عليها المرء بجهوده بل هي هبة من الله . وحتى بين الأنبياء لم يكن هناك من الرسل سوى القلائل الذي حظوا بكتاب خاص بهم ، وكُلِّفوا بهداية قومٍ معينين أو رسالةٍ محددة ، لذلك فإن اصطلاح « أنبياء » كما هو مستعمل في الكتب المقدسة العبرية كثيراً ما يكون غامضاً مبهماً .

وجدير بي أن ألاحــظ بهذه المناسبة أن معظم مادة التوراة كانت من عمل أوْ إنتاج هؤلاء « المسفا » قبل السبي البابلي بل وأقدم من ذلك ، ولكن تمت مراجعتها فيما بعد من قبل أشخاص مجهولين إلى أن اتخذت الشكل الذي بين أيدينا الآ ن .

بقي الآ ن أن نقول كلمات قليلة عن الصوفية أو التصوف الإسلامي والكلمة « اليونانية — Sophia » (الحكمة) . وإن منافسة هذين النظامين من المعرفة العليا لا تدخل ضمن نطاق هذه المقالة ، فالفلسفة بالمعنى الأوسع للكلمة تختص بالدراسة أو العلم بمبادىء الوجود الأوَّلي . وبعبارة أُخرى فإنها فوق حدود العلوم الطبيعية لدراسة الجوهر الكائن ، وهي لا تُعنى بدراسة الأسباب والقوانين التي تَحدثُ أو تُشاهَدُ في الطبيعة ، وإنما كل همّها هو محاولة الوصول إلى الحقيقة . والتصوف الإسلامي هو التأمل في الله وفي النفس ، ويتخذ من الرياضة الروحية سبيلاً للاتصال بالله ، وإن تَفَوُّقَ الصوفية الإسلامية على الفلسفة اليونانية واضح من الموضوع الذي تتناوله . وهي حتماً أسمى من الإعراض عن الزواج (التبتل) أو الرهبانية النصرانية التي لا تكترث بما في ضمائر الآ خرين وعقائدهم . والمتصوف المسلم يكنّ الاحترام دائماً للأديان الأخرى ، ويسخر من فكرة الإلحــاد ، ويكره كل أنواع الاضطهاد والظلم . وكان معظم القديسين المسيحيين إما من مضطّهِدي الكفار أو من الذين قاسوا من اضطهاد الكفار لهم . وتأتي شهرتهم من إسرافهم في عدم التسامح ، ومن المؤسف أن هذا صحيح كل الصحة .

وأود أن أُضيف على سبيل الملاحظة العابرة أن الكُتّاب المسلمين قد كتبوا كلمة فلسفة Philosophy اليونانية على شكل فلسفة بحرف « س » بدلاً من « ص » الموجودة في العبرية وكتبوا الكلمات العربية صفا وصوفي بالصاد . . وأعتقد أن هذا الشكل للحرف قد أدخله إلى العربية المترجمون الأشوريون الذين كانوا ينتمون في السابق إلى طائفة النساطرة . أما الأتراك فيكتبون اسم القديسة صوفيا في القسطنطينية بحرف الصاد ، والفلسفة بحرف السين مثـــل حرف Samekh عنـد العبرانيين . واعتقد أن كلمة صوفيا Sophia اليونانية هي من نفس اشتقاق الكلمة العبرية ، وأن الفكرة القائلــة بأن الكلمة الإسلامية صوفية مأخوذة من الصوف يجب أن تُنبذ .

والصوفية الحقيقية أو الحكمة تعني المعرفة الحقيقية بالله والعلم الصحيح عن الدين والأخلاق . والاصطفاء الحق لآخر رسل الله من بين جميع رسله ، يعود إلى المؤسسة الإسرائيلية القديمة المسماة « مِسْفا » mispha إلى أن تحولت إلى « مسفا » تابعة للنصارى أو المسيحية ، ومن المدهش حقاً أن نرى كيف أن القياس صحيح وكامل وكيف أن التدبير الإلهي لأحوال الخلق يتم بغاية الاتساق والنظام . « والمِصفا » أيضاً المِصفاة التي تُصَفَّى فيها جميعُ المعطيات والناس ويُنخَّلون من قبل المصفي ، كما لو كان ذلك يتم من خلال مصفاةِ الطعام (لأن هذا هو معنى الكلمة) . وهكذا يتم تمييز أو فصل الحقيقيْ عن الزائف ، والسمينِ عن الغَثّ ، ومع ذلك تتوالى القرون وتتعاقب سلسلة الأنبياء والمصطفى لا يظهر . ثم يأتي يسوع المبارك ولكنه يُقابَلُ بالرفض والاضطهاد ، ولأنه لم يوجد في إسرائيل تلك « المِصفاة » الرسمية التي كان بإمكانها أن تتعرف عليه وتعلن عن وجوده كرسول حقيقي لله ، أُرسل ليشهدَ أن المصطفى هو آخر نبي يأتي من بعده . وكان المجمع الكبير للكنيس الذي دعاه وأسسه « عيزرا ونحميا » والذي كان آخر أعضائه هو « سمعان العادل » (توفي حوالي ٣١٠ ق . م) قد جاءت بعده المملكة العليا في القدس والمسماة « سَاهِدْرين » ، ولكن هــذا المجمع الأخير الذي كان يرأسه الناسي Nassi (الرئيس أو الأمــير) حكم على يسوع بالموت ، لأنه لم يدرك شخصيته ولا طبيعةَ رسالته السماوية المقدسة . ولكن بعض الصوفية أو الحكماء عرفوا عيسى وآمنوا برسالته النبوية ، إلا أن الجماهير في وقت ما ، ظنته المصطفى أو الرسول الذي اختاره الله ، وأمسكت به ونادت به ملــكاً . بيد أنه توارى عن الأنظار واختفى من بينهم ، لأنه لم يكن المصطفى ، وإلا لكان من المضحك أن يجعل من سمعان الصفا ، وكنيسته « المِسفا » ! ! . . لأن وظيفة « المِسْفا » ومهمته كانت المراقبة والبحث عن آخر الرسل ، بحيث أنه إذا جاء سوف يُنادى به على أنه المختار والمصطفى ، ولو كان عيسى هو المصطفى لمــا كان ثمةَ ما يدعو لاستمرار إقامة « المِسفا » بعد ذلك . وهذا الموضوع عميق جداً وممتع جداً ، وجدير بالدراسةِ الدؤوبة . إن « محمداً المصطفى » هو لغز « المِسْفَا » وهو « كنز الحــكمة » .

"محمد" هو "الشَّيْلُوْ"

يرقد يعقوب حفيد إبراهيم على فراش المرض ، وهو في السنة السابعة والأربعين بعد المـــائة من عمره ، وتقترب النهاية بسرعة . ويدعو أولاده الإثني عشر وأُسَرَهم إلى غرفةِ نومه ، ويبارك كلَّ ابنٍ له ويتنبأ بمستقبل قبيلته ، ويُعرف هذا عادة « بوصية يعقوب » وهي مكْتوبة باللغة العبرية بأسلوبٍ أَنيق ذى لَمسةٍ شعرية . وتحتوي على كلمات قليلة فريدة ولا تتكرر في التوراة قط . ويتضمن هذا العهد عرضاً لمختلف الحوادث التي شهدها يعقوب في مراحل حياته . ويقال إنه استغل جوع أخيه واشترى منه حقـــه الذي يترتب على كونه الولد البكر بطبق من الحساء ، وخدع والده العجوز الضرير وحصل على مباركةٍ كانت من حق «عيساو» بحكم كونه الولد البكر لأبيه . وخدم سبع سنوات ليتزوج من راحيل ، لكن والدها خدعه وزوجه « لِيّا » أُختها الكبرى بدلاً منها ، ولذلك اضطر أن يخدم سبع سنوات أُخريات من أجل زواجه بالثانية . وقد حزن كثيراً بسبب المذبحة التي اقترفها ولداه شمعون وليفي ، عندما قتلا جميع ذكور مدينة شكيم (نابلس) لأن أميرها اعتدى على عرض أُخته « دينا » كما أن السلوك المشين لابنه البكر « روبين » الذي دَنَّسَ فراش والده بأن ضاجع فيه مَحظيته (١) ، أمر لم ينسه يعقوب ولم يغتفره ، غير أن أكثر ما أَحزَنهُ بعد فقدان زوجته المحبوبة « راحيل » كان اختفاءَ ابنهِ المفضل يوسف لعدةِ سنوات ، ولكن نزوله إلى مصر ولقاءَه مع يوسف كان مصدر فرحٍ كبير له ، استرد على إثره بصره . كان يعقوب نبياً ، ولقبه الله بإسرائيل « ذلك الاسم الذي تمسكت به القبائل أو الأسباط الاثنا عشر التي انحدرت منه » .

---

(١) ليست هذه وحدها من الفواحش التي تنسبها التوراة المحرفة إلى بيوت النبوة . . إنها ولا شك من الإسرائيليات التي حشيت بها التوراة ، وأُسيء بها إلى الأنبياء وذرياتهم ، وهم منها براء . [المعلق]

وتستمر سياسة اغتصاب حق البكورية في جميع أجزاء سفر التكوين ، ويصور يعقوب على أنه بطل هذا الاعتداء على حقوق الآخرين . ويقال إنه أعطى حق بكورية حفيده « منسي » إلى أخيه الأصغر « أفرايم » رغم احتجاجات والدهما يوسف (الإصحاح / ٤٨) .

كما أنه يَحرِمُ ابنَهُ الأكبر حق البكورية وينعم على يهوذا ابنه الرابع ؛ لأنه كان قد ضاجع « بلهـــا » محظية يعقوب وأم ولديه « دان ونفتالي » . وهو يحرم نفتالي لأنه ليس أفضل من الآخر ، ذلك لأنه زنى بكنته « شامار » التي حملت بطفل ذكر أصبح جد كل من داود ويسوع المسيح (الإصحاح ٢٥ عبارة ٢٢ والإصحاح ٣٧) .

والواقع أنه أمر لا يُصَّدق وهو كون المؤلف أو على الأقل المحـــرر الأخير لهذا الكتاب ملهماً من قبل الروح القدس كما يَدَّعي اليهود والنصارى . ويُقال إن يعقوب جمع بين أُختين في زواج واحد وهو عمل نددت به شريعة الله (سفر اللاويين إصحاح ١٨ عبارة ١٨) . والواقع أنه باستثناء (يوسف) و (بنيامين) فإن ابناءه الآخرين يوصفون بأنهم رعاة خشنون وكذابون (على أبيهم وعلى يوسف) وقتلة ، وزناة ، الأمر الذي يعني أنهم كانوا أُسرة لا تليق بنبي أبداً . وبالطبع لن يقبل المسلمون أي تجديف بحق أي نبي أو شخص مستقيم ما لم تكن مسجلةً ومذكورة بوضوح في القرآن . ولا نعتقد أن الخطيئة المعزوة ليهوذا صحيحة (فصل ٣٨) ، وإلا لكانت البركة التي أعطاها له يعقوب أمراً متناقضاً . وهذه البركة بالذات هي التي نَنْوي دراستَها ومناقشتَها في هذه الحلقة .

ولا يمكن أن يكون يعقوب قد بارك ابنه يهوذا ، إذا كان الأخير حقيقةً والد إبن كنتَّهِ (بيريز) لأن كلا الزانيَين محكوم عليـــه بالإعدام حسب شريعة الله الذي أعطاه هبة النبوة (اللاويين / الإصحاح ٢٠ عبارة ١٢) . لكن قصة يعقوب وأُسرته البعيدة عن المثالية موجودة في سفر التكوين (إصحاح ٢٥ ـ ٥٠) .

والنبوءة الشهيرة التي يمكن اعتبارها نواة لهذا العهد موجودة في العبارة العاشرة من الإصحاح / ٤٩ في سفر التكوين كالتالي :

« لا يزولُ صوبجانٌ من يهوذا أو مُشَرِّعٌ من بين قَدَميْهِ ، حتى يأتي شَيْلُوه ويكون له خضوع الشعوب » .

هذه هي الترجمة الحرفية للنص العبري بقدر ما استطيع أن أفهمه . وهناك كلمتان في النص فريدتان ولا تتكرران في أي مكان آخر في العهد القديم ، أولى هاتين الكلمتين هي « شيلوه » والأخرى « يِقْهَا » أو « يِقْهات » .

وتتكون شيلوه من أربعة أحرف : « شين . يود . لاميد ، وهي» . وتوجد بلدة اسمها « شيلوه » تقع في أرض سبط إفرايم (سفر صموئيل إصحاح / ١ ، جملة / ١ . . الخ) . ولكن لا يوجد فيها حرف (يود) ولذلك لا يمكن أن يكون الاسم مطابقاً أو مشيراً للبلدة التي كان فيها تابوت العهد أَو خيمة الهيكل المتنقل ، لأنه حتى ذلك الوقت لم يكن قد ظهر صوبجان أو مشرع في سبط يهوذا ، فالكلمة إذاً وحيثما وُجدت تشير إلى شخص ، وليس إلى مكان ! ! . .

وبقدر ما استطيع أن أتذكر ، فإن جميع نسخ العهد القديم قد احتفظت بكلمة (شيلــوه) الأصليّة ، دون إعطــائها أية ترجمة أو تفسير . وكلمة « بشيتا » السريانية « بسيطة » في اللغة العربية ، وترجمتها تعني « الشخص الذي تخصه » ومن السهل أن نرى كيف فِهم المترجمُ الكلمةَ على أنها مكونة من « ش » (الصيغة المختصرة لِـ « أَشيرْ ») وتعني : هو أو الذي أو (لوه) وتقابلها « له » بالعربية ، أي : تخصه . وبالتالي فإنه حسب البشيتا فإن العبارة ستُقرأ بالصورة التالية : حتى يأتي الشخص الذي تخصه و . . . الخ .

والضمير (It) وهو لغير العاقل قد يشير إلى القضيب أو الصوبجان أو المشرّع بصورة منفصلة أو مجتمعة . وربما يشير للطاعة في العبارة الرابعة من الآ ية ، لأن اللغة لغة شعرية ، وحسب هذا النص الهام فإن معنى النبوءة سيظهر ببساطة ووضوح على النحو التــالي :

« إن الطابع الملكي المتنبيء لن ينقطع من يهودا إلى أن يجيء الشخص الذي يخصُه هذا الطابع ، ويكون له خضوع الشعوب » .

لــكن يبـــدو أن هذه الكلمة مشتقة من الفعل « شَلَـهْ Shalah » ولذلك فإنها تعني المسالم ، الهـــادىء ، الوديع ، والموثوق .

ومن المحتمل جداً أن أحد الناسخين عن طريق السهو أو الخطأ بانزلاق القلم قد فصل الجانب الأيسر من الحرف الأخير (het) فتحول إلى (hi) لأن الحرفين متشابهان جداً مع فرق ضعيف في الجانب الأيسر . وإذا ما نُقلَ خطأً كهذا إلى المخطوط العبري ، سواء عمداً أو سهواً ــ فالكلمة عندئذ تكون مشتقة من « شَلَـه » بمعنى أرسل أو قـــد يكون اسم المفعول « شلـــوه Shaluh أو المرسل ، النبي أو الرسول » .

ولكن يبدو أنه لا يوجد أي سبب معقول لإبدال مُـتَعمَّـد لحرف (هيت = het) بحرف (hi) لأن (يود = yod) محفوظة في الصورة الحالية لكلمة « شَيْلوه » التي لا يوجد فيها (فاو ــ Vau) اللازمة لاسم المفعول (شالوه) ، يضاف إلى ذلك حسب اعتقادي أن الترجمة السبعينية للتوراة قد احتفظت بكلمة (شيلـــوه Shiloh) كما هي . لذلك فالتغيير الوحيد الممكن هو تغيير الحرف الأخير (هيت) إلى (هي) . وإذا كان الأمر كذلك فإن الكلمة سوف تأخذ معنى « شيلواح » وتكون عندئذ مرادفة تماماً لـ (رسول ياه) وهو نفس اللقب المعطى لمحمد وحده « رسول الله » وأعرف أيضاً أن كلمة (شيلواح) هي أيضاً تعبير في لكلمة (الطلاق) ذلك لأن الزوجة المطلقة « تُرسلُ » بعيداً .

ولا استطيع أن أجد تفسيراً آخر لهذا الاسم المفرد البارز سوى الصيغ الثلاث التي أوْرَدْتُهـــا .

وبالطبع لا جدال في أن كلاً من اليهود والنصارى يؤمنون بأن هذه البركة إحدى أبرز التنبوءات المسيحانية . ولا يستطيع أي مسلم أن ينكر أن عيسى نبي الناصرة هو المسيح لأن القرآن يعترف بهذا اللقب ، ونحن نعرف من الكتب المقدسة اليهودية (سفر اللاويين إصحاح / ٣٠ جملة ٢٣ / ٣٣)(١) أن كل ملك إسرائيلي وكاهن أعظم

(١) سفر إشعيا إصحاح ٤٥ جملة ١ ــ ٧) .

كان يُمْسَحُ بالزيت المقدس المكون في معظمه من زيت الزيتون وعطور متنوعة (البهارات) ، بل إن كورش الزرداشتي ملك فارس يدعى «مسيح الله » هكذا يقول الرب لمسيحه كورش . . الخ .

ومن نافلة القول أن نذكر هنا بأنه رغم أنَّه لا كورش ولا يسوع قد مُسِحَ بالزيت المقدس ، إلا أنهما يُدْعَيان بالمَسيحَيْن .

أما بالنسبة لعيسى ، فحتى لو اعترف اليهود ببعثته النبوية فإن وظيفته المسيحانية لم تكن مقبولة لديهم ؛ لأنه لا توجد أي من العلامات أو خصائص المسيح التي توقعوها في الرجل الذي حاولوا صلبه . فاليهودي ينتظر مسيحاً له سيف وسلطة زمنية أو (دنيوية) وفاتحاً يُعيدُ مملكة داود ، ومسيحاً يجمع شمل إسرائيل المبعثر في أرض كنعان ، ويُخضِعُ العديدَ من الأمم تحت نير سلطته ، ولكنهم لا يمكن أن يعترفوا قط بواعظ كان يقف على جبل الزيتون ، أو مولودٍ وُلدَ في مِذْوَد ! ! . .

ويمكن طرح الحجة التالية لتأييد أن هذه النبوءة القديمة جداً قد تحققت حرفياً وعملياً في « محمد » ، فبالتعابير المجازية مثل « الصولجان » والمشرّع هناك إجماعٌ بين المعلقين أو الشراح أن ذلك معناه السلطة الملكية والنبوءة على التوالي . ودون أن نتوقف طويلاً لتمحيص الجذر والاشتقاق للكلمة المفردة الثانية وهي يقها (Yigha) ففي وسعنا اتباع واحد من المعنيين : إما « الطاعة » أو « التوقع » .

ولنحاول اتباع التفسير الأول لشيلوه كما جاء في ترجمة بشيتا وهو : « الشخص الذي يخصه » . وهذا يعني عملياً « صاحب الصولجان والشريعة » أو الذي يمتلك السلطة وحق التشريع وتخضع له الشعوب . إذن من يكون هذا الأمير الجبار والمشرع العظيم ؟؟.

بالتأكيد ليس موسى ؛ لأنه كان أول منظم لأسباط إسرائيل الإثني عشر ، ولم يظهر قبله أي نبي أو ملك في سبط يهوذا . وحتماً ، ليس داود ؛ لأنه كان أول ملك نبي ينحدر من نسل يهوذا . ومن الواضح أنه ليس عيسى المسيح ؛ لأنه هو نفسه رفض الفكرة القائلة أن المسيح الذي كانت تنتظره إسرائيل كان أحد أبناء داود (إنجيل متى إصحاح ٢٢ جملة ٤٤ ، ٤٥ ، وإنجيل مرقص إصحاح ١٢ جملة ٣٥ ، ٣٧ ، وإنجيل لوقا إصحاح ٢٠ جملة ٤١ — ٤٤) .

ولم يترك قانوناً مكتوباً ، ولم يحلم أبداً بصولجانٍ مَلَكي ، بل الواقع أنه نصح اليهود أن يكونوا مخلصين لقيصر وأن يدفعوا له الجزية . وفي إحدى المناسبات حاولت الجماهير أن تجعله ملكاً لكنه هرب واختبأ . وكان إنجيله مكتوباً على صفحة قلبه ، وبلغ رسالته عن « البشارة » ليس كتابة بل شفاها . وفي نبوءته لا توجد قضية للخلاص من الخطيئة الأصلية عن طريق دم شخص مصلوب أو هيمنة إنسانٍ إلـٰه على قلوب البشر . كذلك فإن عيسى لم ينقض شريعة موسى بل أعلن بوضوح أنه قدم لتحقيقها . كما أنه لم يكن آخر الأنبياء ؛ لأن القديس بولس يتحدث بعده عن أنبياء عديدين في الكنيسة ! ! ..

وجاء محمد ﷺ ، بالقوة العسكرية والقرآن يحل محل الصولجان اليهودي القديم البالي والشريعة القديمة غير العملية ، التي تقوم على التضحيات والرهبنة الفاسدة . ونادى« محمد » بأنقى الأديان وهو توحيد الإله الحـــق ، ووضع أفضل القواعد العملية والضوابط الأخلاقية والسلوكية للبشر .

أقامَ دين الإسلام الذي وَحَّدَ في أُخـــوةٍ حقيقية ، جميعَ الأمم والشعوب التي لا تشرك بالله شيئاً . إن جميع الشعوب الإسلامية تطيع رسول الله وتحبه وتحترمه ؛ لأنه مؤسس دعائم دينها ، ولكنها لا تعبده أبداً ولا ترفعه إلى مقام التقديس والتأليه ؛ لقد سحق محمد الوجود اليهودي المتمثل في قريظة وخيبر ودمر حصونهم وقلاعهم ، ووضع نهاية لنفوذهم هناك .

والتفسير الثاني للكلمة الرباعية (Shilh) وتلفظ « شيلوه » ذو أهمية مساوية لصالح محمد ، فكما وُصِفَ آنفاً أنه « هادىء مسالم أمـــين وديع » وهـــكذا . . . والصيغة الآرامية للكلمة هي شليا Shilya ومن نفس الجـــذر شالا أو شَلا ، وهذا الفعل غير مستعمل في اللغـــة العربية .

ومن الحقائق المعروفة جيداً في تاريخ نبيّ بلاد العرب أنه قبل دعوته إلى الرسالة كان كثير الهـــدوء والمسالمة ومحلاً للثقة وذا شخصية تأملية وجذابة . وكان أهل مكة يسمونه « محمد الأمين » وعندما خلع عليه أهل مكة لقب الأمين هذا ، لم تكن لديهم أدنى فكرة عن « شيلوه » ، وفي جهل من العرب الوثنيين ، شاء الله أن تختلط الأمور

على اليهود غير المؤمنين ، الذين كان بحوزتهم كتاب مقدس ، يعرفون محتوياته . وفعل « أمن » العربي مثل فعل أمان العبري معناه:« ثابت ، مستمر ، مأمون » ؛ ولذلك فإن الهـدوء والأمانة والثقـة تُرينا أن كلمة « أمين » مساوية تمـاماً (لشيلوه) وتحمل جميع الدلالات التي تتضمنها .

وقبل أن يرسل الله محمداً بالدعوة إلى الإسلام وإزالة الوثنية ، الأمر الذي حققـه بنجاح ، كان أهدأ وأصدق رجل في مـكة . ولم يكن بالمحارب أو المشرع ، ولكن بعد أن تحمل رسالة النبوة ، أصبح أَفصح المتكلمين وأشجع العرب ، وكان يحارب الكفار وسَيْفُهُ في يده ، ليس لمصلحته الشخصية ولكن من أجل مجد الله ، وقضية دينه ، وهو الإسلام ، وقد عرض الله عليه مفاتيح كنوز الأرض ، ولكنه رفضها ، وعندما توفي كان فقيراً . إن الخدمة الجليلة العظيمة المدهشة التي قدمها محمد ﷺ خالصة لله ، ولصالح البشر . لم يقدمها أي مخلوق من عباد الله ، ملكاً كان أو نبياً ، أما خدمته لله فإنه اقتلع جذور الوثنية من جزء كبير من الأرض ، وأما خدمته للإنسان فقد قدم له أكمل دين وأفضل شريعة لإرشاده وأمنه . وقد أخـذ الصولجان والشريعة من اليهـود ، فحصن الصولجان وبلغت شريعته درجة الكمال . ولو أُتيـح لمحمد أن يظهر ثانية في مـكة أو المدينة هذه الأيام ، لقوبل من المسلمين بنفس المحبة والطاعة التي قوبل بها أثناء حياته في هذه الدنيا ، وسيُشاهِدُ بسرورٍ عميق أن الكتاب المجيد الذي تركه لم يزل كحالة الذي أنزل عليه ، دون أقل تغيير ، وأنه يُقرأُ ويُرتَّل كما فعل أصحاب محمد بالضبط ، وسيكون مسروراً لتهنئة المسلمين على ولائهم لدينه وتوحيدهم لله ، وأنهم لم يجعلوا منه إلهـاً أو ابنَ إلـه .

أما بالنسبة للتفسير الثالث لاسم شيلوه ، فقد قلت إنه قد يكون تحريفاً لـِ (شِلْواه) وفي تلك الحالة فإنه يتطابق حتماً مع اللقب العربي للنبي ، والذي يتكرر كثيراً في القرآن وهو « الرسول » الذي يعني بالضبط ما تعنيه (شِلواح) أي رسول أو مبعوث « وشيلواح إلوهيم » بالعبرية هي بالضبط « رسول الله » وهذه العبارة تُرتَّلُ خمس مرات كل يوم عندما يؤذن المؤذنون للصلاة فوق جميع المآذن في العالم .

وفي القرآن يُذكر عديد من الأنبياء لاسيما من أُنزلت عليهم كتب سماوية على أنهم رسل ، ولكن لا نجد في العهد القديم ذكراً « لِشيلوه » أو « شيلواح » إلا في سفر يعقوب أو عهـــد يعقوب .

والآن فمهما كانت وجهة النظر التي نحاول أن ندرس ونمحص فيها نبوءة يعقوب هذه ، فإننا مضطرون بحكم تحققها في محمد ، أن نسلم بأن اليهود ينتظرون عبثاً مجيء "شيلوه" آخر ، وأن النصارى مصرون على خطئهم في الاعتقاد أن عيسى كان هو المقصود "بشيلوه".

وثمة ملاحظات أُخرى تستحق منا كل اعتبار جَدّي . ففي المكان الأول ، من الواضح جداً أن الصولجان والمشرّع سيظلان في سبط يهودا طالما أن شيلوه لم يظهر على المسرح .

وبموجب الادعاء اليهودي فإن شيلوه لم يأت حتى الآن ؛ لذلك ينتج عن هذا أن كلاً من الصولجان الملكي والخلافة النبوية كانتا لا تزالان موجودتين وتخصان تلك القبيلة أو ذلك السبط ، ولكن هاتين المؤسستين انقرضتا كلتاهما منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً .

ومن ناحية ثانية يجدر بنا أن نلاحظ أن سبط يهودا اختفى أيضاً مع سلطته الملكية وشقيقتها التي هي الخلافة النبوية . ومن الشروط الأساسية إبقاء وجود السبط وهويته من أجل إظهار أن السبط ككل يعيش إما في أرض آبائه أو في مكان آخر بصورة جماعية ، ويتحدث بلغته الخاصة . ولكن الوضع بالنسبة لليهود معكوس بالضبط ، فلكي تبرهن على أنك إسرائيلي لا حاجة لك لإزعاج نفسك حول ذلك ، لأن أي إنسان سوف يعرفك ، ولكن لن تستطيع أبداً أن تثبت أنك تنتمي إلى واحد من الأسباط الإثنى عشر ، ولهذا فإنك تجد نفسك مُشتّتاً وقد فقدت لغتك نفسها .

واليهود مضطرون أن يقبلوا واحداً من الخيارين : إما التسليم بأن « شيلوه » قد جاء من قبل ، وأن أجدادهم لم يتعرفوا عليه ، أو أن يتقبلوا أن سبط (يهودا) لم يعد موجوداً وهو السبط الذي انحدر منه "شيلوه".

وثمة ملاحظة ثالثة وهي أن النص يتضمن بصورة واضحة ومعاكسة جداً للاعتقاد المسيحي اليهودي ـ أن شيلوه غريب تماماً على سبط يهودا بل وعلى بقية جميع الأسباط . وهذا الأمر على درجة من الوضوح بحيث أن لحظات قليلة من التأمل والتفكير كافية لإقناع المرء . وتدل النبوءة بوضوح أنه عندما يجيء « شيلوه » فإن الصولجان والمشرع سوف يختفيان من سبط يهودا . وهذا لا يتحقق إلا إذا كان شيلوه غريباً عن يهوذا . فإن كان شيلوه منحدراً من يهودا فكيف يمكن أن ينقطع هذان العنصران من تلك القبيلة أو السبط ؟ . . ولا يمكن أن يكون شيلوه منحدراً من أي سبط آخر ؛ لأن الصولجان والمشرع كانا لمصلحة إسرائيل كلها وليس لمصلحة سبط واحد . وهذه الملاحظة تنسف الادعاء المسيحي أيضاً ؛ لأن يسوع منحدر من يهوذا ، من ناحية أُمه (على الأقل) .

وكثيراً ما أَستغربُ تَصَرُّفَ هؤلاء اليهود المتجولين الضالين ، إذ مضت عليهم خمسة وعشرون قرناً وهم يتعلمون مائة لغة تخص الأقوام التي يخدمونها . ولما كان بنوإسماعيل والإسرائيليون من سلالة إبراهيم ، فماذا يهمّ بالنسبة لهم سواء كان "شيلوه" من يهوذا أو « زِبولون » ، من عيساو أو من « إساخر » ، من إسماعيل أو من إسحاق ، مادام سليلاً لأبيهم إبراهيم ؟ ؟

أطيعوا شريعة محمد ، وصيروا مسلمين ، وعندئذ بإمكانكم أن تذهبوا وتعيشوا في الأرض التي سكنها آباؤكم الأقدمون بسلام واطمئنان .



محمد وقسطنطين الكبير

إنها أروع بل ولعلها أوضح نبوءة عن الرسالة الإلهية لأعظم رجل وأعظم رسول من عند الله ، تجدها في الفصل السابع من سفر النبي دانيال ، وتستحق الدراسة الجادة والتمحيص المحايد ، في هذا الفصل تبرز أحداث عظيمة في تاريخ البشر ، تتابعت خلال فترة تزيد عن الألف عام ، وتتمثل هذه النبوءة في أربعة وحوش مخيفة هائلة جاءت في رؤيا دانيال ذات الدلالات التنبؤيّة . تقول هذه الرؤيا : « وكانت رياح أربعة من السماء تزأر بمواجهة البحر العظيم » وكان أولَ وحش يخرج من البحر العميق أسد مجنح . ثم يأتي الوحش الثاني على شكل دب يحمل ثلاثة أضلعٍ بين أسنانه ، وتلاه الوحش الرهيب الثالث على شكل نمر ، ذي أربعة أجنحة وأربعة رؤوس . أما الوحش الرابع فهو أكثر جسامة وشراسة ممن سبقه . إنه وحش ذو قرون عشرة تطل من رأسه ، وفي فمه أسنان حديدية ، ثم ينطلق قرن صغير إلى الأعلى من بين القرون الأخرى ، فتتحطم أمامه ثلاثة قرون . انظروا ، إن أعيُناً بشرية وفماً بشرياً تبرز على هذا القرن وتبدأ في التفوه بأشياء عظيمة موجهةٍ ضد الذات العليا . وفجأةً وفي وسط السماء ترى صورة الحـــي القيوم وسط ضوءٍ متلألىء يجلس على عرشه ذي اللهب النوراني ، كانت عجلات عرشه مصنوعة من النور الساطع . وبتدفق نهر من النور أمامه ، وتخدمه ملايين الكائنات السماوية ، وتقف بين يديه عشرات الآلاف منهم . وكأن محكمة القضاء منعقدة في جلسة غير عادية حيث تفتح الكتب . ثم يحترق جسم الوحش بالنار ، لكن قرن الكفر يظل حياً إلى أن يؤخذ « ابن الإنسان » محمولاً على السحاب ويَمْثُلَ أمام الحـــي السرمدي ، فيَتلقى منه القوة والشرف والمُلك إلى الأبد ، ويقترب نبي مبهور من أحد الواقفين متوسلاً إليه أن يفسر له هذه الرؤيا المدهشة ! ! .. ويفسرها الملاك الطيب بأسلوب يجعل جميع السر المغلف بلغة التشبيه والمجاز والصور واضحاً جليـــاً .

ولما كان دانيال أميراً ينحدر من أسرة مالكة ، فقد أخذ مع ثلاثة من الشبان اليهود الآخرين إلى قصر ملك بابل ، حيث درس جميع علوم الكلدانيين ، وعاش هناك حتى الفتح الفارسي وسقوط الامبراطورية البابلية ، وتنبأ في فترة حكم (نَبُوخَذْ – نَصَّر) كما تنبأ في فترة حكم داريوس . ولا ينسب نقّاد التوراة كتابة السفر بكامله لدانيال الذي عاش ومات قبل الفتح اليوناني على الأقل حيث يرد ذكرهم عنده تحت اسم « يافان أو أيونيا » . والفصول الثمانية الأولى مكتوبة بالكلدانية على ما أعتقد ، أما القسم الأخير فمدون بالعبرية . ومن أجل هدفنا المباشر فليس تاريخ الكتاب وتأليفه هو الذي يمثل السؤال الهام بقدر ما يمثله التحقق الفعلي للنبوءة الواردة في النسخة السبعينية من التوراة ، والتي دونت قبل حوالي ثلاثة قرون من العهد المسيحي .

ووفقاً للتفسير الذي قدمه الملاك ، فإن كل واحد من الوحوش الأربعة يمثل إمبراطورية ، ويمثل الوحش الذي على شكل نسر مجنح الإمبراطورية الكلدانية ، التي كانت قوية نشطة ، كالنسر المنقض على عدوه .

ويمثل الدب « ما داي بارس – أو الإمبراطورية المادية الفارسية » التي امتدت فتوحاتها حتى البحر الأدرياتيكي وأثيوبيا ، وهكذا تحمل بين أسنانها ضلعاً من جسم كل من القارات الثلاث في نصف الكرة الشرقي .

وأما الوحش الثالث ، فبناء على طبيعته النمرية الشرسة وذات القفزات السريعة ، فإنه يرمز إلى زحوف الإسكندر الأكبر الظافرة ، والذي انقسمت امبراطوريته بعد موته إلى أربع ممالك .

بيد أن الملاك الذي يفسر الرؤيا لا يتوقف ليشرح بالتفصيل عن الممالك الثلاث الأولى ، وإنما يفعل ذلك عندما يتحدث عن الوحش الرابع حيث يُعنى ببيان التفاصيل . وهنا يضخم مشهد الرؤيا ، فالوحش وحش ضخم وشيطان كبير . هذه هي الإمبراطورية الرومانية الهائلة . والقرون العشرة هي الأباطرة العشرة الأوائل الذين اضطهدوا شعوبهم . وما عليك إلا أن تقلب صفحات أي تاريخ للكنيسة خلال القرون

الثلاثة الأولى ، وحتى زمن ما يسمى باعتناق قسطنطين الكبير النصرانية ، فلن تعثر على شيء سوى أهوال الاضطهادات العشرة « الشهيرة » .

إلى هنا وجميع الوحوش الأربعة تمثل قوة الظلام أي مملكة الشيطان أو الوثنية .

وبهذه المناسبة دعوني أوجه انتباهكم إلى حقيقة ساطعة متجسدة في تلك المادة الهامة من دين الإسلام وهي : « الخيرو الشر من الله » ، ويجدر بنا أن نتذكر أن الفرس القدماء آمنوا « بثنائية الآلهة » أو بعبارة أخرى بمبدأ الخير والنور ، والمبدأ الآخر وهو مبدأ الشر والظلام ، وأن هذين الكائنين الخالدَين كانت بينهما عداوة أبدية .

وسنلاحظ أن من بين الأربعة وحوش ، مثلت الإمبراطورية الفارسية على شكل دب ، وهو أقل شراسة ونهماً للحـوم من الوحوش الثلاثة الأخرى . وأكثر من ذلك فإنه بسبب قدرته على المشي على رجليه الخلفيتين يشبه الإنسان – على الأقـل إذا نظرنا إليه من مسافة بعيدة .

وفي كل الأدبيات اللاهوتية والدينية المسيحية التي قرأتها ، لم أعثر على قول واحد يشبه هذا البند من بنود الدين الإسلامي ، وهو أن الله هو الخالق الحقيقي للخيرو الشر . وهذه الفكرة في الدين الإسلامي معاكسة تماماً للدين المسيحي ، وتعتبر أحد مصادر الكراهية للدين الإسلامي .

ومع ذلك فهذه النظرية أو العقيدة نفسها قد أعلنها الله بجلاء لكورش الذي يقول عنه إنه « مسيحه » ويريد من كور أن يؤمن بأنه لا يوجد إلـٰه معه . فيعلن :

« أنا مكون النور وخالق الظلام وصانع السلام وخالق البشر ، أنا السيد أو الرب الذي يضع كل هذه » (سفر إشعيا إصحاح ٤٥ الجملة ١ – ٧) » .

أما كون الله « خالق الشر والخير » فليس ذلك ضد فكرة أن الله خير ، لأن مجرد إنكار ذلك يتعارض مع وحدانيته المطلقة سبحانه وتعالى . يضاف إلى ذلك أن ما نسميه أو نتصوره بأنه شر لا يؤثر في المخلوقات ، وهو موجود لتطوير وتحسين المخلوقات ، وليس له أي تأثير على الذات الإلهيـــة .

وبعد هذا الاستطراد ، أسارع إلى القول بأن جميع هذه الحيوانات المتوحشة كانت أعداء « لشعب الله المقدس » وهو ما كانت تُدعى به إسرائيل القديمة وأتباع الأناجيل الأوائل ؛ لأنهم وحدهم الذين يدركون المعرفة الحقيقية والكتب المقدسة ووحي الله . وهذه الحيوانات المتوحشة اضطهدت شعب الله وذبحته . ولكن طبيعة القرن الصغير وطابعه ، وهو الذي برز في رأس الوحش الرابع ، كانت تختلف عن طبيعة الوحوش الأخرى بحيث أن الله بنفسه عمد إلى النزول وبناء عرشه في السماء ليحكم الحيوان الرابع ويندد به ثم يدعو إلى حضرته « ابن الإنسان Barnasha » ويجعله سلطان البشر ، لأن كلمات « شولطانا ، ويقار ، وملكوتا » التي تعني على التوالي « الامبراطورية ، والشرف ، والمملكة » لجميع الشعوب والأمم ، قد مُنِحَت له (جملة / ١٤) « ولشعب قديسي الذات العليا » (جملة ٢٧) .

وسنلاحظ أنه بما أن « ابن الإنسان » هو إنسان أكثر نبلاً وأسمى من الوحوش ، كذلك فإن الدين الذي كان يحمله ويدعو إليه أكثر قداسة بكثير من قداسة القرن الصغير .

والآن لنفحص ونعرف من هو القرن الصغير ، بعد أن تأكدنا بصورة جازمة من هوية هذا « الملك الحادي عشر » فإنه يمكن معرفة هوية « ابن الإنسان » بحد ذاتها ، فالقرن الصغير يبرز بعد حدوث الاضطهادات العشرة تحت حكم أباطرة السلطة الرومانية ، إذ كانت الامبراطورية تتلوى ألماً تحت حكم أربعة متنافسين ، وكان قسطنطين واحداً منهم . وكانوا كلهم يتصارعون من أجل اللباس الأرجواني (الإمبراطوري) ، ومات الثلاثة الآخرون في المعركة ، وبقي قسطنطين وحده حاكماً أعلى للإمبراطورية الضخمة .

وحاول الشارحون أو المعلقون النصارى الأوائل عبثاً أن يصوروا هذا القرن الصغير البشع على أنه « الدجال » ، وعلى أنه « بابا روما » عند البروستانت ، وعلى أنه « مؤسس الإسلام » (حاشا لله ؟ ؟) غير أن النقاد التوراتيين المتأخرين محتارون في حل مشكلة الوحش الرابع فيحاولون أن يصوروه على أنه الإمبراطورية اليونانية ، وعلى أن القرن الصغير هو « أنطيوخوس » . وبعض النقاد مثل « كاربنتر » على سبيل المثال يعتبرون أن الدولة المادية الفارسية مملكتان منفصلتان . لكن هذه

الإمبراطورية لم تكن أكثر مما كانت إمبراطورية « النمسا والمجر » التي جاءت فيما بعد . وإن الاستكشافات التي قامت بها الإرسالية العلمية برئاسة العالم الفرنسي. « مورغان » في شوشان أو سوسة (في إيران) وغيرها لم تترك أي شك حول هذه النقطة ؛ ولذلك لا يمكن أن يكون الحيوان الرابع إلا العالم الروماني القديم .

وللبرهنة على أن القرن الصغير لم يكن سوى « قسطنطين الكبير » يمكن باطمئنان طرح الحجج الأربع التالية :

(أ) لقد تغلب على « مكسميان » والمنافسين الآخرين ، ولبس الحلة الأرجوانية ، ووضع حداً لاضطهاد النصرانية . ولعل كتاب « جيبون » وهو تاريخ اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، أفضل تاريخ يمكن أن يعلمنا عن هذه الأوقات . ولن يكون باستطاعتك اختراع أربعة متنافسين بعد الاضطهادات الأربعة للكنيسة ، إلا قسطنطين وأعداءه الذين تساقطوا أمامه كما تساقطت القرون الثلاثة أمام القرن الصغير .

(ب) إنّ جميع الوحوش الأربعة مُثّلت في الرؤيا على أنها وحوش غير عاقلة ، لكن القرن الصغير كان له فم بشري وعينان ، وهو بعبارة أُخرى وصف لوحش مخيف يملك المنطق والقدرة على الكلام . وقد أعلن النصرانية كدين حقيقي ، وترك روما للبابا ، وجعل من بيزنطه مركزاً لإمبراطورية سماها القسطنطينية ، وتظاهر باعتناق المسيحية لكنه لم يتعمد إلا قبيل موته ، بل إن هذا أمر مختلف عليه ، كما أن الأسطورة القائلة إن تحوله إلى النصرانية كان بسبب رؤياه للصليب الأحمر في السماء ، ثبت منذ مدة أنها قطعة أُخرى من الزيف ، شأنها في ذلك شأن الرواية التي أُدخلت على كتاب يوسيفوس الذي عنوانه "Antiquities" عن المسيح ، وأن عداوة الحيوانات للمؤمنين بالله كانت وحشية ، لكن عداوة القرن العقلاني عداوة شيطانية حاقدة . وكانت هذه العداوة ضارة بالدين أبلغ الضرر ، لأنها كانت موجهة لإدخال التحريف على الحقيقة والإيمان . وكانت جميع الهجمات السابقة للإمبراطوريات الأربع هجمات إلحادية ، فقد اضطهدوا المؤمنين وظلموهم لكنهم لم يستطيعوا تحريف الحقيقة والإيمان . وكان قسطنطين هذا هو الذي دخل إلى حظيرة المسيح على صورة

مؤمن ، وفي ثياب حمل ، لكنه في دخيلة نفسه لم يكن مؤمناً قــط . أما مقدار الأذى والضرر الذي ألحقتـه عداوته فيظهر مما يـلي :

(ج) يتحـدث الإمبراطور – القرن ، عن أشياء كبيرة – أو « كلمات عظام » (روربان بالكلدانية) ضد الذات العليا . وإن التفوه بكلام يفوح منه الكفر عن الله وربط اسمه مع المخلوقات الأخرى وتسميته بأسماء وصفات سخيفة « كالوالد » ، و « المولود » و « الميـلاد » و « الانبثاق » "Procession" (لصيغـة المخاطب والغائب) ، والوحدانية ضمن التثليث والتجسيد ، هو إنكار لوحدانيته .

ومنذ أن تجـلى الله لإبراهيم في أور الكلدانية حتى إعـلان العقيدة "Creed" ، وتنفيذ قرارات مجمع « نيقية » بمرسوم إمبراطوري من قسطنطين رغم الذعر والاحتجاج من ثلاثة أرباع المؤمنين المخلصين ، وذلك سنة ٣٢٥ م ، منذ ذلك الحين لم يحدث قط أن حصل تحـدٍّ لوحدانية الله بصورة رسمية واضحة من قبل أُولئك الذين يتظاهرون بأنهم عبـاده وأنصاره مثل قسطنطين وجماعته من الكنسيين غير المؤمنين . وفي الحلقـة الأولى من هذه السلسلة أوضحت خطأ الكنائس بالنسبة لله ولصفاته . ولا أرى داعياً لأن أخوض في هذا الموضوع غير المرغوب ثانية لأنه يسبب لي الكثير من الألم والحزن عندما أرى نبياً مكرماً ، وأرى روح قدس وكلاهما من مخلوقات الله ، يجعلهما شريكين لله ، أُولئك الذين كان أحرى بهم أن يكونوا أكثر معرفة وفهماً .

ولو جعل « براهما أو أوزيرس أو جوبتر أو فِسْتا » شريكاً لله لاعتبرنا هذا مجرد عقيدة ملحدة ، ولكن عندما نرى اليسوع نبي الناصرة ، ومليوناً من الأرواح المقدسة في خدمة الحـي السرمدي يُرفعان إلى مرتبة الألوهية ، لا نجد ما نصف به أُولئك الذين يعتقدون هذه العقيدة سوى الكلمة التي اضطر المسلمون دائماً لاستخدامها في مثل هذا المقـام وهي (غاوون – بالتركية ، ومعناها : كافر) .

والآن ، لـكون هذا القرن البغيض الذي يجدّف على الله بكلام عظيم ، يرمز إلى ملك ، حسبما أوحى الملاك إلى دانيال ، ولكون هذا الملك هو الحادي عشر بين القياصرة الذين حكموا روما واضطهدوا عبـاد الله ، فإنه لا يمكن أن يكون سوى قسطنطين ، لأن مرسومه هو الذي أعلن الاعتقاد بالأقانيم الثلاثة في شخص الإلـه ،

وهي عقيدة يقوم العهد القديم دليلاً حياً على التنديد بها لأنها كفر يرفضه المسلمون واليهود . وإذا كان المشار إليه غير قسطنطين ، فالسؤال هو : من يكون إذن ؟ لقــد سبق أن جاء وذهب ، وهو ليس بالمزيف أو الدجال لكي يظهر ثانية فنعجز عن معرفته ووصفه . وإذا لم نعترف أن القرن الذي نحن بصدده سبق أن ظهر ، فكيف يسعنا تفسير الوحوش الأربعة التي يتمثل أولها دون شك في الإمبراطورية الكلدانية ، وثانيها في الإمبراطورية المادية الفارسية ، وهكذا دواليك ؟ وإذا لم يُمَثِّلْ الوحش الرابع الإمبراطورية الرومانية ، فكيف نستطيع تفسير الثالث برؤوسه الأربعة على أنه إمبراطورية الإسكندر التي انقسمت إلى أربع ممالك بعد وفاته ؟ وهل هناك أية دولة أو قوة خلفت الإمبراطورية اليونانية قبل الإمبراطورية الرومانية ولها عشرة حكام يضطهدون المؤمنين بالله ؟ إن السفسطة والخداع لا جدوى منهما ، فالقرن الصغير هو قسطنطين حتماً حتى ولو أنكرنا نبوءة دانيال . ولا يهمنا إن كان كاتب الفصل السابع من سفر دانيال نبياً أو راهباً أو مشعوذاً ، فثمة شيء واحد مؤكد وهو أن تنبؤاته وأوصافه للحوادث قبل أربعة وعشرين قرناً ، ثبتت دقتها وصحتها ، وتحققت في شخص قسطنطين الكبير ذلك الشخص الذي رفضت كنيسة روما بحق أن تسميه قديساً كما فعلت الكنيسة اليونانية .

(د) ولم يكتف القرن الصغير ، الذي تحول إلى شيء أو رؤيا أكثر هولاً من البقية بالتجديف على الله تعالى ، بل إنه أيضاً شن حرباً ضد قديسي أو أولياء الله وهزمهم . (جملة ٢٥) وفي نظر النبي اليهودي ، فإن الشعب الذي آمن بالله كان شعباً متميزاً وفاضلاً . والآن لا جدال في صحة القول بأن قسطنطين اضطهد أُولئك النصارى الذين اعتقدوا كاليهود بوحدانية الله المطلقة وأعلنوا بشجاعة أن التثليث فكرة كاذبة وخاطئة بالنسبة للعقيدة . وقد دعــي أكثر من ألف من رجال الكنيسة إلى نيقية وهي (أزميد الحديثة) ووافــق (٣١٨) منهم على قرارات المجلس ، وهؤلاء بدورهم كانوا يشكلون ثلاثة أحزاب متعارضة في تعابيرها الغامضة والملحدة مثل (هوموزيون homoousion أو هوموسيون ,homousion) واتحاد الجوهريين " Consubstantial " وعبارات أُخرى غريبة كل الغــرابة على أنبيــاء إسرائيل ولكنها لا تليــق إلا « بالقرن المتكلم » .

أما النصارى الذين عانوا من الاضطهادات والتقتيل تحت حكم الأباطرة الرومان الملحدين ، لأنهم آمنو ابالله الواحد وبعبده عيسى ، فقد حكم عليهم الآن بموجب المرسوم الإمبراطوري الذي أصدره قسطنطين « المسيحي » بعذاب أشد لأنهم رفضوا عبادة المسيح عبد الله ، واعتباره متّحداً في الجوهر مع ربه وخالقه ، ومساوياً له ؟ ؟ وأما الكبار وكهنة المذهب الأريوسي « القشيشي والمشامشاني » كما كان يسميهم اليهود والنصارى الأوائل ، فقد أبعدوا عن مراكزهم أو نفوا وصودرت كتبهم الدينية واضطهدت كنائسهم وأُعطيت للأساقفة والقساوسة الثالوثيين . وسوف يعطينا أي مؤلف تاريخي عن الكنيسة النصرانية الأولى معلومات وافية تتعلق بالخدمات التي قدمها قسطنطين لقضية المذهب التثليثي ، والظلم الذي لحـق بمن عارضوه ، فقد وُضِعت فرق الجيش عديمة الرحمة في كل ولاية تحت تصرف السلطات الكنسية . ويجسد قسطنطين نظام حكم إرهابي ومحارب عنيد ضد الموحدين ، والذي دام في الشرق ثلاثة قرون ونصف قرن عندما أسس المسلمون دعائم دين الله ، وتسلموا القوة والسلطة فوق الأرض التي داستها ودمرتها الوحوش الأربعة .

(هـ) ويتهم « القرن المتكلم » بأنه فكر في تغيير « القانون والزمان » وهذه تهمة جـد خطيرة ضد القرن وعباراتها السافرة « أو كلماتها العظيمة في حق الله » قد تؤثر أو لا تؤثر في الناس الآخرين ، أما تغيير قانون الله ، والأيام المقدسة أو الأعياد المقررة ، فإن ذلك بالطبع سوف يقلب الدين رأساً على عقب . إن مرسوم قسطنطين قد خرق وألغى بصورة مباشرة الوصيّتين الأوليين من شريعة موسى حول وحدانية الله « لن يكون لك إله آخر معي » وخالف المنـع المشدد لصناعة الصور والتماثيل من أجل العبادة ، وإن الإعلان عن وجود ثلاثة في شخص الله والادّعاء بأن الله تعالى مولود من مريم العذراء ، أكبر إهانة لشريعة الله وأشد الزندقات كفراً . وإن صناعة التماثيل الذهبية والخشبية أمر مكروه بدرجة قاطعة ، ولكن أن تجعل من المخلوق الفاني موضوعاً للعبادة وأن تعلنه إلهـاً ، بل وتعبد الخبز والنبيذ في القـربان المقدس على أنه « جسد الله ودمه » إن هذا لكفر بَواح .

إذن بالنسبة لكل يهودي مستقيم ، ولنبي مثل « دانيال » الذي كان منذ شبابه متقيداً جداً بالشريعة الموسوية ، ما الذي يمكن أن يكون أكثر مدعاة للاشمئزاز من استبدال عيـد الفصح اليهودي Passover ، والتضحية بـ « حَمَلِ الرَّب » على خشبـة

الصليب ، وعلى آلاف المذابح كل يوم ؟ إن إلغاء السبت كان خرقاً صريحا للوصية الرابعة من الوصايا العشر ، كما أن إدخال يوم الأحد كان تعسفياً وعدائياً معاً .
صحيح أن القرآن ألغى يوم السبت ، ليس لأن يوم الجمعة كان أكثر قداسة(١) ، ولكن لأن اليهود أساءوا استعماله بإعلانهم أن الله استراح في اليوم السابع بعد تعب دام ستة أيام ، كأن الله يتعب كما يتعب البشر ، وكان محمد مستعداً لنبــذ أي يوم أو أي شيء مهما كان مقدساً إذا صار هذا الشيء معبوداً يقصد به توجيه إساءة أو أذى لعظمة الله ومجـــده . ولكن إلغاء السبت كان بموجب مرسوم من قسطنطين من أجل اعتماد يوم الأحد الذي يزعم أن عيسى خرج فيه من القبر . وكان عيسى نفسه يتقيد بدقة بيوم السبت ، ووبخ الزعماء اليهود لأنهم اعترضوا على تقديم الصدقات في ذلك اليوم .

(و) وأُبيح للقرن أن يعلن حرباً ضد أولياء الله لفترة ثلاثة قرون ونصف ، وأدت هذه إلى إضعافهم وإصابتهم بالوهن والفتور ، ولكن لم تستطع القضاء عليهم ، أو استئصال شأفتهم من الجذور .

وكان (الآريون – Arians) الذين آمنــوا بوحدانية الله ، يدافعون عن أنفسهم ويقاتلون في سبيل عقيدتهم ، كلما لاحت لهم الفرصة ، وخاصة في عهد قسطنطيوس (ابن قسطنطين) وفي عهد (يوليان) وغيرهما ، ممن كانوا أكثر تسامحاً معهم .

أمــا النقطة الهــامة التالية ، في تلك الرؤيا العجيبة ، فهي التعرف على شخصية « ابن الإنسان » الذي قضى على القــرن .

وسنحاول أن نتناول ذلك في الحلقــة التاليـــــة .

---

(١) هــذا خطأ – لأن يوم الجمعة هو أقدس أيام الأسبوع ، فقــد ورد في الحديث الصحيح أن يوم الجمعة خير يوم طلعت فيه الشمس ، فيه خلق آدم ، وفيه أُدخل الجنة ، وفيه أُخرج منها ، وفيه تقوم الساعة . وفيه ساعة لا يسأل العبد ربه فيها شيئاً ، إلا آتاه الله إياه ، ما لم يسأل حراماً .
وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أُوتوا الكتاب من قبلنا ، وأُوتيناه من بعدهم . ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم ، فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع ، اليهود غداً ، والنصارى بعد غــد » . (متفق عليه) . [المعلق]

محمّد ابن الإنسان

تتبعنا في البحث السابق الرؤيا الرائعة للنبي دانيال (**دانيال ٧**) وعلقنا عليها ، ورأينا كيف أن الوحوش الأربعة التي كانت تمثل الممالك الأربع المتتالية ، إنما كانت تمثل قوى الظلام ، حيث اضطهدت اليهود وكنيسة المسيح الأولى التي تكونت من المؤمنين الصادقين الذين عبدوا الإلـه الأحد . كما لاحظنا أن هذه القوى كانت وثنية ووصفت مجازاً بالوحوش الشرسة . ثم رأينا كذلك أن « القرن الحادي عشر » الذي كانت له عيون وفم ، وتفوه بألفاظ نابية تمس « الإلـه الأعلى » ، وحارب وهزم القديسين ، وغيرّ أوقات وقوانين الله ، لابد أن يكون هو قسطنطين الأكبر ، الذي أعلن في عام ٣٢٥ بعد الميلاد مرسومه الإمبراطوري منادياً بالعقيدة وبالقرارات الصادرة عن المجمع المسكوني العام .

ولنتابع في هذه الحلقة أبحاثنا بصبر وأناة فيما يتعلق بالـ « بارناشا » المجيد أو « ابن الإنسان » الذي تقدم إلى العَلِيِّ الأعلى من فوق السحاب ، والذي أُعطي شرف السلطان أو المجد أو الإمبراطورية ، أو المملكة الخالدة ، والذي كُلّفَ بتحطيم وإبادة ذلك القرن الرهيب .

والآن دعونا نسير قدماً لكي نبرهن على هوية هذا « الـ ــ برناشا » .

وقبل أن نكتشف من يكون « ابن الإنسان » هذا ، يصبح من الضروري أن نأخذ بعين الاعتبار النقاط والملاحظات التالية :

(أ) عندما يتنبأ نبي يهودي بأن « جميع الشعوب وأُمم الأرض سوف تقوم على خدمته » (أي الـ برناشا) أو « شعوب القديسين التابعين للعليّ الأعلى » ، لابد لنا أن نفهم بأن ما يعنيه بذلك هي الأمم التي جاء ذكرها في (سفر التكوين ١٥ / ١٨ — ٢١) وليس أُمم الإنجليز أو الإفرنسيين أو الصينيين .

(ب) أما عبارة « شعوب القديسيين التابعين للعليّ الأعلى « فهي مفهومة وتعني أولاً اليهود ثم المسيحيين الذين اعترفوا بوحدانية الإلـه المطلقة ، والذين حاربوا وقاسوا من أجل ذلك الاعتراف حتى ظهور الـ « بارناشا » وما تلاه من تحطيم القرن .

(ج) وبعد تحطيم القرن ، فإن الشعوب والأمم التي يجب عليها أن تخدم قديسي الإلـه هم من الكلدانيين ، والفرس القدماء ، واليونانيين ، والرومان — وهم الأمم الأربع المتمثلة بالوحوش الأربعة والتي ظهرت غلبتها ، وغزَتْ الأرض المقدسة .

وامتداداً ، من البحر الأدرياتيكي إلى أسوار الصين ،كان الناس جميعهم أحد فريقين : إمّا مسلمين لهم السيادة وتقدم لهم مراسم الطاعة ، وإما كفاراً يقومون على خدمة المسلمين الذين كانوا هم وحدهم أصحاب الإيمـان الحق بالإله الواحد .

(د) وما أجدر أن يدرك الإنسان تلك الحقيقة الهـامة وهي أن الله سبحانه غالباً ما يسمح لأعداء دينه الصحيح لأن يُخضِعوا ويضطهدوا عباده توصّلاً لتحقيق أمرين : أولهما : أنه يريد أن يعاقب شعبه لفتورهم وتقاعسهم عن دعوة الحـق ولارتكابهم الخطايا . وثانيهما : أنه يريد أن يعزز الإيمـان والصبر فيهم ، ويردهم إلى شريعته ودينه ، وهكذا فإنه بذلك يمد الكافرين في كفرهم وطغيانهم وجرائمهم حتى يطفح الكيـل ويبلغ السيل الزبى . والله بعـد ذلك ، وفي الوقت المناسب ، يتدخل تأييداً للمؤمنين ، عندما يتعرض كيانهم بالذات إلى حافة الهـاوية . فمثلاً ، لقد واجَهَ المسلمون أعنف وأحرج وقت في حياتهم ، عندما تجمعت قوى الحلفاء في القسطنطينية خلال تلك السنوات المريعة من أيام الهدنة . وقامت الاستعدادات العظيمة من قبل اليونان وأصدقائهم لاسترجاع المسجد الكبير « أيا صوفيا » ، فقد ذهب « بطريرك القسطنطينية اليوناني » إلى لندن يحمل معه الرداء الكهنوني البطريركي القديم الثمين المرصع بالحجارة الكريمة واللآلئ ، ليقدمه إلى رئيس أساقفة كانتربوري ، الذي كان يُنَظِّمُ بعنف وحماس شديدين حملة إعادة القسطنطينية بما فيها ذلك الصرح العظيم « سانت صوفيا » إلى اليونانيين . وفي ليلة المعراج ، (ذكرى رحـلة النبي إلى السماء) عجَّ ذلك البناء المقدس بحشدٍ غفير من المؤمنين المتضرعين الذين أمضوا ليلتهم حتى الفجر يبتهلون إلى الله القدير بمنتهى الخشوع والضراعة ، داعين الله أن يحفظ تركيا ، وخصوصاً البيت المقدس ، من أُولئك الذين سيملأونه بالتماثيل البشعة ، والصور الممقوتة ، التي كانت فيه من قبل .

أما ما يتعلق بذلك الرداء البطريركي المرصع فقد كتبت مقالاً في صحيفة « تركية » تدعى « أقشام » بيّنتُ فيه وجود ذلك الانقسام العميق بين العقيدة اليونانية الأرثوذكسية وبين الكنيسة الإنجليكانية البروتستانتية ، وقد ذكرت في المقال أن ذلك الرداء الكهنوتي المرصع لم يُقصد به تقليدُ تلك الحلية أو ذلك الطيلسان البابوي أو الاعتراف بالنظام أو بالكنيسة الأنجليكانية ، لأن إعادة الوحدة بين الكنيستين لا يمكن أن يتحقق أبداً ، إلا إذا تنازل أحد الفريقين للآخر وأعلن عن ارتداده عن معتقداته الدينية ، وشجبه لبعض الأمور المتعلقة بالعقيدة ، فبذلك يكون خاطئاً ومنشقاً عن دينه . وقد ذكرتُ أيضاً أن ذلك الرداء المرصع لم يكن إلا رشـــوة دبلوماسية تُقدم بالنيابة عن الشعب اليوناني وكنيسته . وقد أنْهيتُ مقالي بذكر هذه العبارة:« وكل ما تقدم يعتمد على المعجزة والموافقة التي تنتج عن تقديم هذا « البقشيش » المتمثل بالطيلسان البابوي وما يتمخض عنه من أفعال ! ! . . . »

أما النتيجة فهي أشهر من أن تُعرَف ولا سبيل إلى إعادة ذكرها هنا . ويكفي أن نقول إن البطريرك اليوناني مات في بريطانيا ، وإن القدرة الإلهية التي بعثت بال « بارناشا » لكي يسحق القرن الرهيب ويطرد جيوش روما من الشرق ، قد أبرزت مصطفى كمال الذي أنقذ بلاده وأعاد إليها مجـــد الإسلام(١) .

(١) عجيب أن يقول المؤلف عن كمال أتاتورك هذا الكلام . . وهو الذي عُرف بحـــربه ضد الإسلام وأهـــله .

فقـــد ألغى الخـــلافة . وثار على كل مظهر للإسلام في بلده . حتى الحروف العربية . منع كتابة اللغـــة التركية بها . وحولهـــا إلى الحروف اللاتينية .

وبلغ حـــد التطرف في تغريب تركيا وعلمنتها وربطها بأوربا . وسلخها عن الإسلام .

وقـــد قال عنـــه صديقه « عرفان أوركا » الذي كان معجباً به : « إنه كان يتسلى بالخمر ويشغل نفسه بها . أما الإيمـــان بالله واليوم الآخر . فإنه كان لا يؤمن بهما » . ولقد كان متأثراً بأفكار « ضياء كولب ألب » الذي صمم على سنّ قانون لتحريم الدين في تركيا ولو اضطر إلى استخدام القوة أو الخداع والتضليل .

أفبعد هذا يقال بأن مصطفى كمال أنقذ بلاده وأعاد إليها مجد الإسلام ؟ ؟

[المعلق]

(هـ) وجدير بالملاحظة أن اليهود كانوا شعب الله المختار(١) ، حتى مجيء يسوع المسيح . وفي نظر المسلمين ، لا اليهود ولا النصارى يحق لهم أن يَدَّعوا اللقب المذكور آنفاً بأنهم « شعوب القديسيين التابعين للعليّ الأعلى » لأن اليهود رفضوا يسوع كليّةً ، والنصارى أهانوه بتحدياتهم . وفوق هذا كله ، فإن الشعبين لا يستحقان ذلك اللقب لأنهما رفضا الاعتراف بآخر الأنبياء وهو الذي كان خاتمة تلك القائمة منهم .

ونسير الآن قُدُماً لنثبت أن الـ « برناشا » — وهو ابن الإنسان والذي « أُرسل وسيبقى إلى آخر الدهر مخولاً بالسلطة لسحق ذلك الوحش » ، لم يكن غير « محمد » والذي يعني اسمه حرفياً « المحمود ، والمشهور » . ومهما يبذلوا من محاولة لابتداع شخصية أُخرى لكي يحرموا رسول الله المَهيب من ذلك المجد الفريد الذي وهبه الله إياه أمام المحكمة الإلهية ، فإنهم يجعلون من أنفسهم سخريةً وهُزؤاً ، وذلك للأسباب التالية :

١ — نحن نعلم بأنه لا اليهود ولا النصارى يحملون اسماً معيناً لديانتهم أو لنظامهم . أي أنه لا اليهود ولا النصارى يتوافر لديهم اسم معين لعقيدتهم أو مذهبهم ولا لأشكال ديانتهم وعبادتهم ؛ ذلك لأن « اليهودية » و « المسيحية » ليستا متعلقتين بالكتاب المقدس ولم يفوضهما الله بذلك ولا خوّلهما مؤسسو هاتين الديانتين . وبالحقيقة فإن الديانة إن كانت صحيحة ، لا يمكن تسميتها تسمية صحيحة باسم المؤسس الثاني ؛ لأن الواضع الحقيقي والمؤسس للديانة الصحيحة هو الله وليس نبيّه . والآن فإن الاسم الصحيح للشرائع والتعاليم وأشكال العبادة وأنظمتها العملية التي أوحى الله بها إلى محمد تدعى « الإسلام » ويعني « صنع السلام » مع نفسه ومع الناس من حوله . إن « المحمدية » ليست اللقب الصحيح للإسلام ، لأن « محمداً » مثل إبراهيم وجميع الأنبياء الآخرين ، كان نفسه مسلماً وليس « محمدياً » . واليهودية تعني ديانة يهودا ، ولكن ماذا كان « يهودا » نفسه ؟ بالحقيقة فإنه لم يكن « يهودياً » ، وبنفس الطريقة ، هل كان المسيح مسيحياً أو « جزويتياً » ؟ طبعاً ، لم يكن هذا ولا ذاك ، فإذاً ، ماذا كان الاسم المميز لكل من الديانتين ؟ والجواب لم يكن لأي منهما اسم مطلقاً . . . فإذن يتبقى لدينا الكلمة اللاتينية غير الفصيحة « الديانة » " Religion " ومعناها

(١) سبق التعليق على هذه الفكرة صفحة ٥٩ . [المعلق]

« الخوف من الآلهـــة » ، وقد أصبحت هذه الكلمة الآن تطلق على « أي شكل من أشكال الدين والعبادة » ، والآن ما هي الكلمة المماثلة لكلمة « ديانة » في الكتاب المقدس ؟ . وما هو التعبير الذي استعمله موسى أو عيسى لينقل للناس معنى « الديانة »؟ طبعاً هو « الإنجيل » فواضعوه لم يستعملوا هذه الكلمة مطلقاً .

والآن ، التعبير المقدس المستعمل في رؤيا دانيال هو نفسه الذي ينطبق بتكرار على ما في القرآن عن الإسلام أي « الدين ».(وفي القرآن نفسه كلمة « الدين ») ومن معانيها : « يوم الحساب أو الدينونة » أي حين يجلس الإلــه على كرسيّ العـــرش للحساب والجزاء . ولنقرأ الآن وصف « المحكمة الإلهية » يوم الدينونة : « ووضعت المنابر ، وفتحت الكتب ، وأُقيمت المحاكمة يوم الدينونة »(١) .

ويفهم من الكتب أن « اللوح المحفوظ » هو الذي نقشت عليه نواميس الله وئنزّل منه القرآن بالوحي إلى محمد بواسطة الملاك جبرائيل ، وكذلك كتب الأعمال الجزاء لكل إنسان . وبناء على نواميس الله وشرائعه المثبتة في اللوح المحفوظ ، وبسبب الأعمال الشريرة التي اقترفها ذلك القرن ، عقدت الدينونة الكبرى وحكم القاضي بإعدامه ، وعين « محمداً » ليكون هو القـــائد أو السيد ، الذي يحطم ذلك الوحش . وإنّ لغـــة دانيال قريبة جدًّا من القرآن . وإن دين الإسلام لا يُطلق عليه إلا « دين الإسلام » وبحسب نواميس وشرائع هذه « الدنيا » قـــام الـ « برناشا » بتحطيم ديانة الشيطان ومُلازِمهِ القرن . وعليه ، فلا يمكن أن يكون أي رجل غير « محمد » هو المقصود بظهور « ابن الإنسان » في حضرة الله العـــليّ الأعلى . إن الإسلام على الحقيقة هو سيادة « السلام » ذلك أنه يملك كتاب الشريعة الصادقة ، الذي أقـــام به

---

(١) لمـــا كان حديث الكاتب هنا عن القرآن ، فإن الآية التالية تتضمن المعنى الذي يريده المؤلف . وهي قوله تعالى : (وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا . وَوُضِعَ الكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِـــيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ . وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ) . سورة الزمر الآيات : ٦٩ — ٧٠ .

[المعلق]

العدل وقهر الظلم ، وأظهر الصدق ، وأدان البهتان والكذب ، وفوق ذلك كله جاء بوحدانية الله ، ووعد بالثواب الخائد على الأعمال الصالحة ، وتوعّد بالعذاب المقيم لمن يعملون السيئات ، كل ذلك منصوص عليه ومبيّن بوضوح . والملاحظ في اللغة الإنجليزية أنه يطلق على « الماجستريت » « قاضي الصلح » أو السلام .

والآن أصبح هذا يعتبر تقليداً « للقاضي المسلم » الذي يسوي الخصومات ويتخذ القرار في القضية ، بمعاقبة المذنب والتعويض على البريء ، وبهذه الطريقة يتحقق السلام . هذا هو الإسلام وهذه شريعة القرآن . وأين من ذلك النصرانية وأناجيلها التي تمنع منعاً باتاً أي مسيحي أن يلجأ إلى القضاء مهما كان المسيحي بريئاً أو مظلوماً. متّى (٢٥/٥ ، ٢٦ ، ٣٨ ، ٤٨) .

٢ — إذن فإن « ابن الإنسان » أو « برناشا » هو حتماً محمد ، لأنه جاء بعد قسطنطين وليس قبله كالمسيح والأنبياء الآخرين ، وإن نظام معتنقي عقيدة « التالوث الأقدس » في الشرق ، أتباع القرن الرهيب الذي عرفناه يقيناً أنه (قسطنطين الأكبر) ، قد أُتيح لهم أن يحاربوا ضد الموحدين ، ويتغلبوا عليهم ويقهروهم ، لمدة وصفت حسب التعبير التنبؤي بأنها (الزمن أو العصر ، أو العصور والأزمان ونصف الزمن) وذلك يعني ثلاثة قرون ونصف القرن ، وفي نهاية ذلك الوقت تُستأصل وتُمحى تماماً جميع القوى الوثنية من جهة ، وممالك الشرك بالله والطغيان ، من جهة ثانية . ولا يمكن أن توجد سخافة أشد من الإصرار على أن (يهودا — المكابي) كان هو الـ « بارناشا » محمولاً على السحاب ومعه القرن الرهيب الأنطاكي . ويُزْعَمُ على ما أذكر بأن الأنطاكي بعد أن انتهك قداسة الهيكل في القدس ، عاش فقط ثلاث سنوات ونصف السّنة ، أو ثلاثة أيام ونصف اليوم ، ثم هلَكَ بعدها . ونحن نعلم :

أولاً : أن أنطيوخوس هو خلف الإسكندر الكبير ملك سوريا ، وبناء على ذلك فقط ، كان يبدو حسب الرؤيا أحد الرؤوس الأربعة للنمر المجنح ، وليس القرن الرهيب الحادي عشر للوحش الرابع . ففي الفصل الثامن من كتاب دانيال ، فإن الكبش والتيس (ذكر الماعز) مثّلهما أحدُ القديسين بأنهما عبارة عن إمبراطوريتي الفرس والإغريق على التوالي . وقد تبين بوضوح بأن الامبراطورية الإغريقية خلفت مباشرةً الفرس ، وأنها انقسمت إلى أربع ممالك ، كما جاء بالرؤيا الأولى .

وثانياً : القرن الرهيب مع الخطاب ، يشيران إلى أن الشخص الذي كان يُجدِّف على الله ثم غيَّر الشريعة والأيام المقدسة ، لا يمكن أن يكون وثنياً ، ولكنه كان أحد الذين كانوا يعرفون الله ، ولكنه أشرك به شخصين آخرين ، عرفهما جيداً وهما اللذان أفسدا الإيمـــان . إن أنطيوخوس لم يفسد العقيدة اليهودية بإقامة أو بالدعوة إلى التالوث الأقدس أو تعدد الآلهة ، ولم يغير شريعة موسى ولا أيام الأعياد .

ثالثاً : وإنه لمن الحماقة والسخف أن توجَّه مثل هذه الأهمية والعناية إلى أحداث تافهة لا خطر لها ، جرت بين ملك صغير في سوريا وبين رئيس يهودي ضئيل الشأن ، وذلك بالمقارنة بين الأخير وبين ذلك الرجل العظيم الذي رحبت به وأجلَّته ملايين الملائكة في حضرة الله العلي القدير . وفوق ذلك فإن الرؤيا النبوية تصف الـ « بارناشا » بأنه أعظم الرجال وأنبلهم على الإطلاق ، وأنه ما من إنسان قط ــ حسبما جاء في العهد القديم ــ يستحق هذا الشرف والتعظيم سوى « محمد ﷺ » .

٣ ــ وبنفس المستوى ، فإنّه من العبث الادعاء ، بأن يسوع المسيح هو صاحب هذا المقـــام الرفيع الذي تبوأه « ابن الإنسان » ؛ وهناك سببان رئيسيان لاستثناء المسيح من هذه المنزلة الشريفة وهما :

(أ) إذا كان المسيح مجرد رجل ونبي ، ونظرنا إلى عمله باعتباره ناجحاً أو فاشلاً ، فإنه عندئذ يصبح من المؤكد دون منزلة « محمد » ﷺ بمسافة بعيدة . ولـــكن إذا كان الاعتقاد بأنه ثالث ثلاثة حسب التالوث الأقدس ، فهو بهذا لا يصح أن يوضع في قائمـــة الآدميين مطلقاً . وإنك لتقع في ورطة أو معضلة ولا تستطيع الخروج منها ، لأنه في كلا الحالتين لا يمكن لل « بارناشا » أن يكون هو اليسوع .

(ب) وإذا ما كلف يسوع بتحطيم الوحش الرابع ، فإنه حينئذ بدل أن يدفع الضريبة والإتاوة إلى قيصر ، وبدل أن يقدم نفسه كي يُضربَ بالعصا أو يُجلَدَ بالسياط من قبل الحاكم الروماني بيلاطس ، فقد كان باستطاعته طرد الجيش الروماني من فلسطين ، والمحافظة على بلاده وشعبه .

٤ ــ لم يعش أبداً على هـذه الأرض أمير للأنبياء مثل « محمد ﷺ » ، الذي انتمى إلى سلالة حكمت لزمن طويل يقرب من (٢٥٠٠) عام ، وكانت مستقلة

تماماً ، ولم تخضع رقبتها مطلقاً لغير أجنبي . وبالتأكيد أيضاً لم يوجد أحدٌ مطلقاً على وجه البسيطة مثل محمد ، الذي قدم المزيد من المبادىء والقيم والأعمال الأخلاقية لأمته خاصة ، وللعالم كله بصفة عامة . ومن المستحيل التصور بأن مخلوقاً آخر غير محمد ﷺ جدير بهذا التقدير والإجلال ، وأهل لمثل ذلك المجد الرائع والشرف المنيف الذي صورته به تلك الرؤيا النبوية . ودعونا الآن على التحديد ، نفاضل بين النبي الكبير دانيال وال « بارناشا » الذي كان يتطلع إليه دانيال بتهيب وإعجاب . لقد كان دانيال عبداً وأسيراً ، رغم أنه ارتفع إلى مقام وزير في بلاط« بابل ، وصوصا » . وقد كان يتعبد إلى ملاك ولكنه مُنِعَ(١) من ذلك . فماذا تكون مكانته عند الله القدير إذا ما قورن بمحمد ، الذي تُوِّجَ كسلطان على الأنبياء وقائدٍ للإنسانية جمعاء ، وقد تطلع إليه الملائكة بإعجاب وخشوع ، وإنها لأعجوبة صغرى أن النبي دانيال نادى محمداً بـ « يا مولاي » (المزامير – ١٠) .

٥ – وليس عجباً أن نجد بأن محمداً في رحلته الليلية إلى السماء قوبل بأعلى مراتب الشرف في حضرة الإله القدير ، وخُولت له القوةُ لمحو الوثنية وتحطيم القرن الشرير المجدِّف على الله وإزالته من جميع البلاد التي وهبها الله له ولشعبه ميراثاً أبدياً .

٦– وهناك ميزة بارزة أُخرى في هذه الرؤيا النبوية ، وبحسب قناعتي المتواضعة فإن منظر ال « بارناشا » ممتطياً متن السحاب ومن ثم حضوره إلى الإله القدير ، يتفق ويتطابق مع (المعراج) – ليلة رحلة النبي محمد – وبعبارة أُخرى فإن القسم الثاني من هذه الرؤيا للنبي دانيال ، ينبغي أن يُصَنَّف مع المعراج .

---

(١) القول بأنّ دانيال كان نبيًّا كبيراً ، ثم كان يتعبد إلى ملاك – أمر يثير الغرابة ! لأن التعبد إلى غير الله شرك ولو كان إلى ملاك . . إنه شرك أكبر لا يغفره الله لقوله : (إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ . .) . فهل يمكن أن يصدر ذلك من نبيّ ؟ ! والأنبياء – كما نعلم – معصومون ! إنها ولا شك من الإسرائيليات المفتراة على كثير من الأنبياء . . .   [المعلق]

وبالحقيقة ، هناك عدة إشارات في كل من كلام دانيال والحديث النبوي الشريف، هي التي أدّت بي إلى هذا الاعتقـــاد .

والقرآن يصرح بأنه في تلك الليلة أسرى الله بعبده من المسجد الحـــرام إلى المسجد الأقصى في القدس ، حيث بارك الله حول الهيكل الذي كان خراباً في ذلك الزمن ، وأطلعه على آياته (سورة الإسراء آيـــة : ١ . . .)

ويروى عن النبي الكريم أنه في الحرم القدسي ، صلى بالأنبياء إماما ، وكلهم من خلفـــه يأتمون به . ويروى أيضاً أنه من القدس رُفع إلى السماوات السبع حيث استقبله الأنبياء والملائكة حتى وصل إلى حضرة الإلـــه الأبديّ . وإن تواضع النبي منعه من أن يكشف عن كل ما رأى ، وسمِـعَ ، وتَسلَّم من رب الملائكة ، وهذا ما أوضحه جيداً النبي دانيال ، الذي روى قرار الحكم الصادر عن الإله العظـــيم .

ويبـــدو أن الروح التي فَسَّرت الرؤيا للنبيّ دانيال لم تكن ملاكاً ، كما كنت ذكرت سهواً في مكان آخر ، ولكنها روح نبي ، فقد دعاها « بالقُدُس » (وهي صيغـــة مذكر) أو قدّوس (٤ / ١٠ ، ٨ / ١٤) وهي تعـــني القديس أو الإنسان المقدس ، وهو اسم عادي جداً للأنبياء والقديسين . ولابد أن تلك الأرواح المقدسة للأنبياء والشهداء كانت في غاية الفرح ، بعد أن اضطهدتهم وعذبتهم الوحوش الأربعة خصوصاً عندما شاهدوا قرار الحكم بالموت يصدره العلي القـــدير ضد نظام الثالوث التابع لقسطنطين ، وتصديق الأنبياء الذين كلفوا بقتل وإبادة القرن النفاث . وسوف يذكر أيضاً بأن هذه الرؤيا قد شوهدت أيضاً في نفس الليلة التي حدثت فيها تلك الرحلة التي قام بها الـ « بارناشا » من مـــكة إلى السماوات .

ومن شهادة دانيال ــ فنحن كمسلمين ــ يجب أن نقـــر بأن الرحلة قد تّمت جسدياً ــ وهو أمر لا يستحيل تنفيذه من قبل الله القدير(١) . ولابد من وجود قانون في علم الطبيعيات ينص على أن أي جسم من الأجسام لا يتحكم به الجسم الرئيسي الذي يخصه ، ولا قانون الجاذبية ، ولكن يتحكم به قانون القوى النسبية للسرعة .

---

(١) بغض النظر عن شهادة دانيال ، فإن الأدلة الشرعية كثيرة على كون الإسراء والمعراج تم بالروح والجسد معاً ، ويمكن مراجعة ذلك في مظانه . [المعلق]

وإن جسم الإنسان التابع إلى الأرض لا يستطيع أن ينفك عنها إلا إذا وجدت قوة عليا من قوى السرعة تنتزعه من قـــوة الجاذبية . ولابد أن هناك أيضاً قانوناً آخر في علم الطبيعيات بموجبه يستطيع الجسم الخفيف أن يخترق أو ينفذ من جسم كثيف آخر ، وكذلك الجسم الكثيف ينفــذ من جسم أكثر صلابة أو كثافة منه وذلك بواسطة وسائل القوى العليا ، أو بكل بساطة بواسطة قوة السرعة . ودون الحاجة إلى الخوض في تفاصيل هذه المسألة الغامضة ، فإنه يكفي أن نقول بأنه قبل وجود قوة السرعة ، فإن وزن الجسم الصلب ، فيما إذا مَسَّهُ أو حَرّكَهُ شيءٌ ما ، فإن ذلك ليس له أهمية في هذه الحــالة . فنحن نعرف معدل قوة سرعة الضوء المنبعث من الشمس أو من النجوم . وإذا ما أطلقنا رصاصة بمعدل (٢٥٠٠) متر في الثانية على سبيل المثال ، فإننا نعلم بأنها تنفذ وتخترق جسم لوح حديدي ربما يكون سمكه بضع بوصات . وبنفس التشبيه ، فإن أي مــلاك يستطيع أن يتحرك بسرعة أكبر لا حدود لهــا ، أكثر من سرعة ضوء الشمس أو حتى من سرعة الفكر ، يتمكن طبعــاً من نقل أجسام المسيح ومحمد وإلياس ، بسهولة مذهلة وسرعة فائقة ، وبذلك يضع في حكم العدم قانون الجاذبية على هذه الكرة الأرضية التي ينتمون إليها .

ويذكر القديس بولس أيضاً رؤيا قد شاهدها قبل أربعة عشر عاماً عن رجل كان قد حمل إلى السماء الثالثة ومن ثم إلى الفردوس ، عندما سمع وشاهد مالا يمكن وصفه ، وأن الكنائس والمعلّقين اعتقدوا بأن القديس بولس هو نفسه صاحب تلك الرؤيا . ومع أن اللغة كانت وكأنها توحي بالفكرة بأنه هو ذلك الرجل ، إلا أنه من باب التواضع ، فقد احتفظ بها سراً لئلا يُعتبر أنه رجل متفاخر (سفر الكورنتيين ٧/١ــ٤) .

ومع أن القرآن يعلمنا بأن حواريي يسوع المسيح كانوا كلهم رجالاً أصحاب كرامة وصلاح ، فإنه لا يمكن الاعتماد على كتاباتهم ، لأن النزاع والتشاحن والمجادلة بين الكنائس أخضعتهم لتحريف النصوص والدس فيها . وإن إنجيل برنابا يصرح بأن القديس بولس وقع بعد ذلك في الخطأ وقاد الكثيرين من المؤمنين إلى الضلال .

وبولس هذا لم يُفصح عن هوية الرجل الذي رآه في رؤياه ، وإن الكلمات التي سمعها في « الفردوس » لا يمكن ترديدها ولا يُسمح لأي إنسانٍ أن يَنطِقَ بهــا ، وكلها تُظهرُ بوضوح أن القديس بولس لم يكن هو الذي رُفع إلى السماء . وإن الزعم

بأن القديس بولس ، لا يمتدح نفسه بسبب خشوعه وتواضعه ، هذا الزعم فيه إساءة إلى بولس نفسه . فقد كان بولس يتباهى ويتبجح وقد وبخ وعنف « بيتر » مواجهة ، وكانت رسالاته تمتلىء بالتعابير التي يتحدث فيها عن نفسه ، وحريّ بذلك أن يُثبتَ أنه لم يــكن خجــولاً ولا متواضعاً .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإننا نعرف من خلال كتاباته إلى « الجالاتيين » (١) (شعب جالاتا) وإلى الرومان ، كم كان متحيزاً إلى يهوديته ومتحاملاً ضد هاجر وولدها إسماعيل . وإن ذلك الشخص العظيم الذي شاهده في رؤياه لا يمكن أن يكون غير ذلك الشخص الذي رآه دانيال أيضاً ، وهو محمد ، ولم يجروْ أن يُخْبِرَ عن الكلمات التي قيلت له وأسمَعَهُ إياها العلي القدير ، لأنه كان من جهة يخاف من اليهود ، ومن جهة أُخرى يخشى أن يناقض نفسه ، لأنه مَجَّدَ نفسه كثيراً مع « الصليب والمصلوب ». إنني نصف مُقْتَنِع بأن بولس قد أُذن له أن يشاهد الـ « برناشا » الذي رآه دانيال قبله ببضعة قرون ، ولكن « ملاك الشيطان » الذى كان يصبُّ وينفخ في رأسه باستمرار (٢ الكورنتين ١٢/٧) منعه من إظهار الحقيقة والصدق . وكان ذلك اعترافاً من بولس بأن « مـــلاك الشيطان » كما كان يدعوه ، منعه من إفشاء السر عن « محمد » ﷺ الذي كان قد شاهده في رؤياه . وإذا كان بولس خادماً صادقاً لله ، فلماذا وُضِعَ بين يدي « الملاك الشيطان » الذي كان يضربه باستمرار على أُمّ رأسه .

وعندما يفكر المرء أكثر ملياً في تعاليم بولس ، يتضاءَل الشك عنده في أنه هو نفسه النموذج الأصلي لقسطنطين الأكبر .

وفي الختام أرجو أن يسمح لي غير المسلمين ، بتقديم نصيحة لهم مستفادة من هذه الرؤيا العجيبة التي رآها دانيال ، فإن عليهم أن يعتبروا بالمصير الذي انتهت إليه الوحوش الأربعة ، وبصورة خاصة الوحش صاحب القرن الرهيب ، وأن يعتقدوا اعتقاداً جازماً بأن الله وحده هو الإله الحــق ، وأنه سبحانه مطلع على كل من خالف أمره وانحرف عن سبيله ، وأن المسلمين وحدهم هم الذين يعترفون بصدق وحدانيته المطلقة ، ويحظون بنعمة نبوّة محمد ﷺ ، سيد الأنبياء ، الذي أرسله الله تعالى ، والذي قرَّبه إلى عرشه جلَّ وعلا .

---

(١) هم شعب جالاتا في آسيا الصغرى ، مسيحيون كتَبَ لهم القديس بولس رسائل مذكورة في العهــد الجــديد . [المترجم]

«الملك داود يدعوه بـ (ياسيدي)»

تاريخ داود ومنجزاته وكتاباته التنبوئية توجد في سفرين من العهد القديم وهما سفر صموئيل وسفر المزامير ، وكان أصغر أبناء يشاعي (جِسي) من سبط يهوذا . وعندما كان لا يزال راعياً شاباً كان قد قتل دباً وشطرَ أسداً إلى نصفين . وقد قذف وهو شاب قوي حجراً صغيراً إلى جبهة « جوليات » البطل الفلسطيني المسلح فقتله وحمى جيش إسرائيل . وكانت أعظم مكافأة من أجل مهمة ناجحة وجريئة هي طلب يد ميشال ابنة الملك شاوول . وكان داود يعزف على القيثارة والمزمار ، كما كان منشداً جيداً .

ومن الأمور المشهورة عنه ، هربه من حميه الغيور ومغامراته وفعاله كقاطع طريق. وعند وفاة شاوول دعا الناسُ داودَ لتولي زمام المملكة ، وكان كُرِّسَ ومُسِحَ بالزيت من أجل هذا قبل زمن طويل على يد النبي صموئيل . وحَكَمَ حوالي سبع سنوات في حبرون (الخليل) ثم أخذ القدس من اليبوسيين وجعلها عاصمة ملكه وقد سُمي التّلاّن القائمان هناك باسم (موريا وصهيون) ولكل من هاتين الكلمتين أهمية ودلالة ، كالصفا والمروة المشهورين في مكة ، وتعني كل من الكلمتين على التوالي مكان رؤيا الرب ، « والصخرة » أو « الحجر » ، ولم تمر حروب داود ومتاعبه العائلية الشديدة الخطورة وخطيئته في حق جُنديّه الأمين « يوريا وزوجته باتشيبا » دون عقاب ، فقد حكم أربعين عاما وكانت حياته تتسم بالحروب والأحزان العائلية . وثمة روايات متضاربة حوله تُعزى بوضوح إلى مصدرين متعارضين .

ولا ترد إشارة في القرآن (سورة ص) إلى جريمة داود في حق « أوريا وزوجته » المذكورة في (سفر صموئيل ٢ / إصحاح ٩) . ومن نواحي السمو في القرآن أنه يعلمنا أن جميع الأنبياء يولدون معصومين ويموتون معصومين . إن القرآن لا ينسب ، – كما فعلت التوراة – جرائم وآثاماً للأنبياء مثل جريمة داود المزدوجة المذكورة في

التوراة ، والتي يُعاقب عليها بالموت حسب شريعة موسى – تلك الجريمة التي لا نفكر حتى في أن نعزوها لشخص عادي ناهيك عن نبي اختاره الله تعالى لخـدمته .

وإن قصة ارتكاب داوُد للزنا ومجيء ملاكين لتذكيره بهذه الجريمة ، ما هي إلا إحدى الأكاذيب الصبيانية – مهما كان مصدرها ، وقد رفضتها أفضل الآراء الإسلامية . ذكر الرازي في تفسيره أن معظم العلماء ، وأولئك الذين بحثوا عن الحقيقة منهم ، يعلنون بطلان هذه التهمة ويندددون بها على أنها فرية وقصة حافلة بالأذى والشر . وجاءت كلمتان « اسْتَغْفَرَ ، فغفرنا له » في نص الآيتين (٢٤–٢٥ من سورة ص)(١) ولا تدلان قط على ارتكاب داود للإثم ؛ لأن الاستغفار يعني في الحقيقة طلب الوقاية . وطلب داود الحماية الربانية عندما رأى زيادةَ تجرّؤ أعدائه عليه ، أما (طلب المغفرة) فمعناه إصلاح أموره ، لأن داود كان عظيماً ولم يتمكن من إبقاء أعدائه تحت سيطرته الكاملة .

ولا يذكر العهـد القديم الوقت الذي أُعطيت فيه النبوّة لداود ، ونحن نقرأ أنه بعد ارتكاب داود للإثمين ، أرسل له الله النبي ناثان لتوبيخه وعقابه . والواقع أننا نجد داود حتى آخر أيامه يلجأ إلى الأنبياء الآخرين . وحسب روايات التوراة ، جاءته النبوة بعد أن ندم ندماً صادقاً على خطيئته .

وذكرت في إحدى المقالات السابقة أنه بعد انقسام المملكة إلى دولتين مستقلتين ، كثيراً ما كانتا تتحاربان ، فقد كانت الأسباط العشرة التي تُكَوِّنُ مملكةَ إسرائيل ، معادية دائمـا لسلالة داود ولم تقبل أي جزء من العهـد القديم سوى التوراة Torah أو شريعة موسى كما وردت في الأسفار الخمسة . وهذا واضح من النسخة السامرية للأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم . ولا نجد أية كلمة أو نبوءة حول سلالة داود في أقوال كبار الأنبياء مثل إلياس واليسع وغيرهما ممن عُرفوا في السامرة خلال حكم الملوك الطغاة في إسرائيل . ولم يبدأ أنبياء اليهودية في التنبؤ بقدوم أمير من سلالة داود

(١) (وَظَنَّ دَاوُدَ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ، فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ) . سورة ص : ٢٤–٢٥ .
(انظر تفسير الرازي « التفسير الكبير » الجزء ٢٦ صفحة ١٨٨–١٩٥) . [المعلق]

ليسرع في إعادة شمل الأمة وإخضاع أعدائها ، إلا بعد سقوط مملكة إسرائيل ونقل الأسباط العشرة إلى بلاد آشور . ويوجد العديد من هذه الأقوال المغمورة الغامضة في كتابات أو أقوال هؤلاء الأنبياء المتأخرين والتي أعطت نشوةً عارمة قوية لآباء الكنيسة ، ولكن الواقع أنها لا علاقة لها بيسوع المسيح . وسوف أورد بإيجاز اثنتين من هذه النبوءات : الأولى في سفر إشعيا (إصحاح ٧ – جملة ١٤) حيث تنبأ أن « فتاة حاملاً بطفل سوف تلـد ولداً وسوف تسميّه عمانوئيل » وكلمة « ألماه / Almah » العبرية لا تعني عذراء ، كما اعتاد اللاهوتيون المسيحيون أن يفسروها على أن المقصود بها مريم العذراء ، ولكن تلك الكلمة تعني: « امرأة قابلة للزواج ، أو فتاة ، أو صبية ». إن الكلمة العبرية التي تدل على معنى عذراء هي « بتوله (١) bthula » وأما اسم الطفل عمانوئيل فهو يعني « الله معنا » وثمة مئات من الأسماء العبرية المركبة التي تتألف من مقطع إيل (el) مضافاً أو مضافاً إليه اسم آخر ، ولم يخطر في بال إشعيـا أو المـلك آحاز أو أي يهودي أبداً أن الطفل الحديث الولادة سيكون هو « الله » بنفسه « معنا » وإنما كان كل تفكيرهم منصبًّا على أن ذلك سيكون مجرد اسم للطفل المولود فقط . والنص يقول بوضوح إن آحاز سيعطي الولد ذلك الاسم (وهو الذي عرف الفتاة الحامل) . وكان آحاز في خطر ، إذ كان أعداؤه يضيقون الخناق على القدس ، وأُعطي له هذا الوعد بإظهار « علامةٍ » له وهي عبارة عن فتاة حامل وليس هي مريم العذراء ، وأنها ستأتي إلى العـالم بعد سبعمائة عام ونيف من تاريخه ! ! وهذه النبوءة البسيطة بأن طفلاً سيولد خلال حكم آحاز قد أُسيء فهمها أيضاً من قبل الشخص الذي كتب سر إنجيل متى (متى / ١ / ٢٣) . إن الذي أعطى اسم يسوع هو الملك جبريل (متى / ١ / ٢١) ولم يُدْعَ عمانوئيل قط . وعليه، أفليس من المخزي اتخاذ هذا الاسم حجة وبرهاناً على عقيدة التجسد المسيحية ؟ ! . . .

أما التفسير الغريب الآخر للنبوءة فقد جاء من زكريا (٩ / ٩) وقد أساء اقتباسها وأساء فهمها كليةً الشخص الذي دوّن الإنجيل الأول (٢١ / ٥) ويقول النبي زكريا: « إفرحـي كثيراً يا ابنة صهيون ، واصرخـي يا بنت القدس ، انظري

---

(١) البتول : مريم العـذراء .

إن مليكك قادم لك ، إنه على صواب ومعه الخلاص ، وهو وديع ويركب على حمار أو على جحش » . في هذه العبارة الشعرية يودّ الشاعر ببساطة أن يصف الحمار الذي يمتطيه الملك بقوله : إنه كان حماراً فتَيّاً ، وهذا الحمار يوصف أنه ابن الأتان . وما كان إلا جحشاً ذكرا أو حماراً صغيراً ذكراً ، وإليك العبارة التي ينقلها متّى على النحـــو الآتي :

« قـــولوا لابنـــة صهيـــون »

« انظري إن مليـــكك قادم إليـــك »

« إنـــه وديـــع ويركـــب أتانـــا »

« أو يمتطي جحشاً وهو ابن الأتـــان »

وليس بالأمر المهـــم أن يؤمن الشخص الذي كتب الأناشيد المذكورة أعلاه أو لا يؤمن حقيقة بأن عيسى لدى دخوله الظافر إلى القدس كان يمتطي أتانا وابنها معاً في وقت واحد ، كمعجزة يحترمها من المعجزات ، إلا أن الصحيح هو القـــول بأن معظم الآباء المسيحيين آمنوا بذلك ، ولم يدر بخلدهم أن مشهداً كهذا سيظهر أقرب إلى الكوميديا منه إلى أُبهة الموكب المـــلكي المهيب . بيد أن « لوقا » حذر ولم يقع في خطأ « متّى » ، فهل كان هذان المؤلفان يستمدان الإلهـــام من نفس الروح ؟ .

يتنبأ زكريا في القدس بمجيء ملكٍ بعد عودة اليهود من السبي ، ومع أن هذا الملك وديع ومتواضع ويركب ابن الأتان ، إلا أنه يأتي معه بالخلاص ، وسوف يعيد بناء بيت الله ، ويتنبأ بهذا في وقت كان اليهود يحاولون فيه بناء الهيكل والمدينة الخَرِبة ، وتقف الشعوب التي تجاورهم ضدهم ، ويتوقف العمل في البناء إلى أن يُصدرَ داريوس ملك فارس فرماناً يَسمحُ بالبناء ، ومع أنه لم يظهر مطلقاً أي ملك يهودي منذ القرن السادس قبل المسيح ، إلا أنهم مع ذلك كانوا يتمتعون بحكومات مستقلة ذاتياً تحت سيادة حكام أجانب . وجدير بالملاحظة أن الخلاص الموعود هنا خلاص مادي وفوري ، وليس خلاصاً سيأتي بعد خمسمائة وعشرين عاماً من ذلك الوقت ، عندما يركب يسوع الناصري حماريه في آن واحد ويدخل القدس وهي مدينة كبيرة وثرية وبها

هيكل رائع ، وببساطة ينقضّ عليه اليهود أنفسهم ويصلبونه ، هم وسادتهم الرومان ، كما يقول لنا الإنجيل الحالي . إن هذا لا يمثل أي قدر من العزاء أو السلوان لليهود البؤساء الذين يحيط بهم الأعداء ، وهم في مدينة خَرِبة ، ولذلك فإننا يمكن أن نفهم من كلمة ملك أنه أحد كبار قادتهم مثل زروبابل أو عِــزرا أو نِحِميا .

والقصد من هذين المثالين أن أُبيّن لِقرائي المسلمين وبصورة خاصة أُولئك الذين قد يجهلون الكتب المقدسة اليهودية – كيف ضلل المسيحيين أحبارُهم ورهبانُهم بإعطائهم تفسيراتٍ ومعانيَ غبية للنبوءات الموجودة في تلك الكتب .

والآن إلى نبــوءة داود : –

« قــال يَهْــوَه لسيــدي : »

« إجلس على يميني ، إلى أن أجعلَ »

« أعــداءك مســنداً لقــدميك . »

هــذا النشيد الذي قاله داود مكتوب في المزمور / ١١١ واقتبسه متيّ (٢٢ / ٤٤) ومرقص (١٢ / ٣٦) ولوقا (٢٠ / ٤٢) . وفي جميع اللغات فإن الاسمين الموجودين في البيتين الأولين من النشيد يترجمان هكذا:« قال الرب لسيدي ».بالطبع كلمة الرب الأولى " Lord " تعني الله ، وكلمة سيدي الثانية Lord تعني أيضاً الله . ولا يوجد شيء أكثر ملاءمة وحجة أفضل لرجل دين أو راعٍ كنسي مسيحي من هذا القول ، أي أن المتكلم هو الله والمخاطب هو الله أيضاً ، لذلك فإن داود يعرف ربَّين اثنين ؟ ولا يوجد ما هو أكثر منطقية من هذا الجدل ! ! فأي من هذين السيدين هو ربُّ أو سيد داود؟ لو كتب داود : قال الرب أو السيد لسيدي ، لجعل من نفسه أُضحوكة ؛ لأنه عندئذ كان سيعترف بأنه عبد أو خــادم لسيدين دون أن يذكر حتى اسميهما . بل وسيتجاوز الاعتراف مجرد وجود ربَّين . إنه سيعني أن سيدَ أو ربَّ داود الثاني قد التجأ إلى ربه الأول الذي أمره أن يجلس إلى يمينه حتى يجعل من أعدائه مسند قدم له . وهذا المنطق يؤدي بنا إلى التسليم بأنك إذا أردت أن تَفهم دينك جيداً فإنك مضطر لمعرفة توراتك أو قرآنك في اللغة الأصلية التي كتب فيها ، وأن لا تعتمد على ترجمة ما ! ! . .

لقد كَتَبْتُ الكلمات العبرية الأصلية متعمداً وهي " Yahwah " و " Adon "
« يهوا » و « أدون » لتفادي أي غموض وسوء فهم في معناها . إن هذه الأسماء المقدسة المكتوبة في الكتب المقدسة يجب أن تُترك على حالها ما لم تَجد كلمة معادلة لها بالضبط في اللغة التي تود الترجمة إليها . والكلمة الرباعية الحروف " Yhwh " كانت تلفظ عادة (يهوفا) ولكنها الآن تُلفظ « يَهْوَه » وهي أحد أسماء الاعلام لله تعالى ، ويقدسها اليهود لدرجة أنهم عندما يقرأون كتبهم المقدسة فإنهم لا يلفظونها بل يقرأون أدوني « Adoni » بـدلاً منها . أما الاسم الآخر « إلوهيم » فيُلفظ دائماً ، لكن اسم « يهوه » لا يلفظ أبدا . أما لمـاذا يُحدِثُ اليهود هذا التمييز بين الاسمين بالذات فهـو مسألة قائمـة بذاتها وخارج نطاق هذا الموضوع كلية ، ولكن يمكن أن نذكر بالمناسبة أن « يهوه » على خلاف « إلوهيم » لا تُستعمل أبداً مع ضمائر متصلة في آخره ، ويبدو أنها اسم خاص بالعبرية للذات الإلهية باعتبارها الإله القومي لشعب إسرائيل . والحقيقة أن « إلوهيم » أقدم اسم معروف لجميع الساميين . ومن أجـل إعطاء طابعٍ خاص لمفهوم الإله الحـق ، فإن هذه الكلمة الرباعية الحروف ، كثيراً ما تُستعمل جنباً إلى جنب مع « إلوهيم » التي تُطلق عليه أيضاً . والصيغة العربية « ربنا الله » توازي الصيغة العـبرية « يهوه إلوهيم » .

أما الكلمة الأخرى Adon فتعني الآمر ، أو الرب ، أو السيد ، أو كما في العربية والتركية « أمير » ، أو سيد أو آغـا . « وأدون » هي الكلمة المقابلة لجندي أو عبد أو مملوك . ولذلك فإن الجزء الأول من بَيْتَي الشعرِ يجب أن يفسر هكذا « قال الله لسيدي » .

وكان داود بصفته ملكاً هو السيد والآمر لكل إسرائيل ، وسيّد المملكة كلها ، وعليه ، فهو خادم مَنْ إذن ؟ إن المعروف عن داود أنه كان ملكاً قوياً ولا يتأتى في الحقيقة أن يكون عبداً أو خادماً لأي كائن بشري مهما كان . ولا يُمكننا أن نتصور أنه كان يدعو بـ « يا سيدي » أي « قِدّيس » أو « نَبيٍّ مُتوفىً » كإبراهيمَ أو يعقوب ، الذي كان بمقتضى العقل والعادة له منزلة الأب بالنسبة لداود . ومن المفهوم أيضاً أنه لا يمكن لداود أن يدعو أحداً من سلالته « سيدي » لأن اللقب المعقول سيكون

« يا بني »،ولا يتفق لكائن غير الله أن يكون سيد داود إلا من كان أشرف الخلق وأنبلهم .

ومن تمام العقل والإدراك ، الاعتقاد بأنه وفق الحكمة والاختيار الإلهي ، لابد أن يكون هناك رجل ، له من الصفات ما يجعله أسمى الناس وأحقهم بالثناء ، وأولاهم بالاقتداء . وبالتأكيد فقد عرف الحكماء والأنبياء قديماً هذه الشخصية الكريمة ودعوها « سيدي » كما دعاها داود .

وبالطبع فقد فهم الربانيون اليهود والمفسرون للعهـــد القديم أن هذا التعبير يعني « المسيح » الذي انحدر من نسل داود نفسه . وهـــكذا أجابوا عن السؤال الذي وجهه إليهم يسوع المسيح كما ورد ذكره آنفاً من إنجيل متى (٢٢) ، أما الآخر فكان جواباً إجمالياً (متعلقاً بالأناجيل الثلاثة من العهد الجديد) ورفض يسوع اليهود بصراحة عندما سألهم السؤال الثاني : كيف يستطيع داود أن يدعوه « سيدي » إذا كان إبناً له ؟ هذا السؤال الذي وجهه المعلمُ للحضور لأنهم لم يستطيعوا إيجاد جواب له . أما الإنجيليون فقد قطعوا فجأة هذا الحوار ، وكان التوقف دون الوصول إلى مزيد من التفسير غير لائق لا بالمعلم ولا برواته ؛ لأن يسوع ، وقد ترك جانباً مسألة ألوهيته حتى وصفة النبوة فيها ، كان مضطراً كمعلم أن يحـــل المشكلة التي أثارها بنفسه عندما رأى أن التلاميذ والمستمعين كانوا عاجزين عن معرفة من يكون « السيد أو الرب » .

وبقول عيسى إن « السيد » أو « الادون » لا يمكن أن يكون ابناً لداود فقد استثنى نفسه من ذلك اللقب . وهذا الاعتراف حاسم ويجب أن ينبه المعلمين الدينيين من المسيحيين لكي ينزلوا المسيح منزلته التي يستحقها وهي كونه عبـــداً لله وخادماً سامياً ومكرّماً له سبحانه ، وأن يرفضوا الطابع الإلهي المبالغ فيه ، الذي نُسب إليه مما أدى إلى نفوره واستنكاره الشديد .

ولا أستطيع أن أتصور أن المعلم الذي يرى طلابه عاجزين عن الإجابة على سؤاله ، يجب أن يظل صامتاً إلا إذا كان مثلهم جاهلاً وعاجزاً عن إعطاء الحل للسؤال ، ولكن عيسى لم يكن بالمعلم الجاهل أو الخبيث ، لقد كان نبياً يتحرق شوقاً ومحبةً لله وللناس . ولم يترك المسألة دون حل ، أو السؤال دون جواب ، ولم تورِدْ أناجيلُ الكنائس

جوابَ عيسى على السؤال « من هو سيد داود » ؟ ولكن إنجيل برنابا يورد الجواب. لقد رفضت الكنائس هذا الإنجيل، لأن لغته كانت أكثر توافقاً مع الكتب المنزلة، ولأنها كانت معبرةً بوضوح عن طبيعة رسالة يسوع المسيح، وأهم من ذلك فإنه يسجل بدقة كلمات عيسى عن محمد. ويمكن بسهولة الحصول على نسخة من هذا الإنجيل، وهناك ستجد جواب عيسى نفسه الذي قال « إن العهد بين الله وإبراهيم كان موضوعُه إسماعيل، وإن أكثر الناس تمجيداً وحمداً إنما هو من سلالة إسماعيل وليس من سلالة إسحاق عن طريق داود ». ويقال إن عيسى تكلم مراراً عن محمد الذي رأى روحه في السماء. وإن شاء الله ستتاح لي فرصة للكتابة حول هذا الإنجيل فيما بعد.

ولا ريب في أن عين دانيال المتنبئة التي شاهدت في رؤيا "Barnasha" « برناشا » العظيم الذي كان محمداً، كانت هي نفس العين المتنبئة لداود. كان هذا الرجل الأكثر تمجيداً وحمداً بين البشر هو الذي رآه النبي أيوب (١٩ / ٢٥) كمخلصٍ للناس من سلطة الشيطان.

فهل كان محمداً ذلك الذي قال عنه داود « سيدي أو أدوني » ؟

دعونا نرى:

إن الحجج التي تؤيد محمداً الموصوف بأنه سيد المرسلين وهي نفس « أدون أو سيد الأنبياء » حجج قاطعة. وهي من الوضوح كما جاءت في العهد القديم بحيث لا يسع المرء إلا أن يدهش من جهل أولئك الذين يرفضون أن يفهموا ويذعنوا للحق.

١ — إن أعظم نبي وسيد (أدون) في نظر الله والناس ليس بفاتح عظيم ولا مدمر للبشرية ولا منعزل يقضي حياته في كهف أو حجرة صغيرة يتعبد لله من أجل أن يخلص نفسه فقط، ولكنه ذلك الذي يقدم مزيداً من الخير والخدمة للبشر، بأن يقربهم من ضوء المعرفة بالله الحق الأحد وبالقضاء المبرم على قوة الشيطان ونصبه البغيضة ومؤسساته الشريرة، لقد كان محمد هو الذي « دق رأس الحية »(١)، وهذا هو السبب الذي من أجله يطلق القرآن على الشيطان اسم « إبليس » أي « المنكسر أو المسحوق »،

---

(١) انظر مجلة « اسلاميك ريفيو » مقالتي عن تشرين الأول سنة ١٩٢٦ ومقالتي: لماذا يطلق القرآن على الشيطان « إبليس ». [المؤلف]

لقد طهَّر محمد الكعبة وكل بلاد العرب من الأصنام ، وأخرج العرب من ظلام الجهالة والوثنية إلى نور السعادة والدين والقوة ، وقد نشر ذلك النـــور في كافة أرجاء المعمور . وإن الأعمال والإنجازات العظيمة التي قدمها محمد في سبيل الله ، لا يدانيها ولا يضاهيها شيء .

إن الأنبياء والصالحين والشهداء ، هم جند الله ، الذين – بدون شك – ينتظمون تحت قيادة زعيمهم محمد ﷺ ، في مواجهة قوى الشيطان .

إن محمداً ، ليس سيّداً لداود فحسب ، بل إنه سيد الأنبياء بلا استثناء ، حيث أنه طهر فلسطين وسائر الأقطار التي زارها إبراهيم من الوثنية ومن نير الدخلاء .

٢ – بما أن عيسى المسيح نفسه يعترف أنه لم يكن سيد داود ، وأن المسيح لم يكن ينحدر من نسل داود ، فإنه لم يبق سوى « محمد » من بين جميع الأنبياء سيداً لداود ، وعندما نأتي إلى المقارنة بين الثورة الدينية المحمودة التي حققها ابن إسماعيل النبيل في العالم ، وبين الذي حققه آلاف الأنبياء مجتمعين ، نخرج بنتيجة تفرض نفسها وهي أن محمداً وحـــده هو الذي يمكن أن يستحق لقب « أدون » (السيد) المتميز .

٣ – كيف عرف داود أن « يهوه » قال « لأدون » : « اجلس أنت عن يميني حتى أجعل أعداءك كرسياً تستريحُ عليه قدماك » ؟ ومتى سمع داود كلمة الله هذه ؟ إن المسيح نفسه يعطي الجواب ، أي أن « داود كتب هذا بالروح » . إنه رأى (الأدونَ) « محمداً » كما رآه دانيال (سفر دانيال / ٧) وكما رآه القديس بولس (الكورنتيين / ٢ / ١٢) . وكما رآه آخرون كثيرون . بالطبع هذا السر « إجلس أنت عن يميني » مخفي عنا ، ومع ذلك نستطيع أن نحزر بالتأكيد أن هذا التكريم الرسمي له مع شرف الجلوس عن يمين عرش الله ، وبالتالي رفعه ليس إلى منصب سيد الأنبياء فحسب ، بل وسيد الخلائق كافة ، قد حدث ليلة المعراج الشهيرة إلى الفردوس الأعلى .

٤ – إن الاعتراض الرئيسي الوحيد على رسالة محمد السماوية وتفوقه ، هو تنديده بتعاليم الثالوث ، ولكن العهد القديم لا يعرف إلهـــاً سوى الله . ولم يجلس سيدُ داود على يمين إلـــه ثلاثي ، ولكن على يمين إلـــهٍ واحد . ومن هنا فإنه لم يوجد بين الأنبياء الذين آمنوا بالله وبذلوا في سبيله ، شخصٌ عظيم بهذه العظمة ، قدم خدمات جليلة في سبيل الله والناس ، كما فعل محمد عليه صلوات الله وسلامه .

السيد أو الرب في العهد أو الميثاق

إن آخر أسفار القانون اليهودي المعترف به في التوراة يحمل اسم « مَلَخاي » وهو أقرب إلى اللقب منه إلى اسم العلم ، واللفظ الصحيح للاسم هو « ملاخي » الذي يعني « ملاكي » أو « رسولي » . والكلمة العبرية « ملاخ » مثل العربية « ملاك » ومثل اليونانية « أنغيلوس » التي اشتق منهـا الاسم الإنجليزي "Angel" وتعني رسولاً أو شخصاً مُكلّفاً بإبلاغ رسالة أو خبر لشخص ما .

أما من هو هذا « الملاخي » وفي أية فترة من التاريخ اليهودي عاش وتنبأ،فأمر غير معروف ، لا من الكتاب نفسه ولا من أي جزء آخر من العهد القديم « فهو يبدأ بالكلمات التالية » : إن « ميسا = Missa » كلمه يهوه إلـه إسرائيل على يـد « ملاخي » ويمكن ترجمتها بالعبارة التالية « حديث كلمة يهوه إله إسرائيل على يد ملاخي » ويحتوي على أربعة فصول قصار .

والوحي موجه ليس إلى ملك وحاشيته ، بل إلى شعب مستقر من قبل في القدس مع الهيكل وخدماته ، ومع الأضاحي والقرابين التي هي من أردأ الأنواع ، كما أن الغنم والماشية التي تُقدَّم على المذابح ليست من أفضل النوعيات ،فهي حيوانات عمياء عرجاء هزيلة . والاعشار لا تُدفع بانتظام ، وإذا دُفعت أصلاً فإنها من نوع رديء ، كذلك فإن من الطبيعي أن يستطيع الكهنة تكريس وقتهم وطاقاتهم لأداء واجبهم المقدس ، لأنهم لا يستطيعون أن يمضغوا شرائح لحم البقر وقطع الضأن المشوية المأخوذة من الأضاحي العجفاء الكبيرة السن ، المشلولة القوائم ، ولا يستطيعون العيش على الاعشار الضئيلة أو الرواتب غير الكافية . وأما « يهوه » فكما هي العادة مع هؤلاء القوم الذين يتعذر إصلاحهم ، يهدد حيناً ، ويمتنع عن الوفاء بالوعود حيناً آخر ، وقد يتذمر في بعض الأحيان ، ويبدو أن هذا الكلام أو الوحـي قد تكلم به النبي

« ملاخاي » في حوالي بداية القرن الرابع قبل عهد المسيح ، عندما كان شعب إسرائيل متعبين أيضاً من يهوه ، وكان من عادتهم القول « إن مائدة الرب يهوه أمر يدعو للاشمئزاز ، ووجبات الأكل التي يقدمها تدعو للازدراء » (كتاب ملاخاي – ١ / ١٢) « والذي يفعل الشر هو خير في نظر يهوه ، وهو راضٍ عن فاعليه ، وإلا فأين هو إله العدل ! » (ملاخي – ٢ / ١٧) .

بيد أن كتاب ملاخي – رغم تاريخه الذي يرجع إلى ما بعد فترة الاسر البابلي ، إلا أنه مكتوب بأسلوب عبري جيد . والقول بأن هذه « الميسا Missa » أو جمل الخطاب جاء إلينا سليماً دون تعديل ، هو اعتراف بالجهل باللغة ، إذ أن هناك عدة جمل مشوهة ، حتى ليكاد يستحيل فهم المعنى المراد منها .

وموضوع بحثنا في هذه المقالة هو النبوءة المشهورة الموجودة في (ملاخي – ٣ / ١) وتقول النبوءة : انظروا ، إنني أبعث برسولي ، وسوف يمهد السبيل أمامي ، وسوف يأتي فجأة إلى هيكله السيد الذي تبحثون عنه ، ورسول العهد الذي ترغبون . انظروا إنه قادم . هكذا يقول رب الجيوش أو الجموع (ملاخي – ٣ / ١) .

هذه نبوءة مسيحانية مشهورة . وسيقول لنا جميع القديسين والآباء والباباوات والبطاركة والقسس والرهبان والراهبات بل وأطفال مدارس الأحد ، بأن أول رسول مذكور في النص هو يوحنا المعمدان ، والرسول الثاني الذي ذكرتْهُ نُسخُهم المحلية أو العامية ، باعتباره (ملاك العهد) هو عيسى المسيح .

وإن التحديد الدقيق لموضوع هذه النبوءة أمر في غاية الأهمية ؛ لأن الكنائس المسيحية اعتقدت منذئذ أن المقصود بها شخصان مختلفان . وسبب هذا الاعتقاد الخاطىء هو الغلطة الكبيرة التي ارتكبها القديس متّى ، فمن خصائص الإنجيل الأول وهو إنجيل متّى : إظهار وإثبات تَحَقُّق بعض الأقوال أو النبوءات في العهد القديم ، والتي تتعلق بكل حدث تقريباً من أحداث حياة المسيح ، ومتّى هذا لا يكترث ولا يبالي أن تقع في التناقضات . كما أنه غير دقيق في اقتباساته من الكتب العبرية المقدسة ، وهو بالتأكيد ليس ضليعاً في أدب لغته . وقد أُتيحت لي فرصة للإشارة في المقـالة السابقة من هذه السلسلة إلى أحد أخطائه الفاحشة حول الحمار الذي ركبه عيسى . وهذه نقطة

في غاية الخطورة ، وتمس بصورة مباشرة صدق الأناجيل وموثوقيتها ، فهل من الممكن أن الرسول مَتّى نفسه جاهل بالطابع الحقيقي لنبوءة « ملاخي » ويعزو لسيده – عن جهل – اقتباساً خاطئاً قد يضع موضع التساؤل تلك الخاصية التي يتميز بها النبي وهي كونه يوحى إليه من الله . إذ ماذا يجب أن يكون رأينا في مؤلف الإنجيل الثاني ، القديس مرقص – الذي ينسب العبارة الموجودة في ملاخي إلى إشعيا ؟ (مرقص ١ / ٢) كما أن مَتّى يقول عن عيسى (متى ١١ / ١ – ١٥) وهذا القول أيضاً ينقله ويتبعه لوقا (لوقا ٧ / ١٨ – ٢٨) وهو أن عيسى أعلن للجمهور أن يوحنا المعمدان كان أكثر من نبي ، وأنه هو « الذي كُتِبَ عنه » : « انظروا إنني مرسل ملاكي أمام وجهك ، وأنه سوف يمهد السبيل أمامك » وأنه « لم يوجد بين من ولدتهم النساء من هو أعظم من يوحنا ، لكن أقلَّ مَنْ في ملكوت السماوات أعظمُ منه » إن تحريف نص ملاخي واضح ومقصود . والنص الأصلي يقول لنا إن يهوه سَبَوث – " Yahweh, Sabaoth " (أي إله الجموع أو الجيوش) هو المتكلم ، وأن المؤمنين هم الشعب المخاطَب . كما يمكن أن يلاحظ فوراً من الكلمات « الذي تبحثون عنه . . والذي ترغبونه » ويقول الله « انظر ، سوف أبعث برسولي ، وهو سوف يمهد السبيل أمام وجهي » ولكن الأناجيل حرَّفت النص بأن حَذَفَتْ الضمير الشخصي للمتكلم المفرد وأدخلَت « أمامك » (أو « وجهك » كما في العبرية) مرتين ، ومن المعتقد عموماً أن متَّى كتب إنجيله باللغة العامية العبرية أو الآرامية آنئذ ؛ لكي يبرهن لليهود على أن الله وهو يخاطب يسوع المسيح ، قال : انظر ، إنني مرسل رسولي (ملاكي) (هكذا ورد النص في متَّى ١١ / ١٠) قبلك وسوف يمهد طريقك أمامك ، ويرغب في أن يبين أن هذا الملاك أو الرسول كان يوحنا المعمدان ، ثم تُتْرك لعيسى المقارنة بينه وبين يوحنا ، فيصف يوحنا بأنه فوق كل نبي وأعظم من أبناءِ كافة النساء الآدميات ، ومع هذا فإن أصغر من في ملكوت السماء ، التي يقصد أن يكون عيسى ملكها ، هو أعظم من يوحنا .

ولا أُصدق للحظة واحدة أن عيسى أو أيًّا من تلاميذه يمكن أن يستخدم لغة كهذه في سبيل تحريف كلمة الله . ولكن أحد الرهبان المتعصبين أو الأساقفة الجهلة

قد زيف هذا النص وقوّل عيسى هذه الكلمات التي لا يمكن أن تصدر على لسان نبي من الأنبياء .

والفكرة التقليدية القائلة إن الرسول المكلف بتمهيد الطريق أمام السيد وأن « رسول العهد » هو خادم وتابع لهذا السيد ، تدحض الاستنتاج بأن هناك نبوءة بشخصين مختلفين ، وتجعل هذا الزعم محض اختلاق ناتج عن الجهل بأهمية الرسالة وضخامة العمل المسند لذلك الرسول . ويجب أن لا نفترض أنه رائد أو مهندس متخصص بإنشاء الطرق والجسور من أجل مرور موكب ملكي . وعليه فدعونا نمعن النظر في هذا الموضوع بصورة أعمق وبأسلوب شجاع منصف وغير موضوعي .

١ - في المقام الأول يجب أن نفهم جيداً أن الرسول بشر ومخلوق له كيان بشري وروح ، وأنه ليس ملاكاً أو كائنا فوق البشر . وفي المقام الثاني يجب أن نتحلّى بالحكمة والسداد ، لكي نرى أنه ليس مرسلاً لتمهيد الطريق أمام رسول آخر يسمى « السيد » والرسول الموعود « ولكنه مكلف بتأسيس وإقامة دين قويم سليم صالح ، ومكلف أيضاً بإزالة كافة العقبات بين الله ومخلوقاته ، وبملء كل الفجوات والهوات في هذا الطريق العظيم ، لكي يصبح سهلاً ممهداً ، سالكاً مستنيراً ، محفوظاً من كافة الأخطار . والعبارة العبرية " U' pinna derekh " تعني أن الرسول يشرع الدين والعبادة بوضوح واستقامة ، والفعل « داراخ » (darakh) هو من نفس الجذر المشتق منه الفعل العربي « دَرَكَ » الذي يعني « المشي والوصول أو الفهم » ، والمشتق « ديرخ » (derekh) يعني « طريقاً أو سبيلاً أو خطوة » وبالمجاز يعني « العبادة والدين » ويستخدم بهذا المعنى الروحي في جميع المزامير والأنبياء . وبالتأكيد فإن هذا الرسول الرفيع الشأن المبعوث من الله ، لم يكن قادماً لإصلاح الطريق أو الدين من أجل حفنة من اليهود ، ولكن من أجل إقامة دين عام وثابت للناس كافة . ومع أن الديانة اليهودية تقول بوجود إله واحد حق ، إلا أن مفهومهم « الله » كإله قومي لشعب إسرائيل فقط ، وكهنوتهم وطقوسهم ومراسمهم في التضحيات ، ثم عدم وجود أية عناصر إيجابية عندهم للاعتقاد بخلود الروح ، وقيامة الموتى ، ويوم الحساب والحياة الخالدة في الجنة أو النار ، وغير ذلك الكثير مما يفتقده دينهم ؛ هذا ما يجعله

غير ملائم إطلاقاً ، وغير واف باحتياجات الشعوب المختلفة في اللغات والأجناس وطبيعة المناخ والأمزجة والعادات .

وفيما يتعلق بالمسيحية فإن طقوسها السبعة العديمة المعنى ، واعتقادها بالخطيئة الأصلية ، وتجسد الإله – وهي أُمور لم نعهدها في جميع الأديان السابقة ، ثم الأدبيات المتعلقة بالأساطير وبثالوث من الآلهة المتمايزة ، وأخيراً عدم امتلاكها لوثيقة واحدة مكتوبة من مُؤَسِّسِها المفروض أن يكون هو يسوع المسيح ، لذا فإنها (أي المسيحية) لم تفعل خيراً لبني البشر ، بل على العكس فإنها سَبَّبت الانقسامات والطوائف ، التي تمتلىء بالمشاعر المريرة من الكراهية والحقد ضد بعضها البعض .

إذن كان الرسول مكلفاً بإلغاء هذين الدينين ، وإقامة دين إبراهيم وإسماعيل القديم ودين الأنبياء الآخرين على أُسس وتعاليم جديدة تصلح للبشر أجمعين . ذلك هو الصراط المستقيم أقصر الطرق للوصول إلى الله ، وأسهل الأديان لعبادته ، وأسلم العقائد الباقية على طهارتها ونقائها الأبدي البعيدة عن الانحرافات والمباديء الغبية .

وكان منوطاً بالرسول مهمة توطيد وترسيخ دين كفيل بأن يقود كل المحبين لله ، المؤمنين بوحدانيته ، بدون تدخل أحد من الوسطاء ومئات المرشدين الأدعياء في هذا السبيل .

وقبل كل شيء كان على الرسول أن يصل وبصورة مفاجئة إلى كلا الحرمين ، سواء الكائن منهما في القدس ، أو الكائن في مكة . وهذا يقتضيه أن يقتلع جذور الوثنية من تلك البقاع ، لا بتحطيم الأصنام والأنصاب فحسب ، بل وبتلقين عبّادها المشركين عقيدة التوحيد والإيمان بالإله الحق .

وإن إنجاز هذا العمل العظيم ، لهو بمثابة بناء طريق جديد ، يقوم على دين عالمي شامل ، يدعو إلى إلغاء الوساطة بين الله والعباد ، فلا قسيس ولا قديس ، ولا سر مقدس . . كل ذلك غير جائز وغير مسموح به على الإطلاق .

إن إنجازاً كهذا ، لم يتحقق إلاّ على يد الرسول المنعوت بأنه « محمد المصطفى » .

٢ – لم يكن يوحنا المعمدان هو الرسول الذي تنبأ به ملاخي . والرؤيا التي تنسبها الأناجيل الأربعة له متضاربة جداً ، ولكن الشيء الوحيد الذي تتفق عليه هو أنه لم يمهد طريقاً قـط ، لأنه لم يكن مُزوَّداً بكتاب مقدس ، كما أنه لم يؤسس ديناً جديداً أو يصلح الدين القديم ، ويقال إنه ترك أبويه وحبيبته عندما كان لا يزال شاباً وعاش في الصحراء على العسل والجراد . وقضى هناك وقته حتى ناهز عمره الثلاثين عاماً عندما أظهر نفسه للجماهير على ضفاف الأردن حيث اعتاد أن يُعَمِّد الخاطئين التائبين الذين اعترفوا بخطاياهم له . وبالنسبة لـ « متّى » فإنه لم يعرف شيئاً عن علاقته بعيسى ، أو أنه لم يحفل بنقلها . أما « لوقـا » فقد كتب إنجيله ليس بناء على الوحي ، ولكن استناداً إلى أعمال تلاميذ السيد المعلم ، وقد سجل فيه الطاعة التي يقدمها يوحنا لعيسى ، بينما كل منهما كان لا يزال في رحم أمّه (لوقا ١ / ٣٩ / ٤٦) وقد عَمَّد عيسى في مياه الأردن كما عَمَّد الآخرين ، ويروى أنه قال : ما كان يوحنا ليستحق حتى الانحناء من أجل حل سيور الحـذاء (مرقص ١ / ٧) الخاص بسيدنا عيسى . وحسب رواية الإنجيل الرابع فإن يوحنا قال : إن عيسى كان حَمَلَ الربِّ الذي يحمل خطايا العالم (يوحنا / ١ / ٢٩) . ومن الواضح تماماً أنه عرف عيسى وتعرَّف عليه ، ولكن عندما كان مسجوناً أرسل تلاميذه إلى عيسى يسألونه : « هل أنت الذي سيأتي أم علينا أن ننتظر سواك ؟ » (متى ١١ / ٣) . . . الخ . واستشهد المعمدان في السجن لأنه وبخ الأدومي الكافر – الملك هيرودس الرابع ؛ بسبب تزوجه بزوجة أخيه . وهـكذا تنتهي حسب رواية الإنجيليين حياة نبي طاهر وكريم .

ومن عجب أن اليهود لم يستقبلوا يوحنا كنبي ، والأعجب من هذا أن نجد إنجيل برنابا لا يأتي على ذكر المعمدان ، فضلاً عن أنّ الكلمات التي يقال إن يوحنا نطق بها ، فإنه ينسبها إلى عيسى متحدثاً بها عن محمد رسول الله . ويذكر القرآن الميلاد العجيب ليوحنا تحت اسم يحيى ، لكنه لم يُشر إلى مهمته في التعميد .

وهناك وصفٌ لموعظته في الفصل الثالث من إنجيل مَتّى . ويبدو أنه أعلن إقتراب مملكة السماء وقدوم الرسول العظيم نبي الله الذي سوف يُعمِّدُ المؤمنين ليس بالمـاء ، ولكن « بالنار والروح القدس » .

والآن إذا كان يوحنا المعمدان هو الرسول الذي بعثه الله لتمهيد الطريق أمام عيسى المسيح ، وإذا كان هو المبشر به والتابع له ، فلا معنى ولا مغزى مطلقاً لإقدام يوحنا على تعميد الجماهير في مياه نهر أو بركة ، ولأن يشغل نفسه ببضعة تلاميذ ، وكان من واجبه أن يتبع عيسى فوراً ويلازمه عندما رآه وعرفه ، ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا . بالطبع يتحدث المسلم عن أي نبي دائماً بالتجلة والاحترام البالغَين . ولا يُتوقع مني مزيد من التعليق كما يفعل « أرنَسْت رينان » أو أي منتقد غير مكترث. لكن من المضحك والذي لا يمكن تصديقه ، القول بأن النبي الذي يصفونه كدرويش في البَريّة يرتدي جلود الحيوانات ، أو كدرويش يخرج ويشاهد « سيده » و« ملاك العهد » ثم لا يعرفه ولا يلازمه . إن الاعتقاد والإيمان بأن نبياً أرسله الله لتمهيد الطريق لتنقية الدين وتطهيره استعداداً لقدوم سيده ، ثم وصفه بأنه عاش كل حياته بين الحيوانات ، هو بمثابة القول بأنه كان يصنعُ أحذية أو مسالكَ أو سكِكَ حديدٍ ليس للبشر ولكن للحيوانات والجـــن .

٣ — ولم يكن يوحنا المعمدان هو النبي إيليا أو إلياس كما يروى ذلك عن المسيح . والنبي ملاخي في الفصل الرابع (من الأشعار ٦٢٥) يتكلم عن مجـــيء إيليا ، وهي حقيقة يجري التنبؤ بحدوثها قبل يوم القيامة ببعض الوقت وليس قبل ظهور الرسول موضوع البحث . وحتى لو قال المسيح إن يوحنا كان هو إيليا فإن الناس لم يعرفوه . والذي قصد عيسى أن يقوله هو أن الاثنين كانا متشابهين في حياتهما الزاهدة وإقبالهما على الله وشجاعتهما في توبيخ ونصح الملوك والزعماء المنافقين للدين .

ولن أستطرد في مناقشة هذا الادعاء المتهافت للكنائس حول يوحنا وكونه الرسول القادم لتهيئة الطريق « ولكن يجب أن أُضيف أن هذا المعمدان لم يرفض شيئاً ولو يسيراً من شريعة موسى ولم يضف إليها شيئاً . أما من ناحية المعمدانية فهي « المعموديثا » اليهودية القديمة أو الوضوء . والغسل أو الوضوء لا يمكن أن يعتبر « دينا » أو « طريقة » حـــل محلها طقس المعمودية الذي اتبعته الكنائس المشهورة والمغمورة .

٤ — وإذا ما قلت إن عيسى المسيح ليس مقصوداً في نبوءة ملاخي ، فإنه يظهر أني كنت أطرح مناقشة عديمة المعنى ، لأنه لن يناقض كلامي أحد أو يعارضه . وقد

آمنت الكنائس دائماً أن « رسول الطريق » هو يوحنا المعمدان وليس عيسى . غير أن اليهود لا يقبلون أياً من الاثنين ، ولكن بما أن الشخص الذي تتحدث عنه النبوءة هو واحد ونفس الشخص وليس شخصين ، فإن عليّ أن أُعلن بكل جدية أن عيسى لم يكن ذلك الشخص ولا يمكن استخدامه لتمهيد الطريق أمام يَهوَه « سَبَئوث » ! وإذا كان عيسى هو يَهوه « سَبئوث » الذي قال بهذه النبوءة ، فأمام من كانت ستُهَيّأ الطريق ؟ ولو كان رجلاً بسيطاً من لحـم ودم وخادماً لرب الجموع أو الجيوش ، فعندئذ تتهافت الدعوى ؛ لأن عيسى كإنسان بسيط ونبي ، لا يمكن أن يكون مؤسس الكنائس التثليثية ، وأياً ما كانت الصيغة التي نتناولها من الدين المسيحي ، سواء كانت الأرثوذكسية أو الكاثوليكية أو البروتستانتية أو المخلصية أو الكويكر أو أيًّا من الملل والنحل العديدة ، فإنه لا يمكن أن تكون أيّ منها الطريق والدين الذي أشار إليه « ملاخي » . وليس عيسى بالممهد أو المؤسِّس . ومادمنا ننكر الوحدانية المطلقة لله ، فنحن خاطئون ، ولا يمكن أن يكون عيسى صديقنا أو قادراً على مساعدتنا.

٥ ـ الشخص الذي يشار إليه في النبوءة ، له صفات ثلاث ، أي أنه رسول الدين والسيد الآمر ورسول العهد ، كما أنه موصوف ومميز بشروط ثلاثة وهي : « أنه يأتي فجأةً إلى مسجدِه أو حَرَمه ، ويبحث عنه الناس ويسعون إليه ، كما أنه موضعُ محبة شديدة منهم » .

إذن ، من يمكن أن يكون هذا الرجل المجيد والمحسن العظيم للبشرية ، وهذا القائد الشجاع الذي قدم خدمات نبيلة في سبيل الله والدين الذي بعثه به سوى محمــد عليه صلوات الله وسلامه .

لقد قدّم إلى الدنيا كتاباً مقدساً لا يُبارى ، وقدم دين الإسلام الذي هو أكثر الأديان عقلانية وبساطةً ونفعاً ، وكان وسيلةً لهـداية الملايين والعديد من الأمم الكافرة في كافة أرجاء المعمورة . وحوّلهــا كلها إلى أُخوة عامة متحدة تكوّن « مملكة الله » الحقيقية والرسمية على الأرض التي نادى بها عيسى ويوحنا المعمدان . ومن العبث والصبيانية مقارنة عيسى أو يوحنا برسول الله العظيم عندما نعرف كل المعرفة أنه لم يحاول أي منهما قط تحويل كافرٍ واحد عن دينه ، ولا نجح في إقناع اليهود بالاعتراف برسالته .

الأنبياء الحقيقيون يبشرون بالإسلام فقط

لا توجد أُمّة يعرفها التاريخ تشبه شعب إسرائيل الذي أُصيب بوباء عددٍ كبير من المتنبئين الكذبة خلال فترة تقل عن أربعمائة عـــام . ناهيك عن المشعوذين والعرّافين وكل ضروب السحرة والسحر ، وكان الأنبياء الكذبة على نوعـــين :

أُولئك الذين ادعوا أنهم يؤمنون بتوراة (شريعة) يهوه ويعتنقون دينه ، وتظاهروا بالتنبـــؤ باسمه .

وأُولئـــك الذين تنبأوا تحت حماية ملك إسرائيلي وثني ، باسم بعل أو الآلهة الأخرى للشعوب المجاورة . ومن الصنف الأول عدد من الدجالين الذين كانوا يعاصرون الأنبياء الحقيقيين مثل « ميخاو ، وإرميا » ، ومن الصنف أو الفئة الثانية كان أُولئك الذين سببوا المتاعب لإيليا وتسببوا في مذابح الأنبياء والمؤمنين الحقيقيين خلال حكم « آخاب وزوجته إيزابيل » . وكان أخطر هؤلاء على قضية الإيمـــان الحقيقي والدين الحـــق هم المتنبئون المزيفون الذين مارسوا الطقوس أو الصلوات الدينية في الهيكل وعند الأنصاب الحجرية وتظاهروا أنهم يتلقون وحـــي الله ويبلغونه للبشر . ولم يقـــاس أي نبي على يد هؤلاء الأفـّاقين من الاضطهاد والمشاق أكثر مما قاسى النبي « إرميا » .

وبينما كان « إرميا » شاباً ، بدأ رسالة النبوة في الربع الأخير من القرن السابع ق.م عندما كانت مملكة يهوذا في خطرٍ عظيم من الغزو على يد جيوش الكلدان ، ودخل اليهود في حلف مع مـــلك مصر . ولكن بسبب الهزيمة النكراء التي مُنِيَ بها فرعون مصر على يد قوات « نبوخذ نصّر » ، أصبح سقوط القدس مجرد قضية وقت ليس إلا ، وخلال هذه الأيام الحرجة التي كان سيتقرر فيها مصير شعب الله(١) ، كان النبي إرميا ينصح ملك اليهود وزعماءهم بقـــوة ، للخضوع وخدمة ملك بابل ، لعل في ذلك إنقاذاً للقدس من الحريق ، وللناس من النفي والأسر . وقد سكب جميع مواعظه

(١) يعني بهذا التعبير : اليهود .   [المعلق]

البليغة النارية في آذان الملوك والكهنة وكبار القوم دون جدوى . وَبلّغَ الرسالة تلو الرسالة من الله قائلاً : إن العلاج الوحيد لإنقاذ البلاد والشعب من الدمار الوشيك هو الخضوع للكلدان ، بيد أن تحذيراته لم تَجِدْ آذاناً صاغية .

ويجيء نبوخذ نصر ويأخذ المدينة ، ويحمل معه الملك والأمراء والعديد من الأسرى إضافة إلى جميع كنوز الهيكل بما فيها الأواني الذهبية والفضية . وعَيّنَ إمبراطور بابل على القدس أمراءَ واحداً بعد الآخر ، حكاماً تابعين له . وهذا الملك بدلاً من أن يتصف بالحكمة والولاء لسيده البابلي ، ثار ضد سيده هذا . واستمر إرميا يحذر الملك للبقاء موالياً،وللتخلي عن سياسته المصرية . لكن الأنبياء الكذبة ما برحوا يخطبون في الهيكل قائلين : « هكذا يقوى رب الجيوش ، انظروا لقد حُطِّم نيرُ ملك بابل ، وخلال عامين سيعود جميع الأسرى وأواني بيت الله إلى القدس » . ووضع إرميا نيراً خشبياً حول عنقه ، وذهب إلى الهيكل وأخبر الناس أن الله شاء بهذه الطريقة أن يضع نير ملك بابل حول رقاب جميع اليهود . ولطمه على وجهه أحد خصومه من الأنبياء وأخذ النير عن عنقه وكسّره تكسيراً ، وكرر خطاب الأنبياء الكذبة ، وألقى بإرميا في سرداب مليء بالوحل ، وكان طعامه اليومي لا يتجاوز رغيفاً جافاً من خبز الشعير ، إلى أن سيطرت المجاعة على المدينة التي حاصرها الكلدانيون ومات « حنانيا النبي المزيف » كما تنبأ بذلك إرميا . وحصلت ثغرة في أحد الأمكنة من سور المدينة ، واندفع الجيش الظافر إلى داخلها ، وأُلقي القبض على الملك الهارب « صدقيا » وعلى حاشيته ، وأُخذوا إلى ملك بابل . وبعد نهب المدينة والهيكل ، أضرمت فيها النار ، وأُخذ جميع سكان القدس إلى بلاد بابل ، ولم يُترك سوى الطبقات الفقيرة لفلاحة الأرض . وبأمر من نبوخذ نصر ، حصل إرميا على إنعام بالإقامة في القدس ، وكلف الحاكم « جِداليا » المعين حديثاً بحراسة النبي إرميا والعناية به . ولكن اليهود الثائرين قتلوا جِداليا ثم هربوا إلى مصر حاملين معهم إرميا . وقد أخذ يتنبأ حتى في مصر ضد الهاربين وضد المصريين ، ولا بد أن يكون قد اختتم حياته في مصر .

وكما هو معروف الآن ، فإن كتبه تختلف عن نص الترجمة السبعينية التي يتضح أنها هي النسخة التي أُخذَ عنها النص الأغريقي على يد المترجمين الإسكندريين ، وكان لها ترتيب مختلف للفصول .

ويعتبر نُقـــاد التوراة أن إرميا كان المؤلف ، أو على أية حال الجامع للكتاب الخامس من الأسفار الخمسة والمسمى التثنية . وأنا نفسي من هذا الرأي . وكان إرميا من اللاويين كما كان كاهنا ونبياً . وهناك الكثير من تعاليم إرميا في سفر التثنية ، وهي غير معروفة في تقيم كتابات العهد القديم ، وسأتناول أحد هذه التعاليم في موضوعي الحالي ، وإني لأعتبرها الدرر أو النصوص الذهبية في العهد القديم ، ويجب النظر إليها باحترام وتقديس .

وإنني أُسارع بعد هذا التفسير المفصل إلى النقطة الرئيسية التي اخترتها لموضوع هذه الحلقة وهو : كيف نميز النبي الصادق من النبي الكاذب ، وقد زَوَّدَنا إرميا بجواب شافٍ إلى حد كبير عن علامة النبي الصادق ، وهي :

« النبي الذي يبشّر بالإسلام »



في سفر التثنية (إصحاح ١٣ جملة ١ ـ ٥ ، وإصحاح ١٨ جملة ٢٠ ـ ٢٢) . يعطي الله تعالى بعض الأوصاف عن الأنبياء الكذبة الذين قد يتنبأون باسم الرب وبأسلوب خبيث لدرجة أن في وسعهم تضليل شعب الله ، وعلاوة على ذلك فإنه يقول لنـــا : إن أفضل الطرق للتعرف على أضاليل الأفـّاق أن نتوقع تحقق نبوءاته ثم نعدمه بعد أن يشيع أو يُعرف كذبـُه . ولكن كما هو معروف جيداً أن الجهلة يعجزون عن التمييز بين النبي الصادق والكاذب ، كمقدار عجزهم هذه الأيام عن التعرف بصورة دقيقة : أيٌّ من الاثنين : الراهب الكاثوليكي ، أو الخوري « الكَلْفَني » هو التابع الحقيقي ليسوع المسيح . كذلك فإن النبي المزيف يتنبأ أيضاً بأحداث ويجترح الخوارق ويقوم بأشياء دينية أُخرى مشابهة من حيث المظهر على الأقل لتلك التي يقوم بها النبي الحقيقي . والتنافس بين النبي موسى وسحرة مصر مثال جيد ، وبرهان قاطع على هذا القول . وهكذا فإن إرميا هو أفضل من يعطينا أحسن الطرق لاختبار صدق أي نبي وأصالته . وهذه الطريقة هي نهج الإسلام ، ويرجى منكم قراءة جميع الإصحاح الثامن والعشرين من سفر إرميا ثم فكروا وتأملوا في الجملة التاسعة منه .

« إن النبي الذي تدور نبوءاته حول الإسلام (شالوم) عند ورود كلمة النبي ، ذلك النبي هو المعروف أنه المرسل من قبل الله بالحـــق»(إرميا ٢٨ / ٩) .

والترجمة حرفية جداً ، فالفعل الأصلي « نبـــأ » ويترجم عادة بمعنى التنبؤ ، والاسم هو « نبي » (Nabi) وقد أعطى هـذا الإسم الانطباع بأن النبي شخص يتنبأ بأحداث المستقبل والماضي عن طريق الوحي الإلهـــي . وهذا التعريف لا يصح إلا بصورة جزئية . فالتعرف الكامل لكلمة نبي يجب أن يكون « الشخص الذي يتلقى الإيحاءات أو الرسائل من الله ويبلغها بأمانة إلى الشخص أو الناس المقصودين » ومن الواضح أن الرسالة الإلهية ليس من الضروري أن تكون تنبـؤاً بأحداث الماضي والمستقبل. وبنفس الطريقة ، فإن فعل « يتنبأ » لا يعني بالضرورة كشف الأحداث الماضية أو المستقبلية ، ولكن يعني مجرد التبشير بالرسالة من الله أو بنشرها ، وبالتالي فإن النبوة تعني تلقي وحـــي جديد ثم تبليغه بغضّ النظر عن طبيعته وخصائصه . وإن قراءة كلمات أي نبي لا تعني التنبوء أكثر مما تعني تبليغ النبي للوحي وهو يتلو خطبة أو موعظة عامة من تلقاء نفسه . وفي القرآن يأمر الله محمداً عبده المحبوب أن يعلن « إنما أنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحىٰ إليَّ . . . » الخ الآ ية : ١١٠ من سورة الكهف .

لذلك علينا أن نحذر من أن ننسب لأي نبي من الأنبياء صفة المعرفة والإحاطة بكل شيء من خلال الوحي . وكان من عادة الوحي الإلهي أن ينزل على فترات بينما يكون الأنبياء في أحاديثهم الشخصية ومعارفهم الخاصة عرضة للخطأ ؛ فالنبي لم يبعثه الله ليعلم البشرية الفيزياء أو الرياضيات أو أي علم وضعي آخر . وليس من العدالة أن نلوم أي نبي لعثرةِ لسان أو غلطةٍ ارتكبها ، كواحد من البشر .

لذلك فالنبي عرضة للاختبار والامتحان فقط عندما يقوم بتبليغ الرسالة التي تلقاها من ربه بصورة أساسية معينة . أما شؤونه الخاصة ، واهتماماته العائلية وممارساته الفردية ، فلا تهمنا بقدر ما تهمنا رسالته ووظيفته . ولمعرفة ما إذا كان النبي صادقاً أو دجالاً ، ليس من العدالة إعطاء قرار ضد طابعه التنبـّؤي ؛ لأنه قيل عنه إنه كان قاسياً أو فظاً بعض الشيء مع والدته ، أو لأنه كان يؤمن بالوحي الحرفي والتأليف الموسوي للأسفار الخمسة . وفي إبداء هذه الملاحظة يخطر ببالي حالة عيسى المسيح وكثيرين غيره في تاريخ إسرائيل حول نقـــاط أخرى .

ومن سوء النية أن نتهم الأنبياء بالشهوانية والفظاظة والجهل في العلوم وما إلى ذلك من نواحي ضعف الشخصية ، فَهُمْ بشر مثلنا وعرضة لنفس الميول والانفعالات الطبيعية ، وقد عصمهم الله من الكبائر(١) ومن تحريف الرسالات التي كان عليهم إبلاغها . وعلينا أن نحذر كل الحذر من المبالغة في رفع أقدار رسل الله في خيَالِنا ، لئلا يغضب الله علينا ، فكلهم مخلوقاته وعباده ، وقد أنجزوا مهامهم ورجعوا إليه ، وفي اللحظة التي ننسى فيها الله ونقصر محبتنا وإعجابنا على شخص واحد من رسل الله ، فإننا نكون على خطر الوقوع في الشرك .

والآن ، وبعد أن قمت بشرح ما يتعلق بالنبي والنبوة من حيث طبيعة وأهمية كل منهما ، فسأحاول الآن أن أُثبت أنه لا يمكن أن يكون النبي صادقاً إلا إذا بشر بدين الإسلام ونشره كما يقول النبي إرميا بوضوح .

ومن أجل فهم أفضل لمعنى وأهمية العبارة التي نحن بصددها ، فما علينا سوى إلقاء نظرة خاطفةٍ على الكلام السالف الذكر ، حيث يقول إرميا لخصمه حنانيا « إن الأنبياء الذين جاؤوا قبلي وقبلك منذ القدم تنبأوا ضد كثير من البلدان وضد ممالك عظيمة حول الحروب والشرور والطواعين » ثم يستمر قائلاً :

---

(١) العصمة : قول المؤلف إن الله عصم الأنبياء من الكبائر ، يوهم أنهم غير معصومين من الصغائر ، ولنفي هذا الوهم ، نقول : إن جمهور الفقهاء على أن الأنبياء معصومون من الصغائر كلها كعصمتهم من الكبائر أجمعها . وقد أُمرنا باتباعهم في أفعالهم وآثارهم وسيرهم أمراً مطلقاً ، فلو جوّزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم ، ولا يصح أن يؤمر الإنسان بامتثال أمرٍ قد يكون معصية . .

وقال أبو إسحاق الأسفراييني : لا يقع من الأنبياء ذنوب ؛ لأنهم معصومون من الكبائر والصغائر ، وذلك مقتضى دليل المعجزة . ا . هـ . وإذا وقع من أحدهم خطأ عاتبه الله عليه ، وأرشده إلى الصواب . ولكن هذه الأخطاء لا تتصل بأُمور اعتقادية أو خُلُقية وإنما في الأمور التقديرية من شئون الدنيا والسياسة التي تتفاوت فيها الأنظار .

انظر (العقائد الإسلامية ــ سيد سابق) و (عقيدة المسلم ــ محمد الغزالي) . [المعلق]

« إن النبي الذي تدور نبوءاته حول الإسلام ، كلما وردت كلمة النبي ، فإن ذلك النبي هو المعروف بأنه المرسل من قبل الله بالحق » .

ولا يمكن إثارة اعتراضات خطيرة ضد الصياغة الإنجليزية لهذه العبارة سوى كلمة الشالوم (El - Shalom) التي ترجمتُها أنا على أنها « تتعلق بالإسلام » لذلك فإن حرف « إل » قبل (Shalom) معناه « حول » أو « فيما يتعلق بـ » ويجعل المبتدأ أو الفاعل Subject في حالة النصب (objective Case) وليس في حالة المفعول الأول (dative) كحالة ما إذا كان الخبر (Predicate) فعلاً مثل (Come) ، أو (go) أو (give) .

ومن الحقائق المسلم بها أن كلمة « شالوم » « وسلام السريانية » « وإسلام » ، كلها من نفس الجذر السامي « شلام » وتحمل نفس المعنى ، وهذا أمر يعترف به جميع علماء اللغات السامية . وفعل « شلام » يدل على الخضوع أو الاستسلام ، ثم تحقق السلام ، حتى يكون المرءُ سالماً سليماً وهادئاً . ولا يوجد أي نظام ديني في العالم يحمل اسماً أو وصفاً أفضلَ وأشملَ وأكثرَ هيبةً وسمواًّ من الإسلام . فالدين الحق ، لله الحق ، لا يمكن أن يسمى باسم أيٍّ من عباده ولا أن يُدعى باسم شعب معينٍ أو اسمِ بلدٍ معين . إن هذه القداسة والعصمة لكلمة إسلام ، هي التي توقع الرعب والخوف والاحترام في قلوب أعدائه ، حتى عندما يكون المسلمون ضعافا وخانعين . إن اسم الدين وعنوانه هو الذي يُعلِّم ويأمر بالخضوع والاستسلام المطلق للكائن الأعظم (الله تعالى) ثم بعدها الحصول على السلام والهدوء داخل العقل وداخل البيت مهما كانت الاضطرابات والمصائب العابرة التي تهددنا ، هذا هو ما يملأ خصومه بالخوف(١)

(١) من المهم أن نلاحظ كيف أن تعليقات أُستاذ ضليع تتطابق مع ملاحظات قيصر ألمانيا السابق الذي خطب عند الاحتفال بعيد ميلاده السبعيني في مدينة « دورن » في هولندا قائلاً : « اذكروا واعلموا بأن المسلمين إذا اعتبروا أن أمر الله هو الزحف على الغرب المتداعي وإخضاعه لمشيئته ، فإنهم سوف يزحفون كموجةِ مدٍ هائلة يعجز أمامها حتى أعتى البلاشفة وأشدهم رغبة في القتال » . جريدة الإيفننج ستاندارد في ٢٦ / ١ / ١٩٢٩ م . [المؤلف]

وإن الإيمان الراسخ الذي لا يتزعزع بوحدانية الله وثقة المسلم القوية برحمة الله وعدالته هي التي تجعل المسلم متميزاً بين غير المسلمين . وهذا الإيمان الصحيح بالله والولاء الخالص لقرآنه الكريم ورسوله ، هي الأهداف التي كان ومازال المبشرون النصارى يهاجمونها باستماتة ، والتي لقوا فيها أشد أنواع الإخفاق . ومن هنا فإن كلمات إرميا أن « النبي الذي يتنبأ ، أي يعظ ويتكلم ، حول أمور الإسلام وهو دينه الذي يبشر به ، فإنه سرعان ما سيعرف أنه مرسل من الله بالحق » .

ولذلك فلنأخذ باهتمام عميق النقاط التالية :

١ — إن النبي إرميا هو النبي الوحيد قبل المسيح الذي استخدم كلمة « شالوم » بمعنى الدين ، وهو النبي الوحيد الذي يستخدم هذه الكلمة بهدف إثبات صدق أحد رسل الله . وحسب الوحي القرآني ، فإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وجميع الأنبياء كانوا مسلمين واتخذوا الإسلام ديناً لهم . وإن كلمة الإسلام ومرادفاتها (شالوم وشلاما) كانت معروفة لليهود وللنصارى في مكة والمدينة ، عندما ظهر محمد لإكمال ونشر دين الإسلام بين الناس كافة ، والنبي الذي تنبأ بالسلام كشرط مجرد غامض مؤقت ، لا يمكن أن ينجح عن هذا الطريق في إثبات هويته ، والواقع أن نقطة الخلاف أو بالأحرى المسألة القومية الحساسة التي اختصم فيها نبيان بارزان معروفان لدى البلاط والأمة مثل إرميا وحنانيا (إرميا إصحاح ٢٨) لا يمكن البت فيها بصورة حتمية بإثبات أحدهما وإنكار الآخر ، حول الكارثة الوشيكة ، وإن تنبؤ إرميا « بالسلام » عندما كان طيلة الوقت يتنبأ بالكارثة القومية العظيمة — سواء باستسلام الملك « صدقيا » للحاكم الكلداني أو بمقاومته — لن تعني فشله فقط ، ناهيك عن الكلام عن نجاحه في البرهنة على صدقه ، بل إنها أيضاً تجعل منه أضحوكة ؛ لأنه في كلتا الحالتين لن يكون سلامُهُ المزعوم سلاماً أبداً . وعلى العكس ، فإذا قاوم اليهودُ الجيش الكلداني فإن ذلك يعني خراباً قومياً كاملاً لهم ، وإذا استسلموا فإن ذلك يعني عبودية غير مشروطة . لذلك من الواضح أن إرميا يستخدم كلمة شالوم بمعنى نظام مادي وحقيقي يتكون منه السلام . ولمزيد من التوضيح ، علينا أن نصغي باهتمام لحجج النَّبِيَّين المتخاصمين حول القضية القومية التي يتناقشان ويختصمان فيها أمام الملك الشرير وحاشيته من المتملقين الأرذال والمنافقين الحمقى ، فإرميا يحمل في

قلبه دعوة الله ودينه دين السلام . ومن أجل المصالح الحيوية لدين السلام أو الإسلام ، فإنه ينصح الملك الشرير ورجال حاشيته بالخضوع لنير بابل وخدمة الكلدان من أجل البقاء على قيد الحياة ؛ لأنه ليس من سبيل آخر مفتوح أمامهم ، لقد هجروا.رب أجدادهم ودنسوا هيكله وسخروا من أنبيائه واقترفوا المساوىء والخيانة ٢ سفر التواريخ ٣٦ . . الخ وهكذا فقد أوقعهم الله في أيدي « نبوخذ ـ نصر » ولن ينقذهم منها . وبالنسبة لعبد الله الصادق المخلص فإن الدين يأتي أولاً والأمة بعد ذلك ، ولهذا فإن ما وجبت التضحية به حينذاك هي الحكومة والأمة ـ لاسيما بعد أن تخلت كل منهما عن الله ـ وذلك من أجل الدين وليس العكس . أما النبي الآخر من « جبعون » وهو المسمى « حنانيا » فقد حاول إرضاء سيده الملك ، وهو كان أحد رجال البلاط المقربين يتمتع بالغِنى والأبّهة ، بينما كان خصمُه دائماً يَتضَوَّرُ جوعاً في السجون والأقبية . لقد كان لا يهتم قط بالدين أو المصلحة الحقيقية للشعب . وقد وصف بأنه نبيّ ، بناءً على ما جاءَ في سفر إرميا ، بينما هو أحد الأوغــاد ، وقد استبدل بالله ملكاً أحمق ؟ ونبوءاته تأتي باسم الإله نفسه الذي تنسب إليه نبوءات إرميا ، ولا يفتأ يعلن عن عودة الغنائم والأسرى من بابل خــلال عامين .

والآن ، من خــلال هذا الوصف الموجز للنّبيّين ـ حسبما تقدم ذكره ـ أيهما يستحق أن يوصف بأنه عبد الله حقاً والمدافع المخلص لدين الله ؟ من المؤكد أن إرميا سوف يجتذب عطفك واختيارك بلا تردد .

٢ ـ إن دين السلام ـ أي الإسلام وحده ـ هو القادر على تحديد خصائص ووظيفة النبي الحقيقي أو الإمام أو أي قائم بأمر الله في الأرض . إن الله واحد ، ودينه واحد ، ولا يوجد دين آخر في العالم كالإسلام يَتَبنّى ويدافع عن هذه الوحدانية المطلقة لله ، لِذلك فإن من يضحي بكل مصلحة أُخرى ويحب قضية هذا الدين المقدس وَيُجلّه ، فإنه هو النبي الحــق والمبعوث من قبل الله بلا مراء . ولكن ثمــة شيئاً آخر جدير باهتمامنا وهو ما يلي : إذا لم يكن دين الإسلام معياراً ومقياساً نقيس به صدق رسول الله أو القائم بأمره ، فإنه ليس هناك من مقياس آخر يفي بذلك الغرض . والمعجزة ليست دائماً بالبرهان الكافي ؛ لأن المشعوذين أيضاً يفعلون العجائب . كما أن

تحقق النبوءة أيضاً ليس بالبرهان الكافي في حد ذاته ، لأنه كما أن الروح القدس يكشف عن حادث مستقبلي لنبي صادق ، فإن الروح الشريرة أيضاً تفعل الشيء نفسه بالنسبة للدّجال . ومن هنا يتضح أن النبي الذي يتنبأ حول السلام – أي الإسلام باعتباره اسماً للعقيدة ومنهجاً للحيـــاة – ، فور تلقيه الرسالة من الله ، فإنه يُعرف حينئذ بأن الله هو الذي أرسله ، هكذا كانت الحجة التي اعتمد عليها إرميا ، والتي حاول عن طريقها إقناع سامعيه بكذب حنانيا . لكن الملك الشرير وحاشيته لم يستمِعوا لكلمة الله ولم ينصاعوا لهـــا .

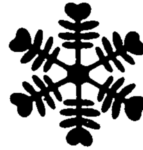
٣ – كما ذكر في الفقرة السابقة ، يجب أن نلاحظ أنه لا تَحقُّق النبوة ولا اجتراحُ المعجزة كان كافياً لإثبات صدق أي نبي ، وأن الولاء والتمسك الشديد بالدين هو البرهان الأفضل والحاسم في ذلك ، وأن « شالوم » استخدمت للتعبير عن دين السلام . ومرة أُخرى فإننا نكرر نفس القول بأن « شالوم » ليس إلا « الإسلام » . وإننا نطالب أُولئك الذين يعارضون هذا التفسير أن يأتوا بكلمة عربية إضافة إلى الإسلام والسلام على أنها مكافئة أو مرادفة لشالوم ، وأن يجدوا لنا أيضاً كلمة أُخرى في العبرية إضافة إلى « شالوم » تعني كلمة الإسلام . ومن المستحيل الإتيان بمرادف آخر كهذا . لذلك فنحن مضطرون للتسليم بأن شالوم هي نفس سلام بالمعنى المجرد ، وإسلام كدين وعقيدة بالمعنى المـــادي الملموس .

٤ – بمـــا أن القرآن في سورة البقرة يذكّرُنا بوضوح بأن إبراهيم وأبناءه وأحفاده كانوا على دين الإسلام(١) ، وأنهم لم يكونوا يهوداً أو نصارى ، وأنهم بَشَّروا بعبادة الله الواحد والإيمـــان به ونَشروا ذلك ، وهو إله لجميع الشعوب التي عاشوا بين ظهرانيها ، فلابد لنا من التسليم بأنه ليس اليهود فقط بل أيضاً العديد من الأمم الأخرى التي تناسلت من أبنـــاء إبراهيم الآخرين ، والقبائل العديدة التي اعتنقت دينهم وذابت في محيطهم ، كان أبناؤها أيضاً مسلمين ، أي أنهم مؤمنون بالله ومستسلمون لمشيئته . لقد كان هناك قوم « عيسا » والأدوميون ، والمديانيون وعديد

---

(١) « مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » . (سورة آل عمران الآية : ٦٧) .

غيرهم من شعوب تعيش في بلاد العرب ممن عرفوا الله وعبدوه كالإسرائيليين ، وكان هؤلاء القوم أيضاً أنبياؤهم الدينيون مثل أيوب (حمي النبي موسى) وبلعام وهود وكثيرين غيرهم . ولكنهم كاليهود انحازوا إلى الوثنية إلى أن اجتثها أمير الأنبياء . وقد أنتج اليهود في حوالي القرن الخامس قبل الميلاد معظم كتبهم المقدسة المعترف بها ضمن العهد القديم ، عندما كانت ذكريات فتح أرض كنعان على يد يوشع وهيكل سليمان في القدس ، من الأحداث التي دفنت في الأحقاب الماضية من تاريخهم العجيب . وخيمت روح قومية يهودية من القلق والعزلة بين القليلين الباقين من بني إسرائيل ، وكان يسيطر عليهم الاعتقاد بقدوم المخلص العظيم لإعادة عرش داود وتاجه المفقود ، ولم يعودوا يتذكرون المعنى القديم لشالوم على أنه اسم دين إبراهيم المشترك بين مختلف الشعوب التي انحدرت من نسله ، ومن هذا المنطلق أَعتبِرُ هذه العبارة التي قالها إرميا واحدة من النصوص الذهبية في الكتاب العبراني المقدس .



الإسلام مملكة الله في الأرض

عند دراسة تلك الرؤيا المدهشة التي رآها النبي دانيال (الفصل السابع) رأينا (١) كيف أن « محمداً » كانت ترافقه مجموعات كبيرة من الكائنات السماوية ، وكيف قادته إلى الحضرة الربانية المجيدة ، وكيف سمع كلمات التكريم والمحبة التي لم يَحْظَ بها مخلوق (سِفْرُ الكورنثيين / ١٢) وكيف تُوِّج سلطاناً على الأنبياء وَخُوِّلَ السلطةَ لتدمير الوحش الرابع والقرن الكافر ، كذلك رأينا كيف مُنِحَتْ له السلطةُ لإقامة وإعلان مملكة الله على الأرض ، وكيف أن كل العبقرية البشرية القادرة على تصور التكريمات الرفيعة التي منحها الله تعالى إلى عبده المحبوب وأعظم رسله قدراً ، لا تمنح إلا لمحمد فقط ، ويجب أن نتذكر أنه من بين كل الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله ، يبرز محمد وحده وكأنه برج شامخ فوقهم جميعاً . وإن العبءُ الجسيم والعمل العظيم الذي أنجزه يقف كالتمثال أو النصب التذكاري الخالد الشاهد على مجده وعظمته . ولا يستطيع المرء أن يقدر قيمة الإسلام وأهميته كدعامةٍ فريدة ضد الوثنية والشرك ما لم يتم التسليم المخلص بوحدانية الله المطلقة ، وعندما ندرك بصورة كاملة أن الله هو الإلـــه الذي عرفه آدم وإبراهيم والذي عبده موسى وعيسى ، فإننا لا نلاقي صعوبة في تقبل الإسلام على أنه الدين الصحيح الوحيد ، والاعتراف بمحمد على أنه أمير جميع أنبياء الله وعباده . وإنه لا يعتبر من باب التعظيم لله ، الاعتراف به « كأب » حيناً ثم في وقت آخر « كابن » وفي مرة ثالثة « كروح قدس » ، أو أن نتصور وجود ثلاثة أشخاص فيه يخاطب بعضهم بعضا بضمائر المتكلم والمخاطب والغائب ، لأننا إذا فعلنا ذلك فإننا نفقد كل مفهوم حقيقي للكائن المطلق (الله تعالى) ولا نَعودُ نؤمن بالإلـــه الحقيقي . وفي نفس الوقت فإننا لا يمكن أن نضيف أي شيء لقدسية الدين بافتعالنا بعض الطقوس أو الأسرار ، ولا نستطيع أن نكتسب أي غذاء روحـــي عن

(١) راجع مجـــلة « إسلاميك ريفيو The Islamic Review » المجلد ٥ ، ٦ عـــام ١٩٢٨ م .

طريق اعتمادنا في هذا الغذاء على جسد النبي أو الإلــه المتجسد . لأننا إذا فعلنا ذلك سنفقد كل فكرة عن الدين الحقيقي الصحيح ولا نعود نؤمن بالدين إطلاقا .

كما أننا لا نستطيع أن نرفع من قدر محمد (ﷺ) إذا كان علينا أن نتصور أنه ابن الله أو إلــه متجسد . لأننا عندئذ سوف نفقد كلية النبي الحقيقي التاريخي في مكة ونَسقُطُ دون وعــي في هوة الشرك . إن عظمة محمد تأتي من كونه أقام هذا الدين القويم البسيط الصحيح ؛ وبالممارسة العملية التطبيقية لمبادئه وتعاليمه بدقة وتصميم ، يكسب المسلم الصادق قناعة بدينه ، ومناعة من أن يقبل أية عقيدة أخرى سوى العقيدة التي تتضمنها شهادة أن « لا إلــه إلا الله وأن محمداً رسول الله » وهذه العقيدة المختصرة سوف تظل عقيدة كل مؤمن حقيقي بالله حتى يوم الدين .

إن المجاهد العظيم الذي دمر القرن الحادي عشر، والذي كان يمثل قسطنطين وكنيسة التثليث ، لم يكن ابن الله ولكن « ابن الإنسان » ، لم يكــن سوى محمد المصطفى الذيأسس وأقام فعلاً مملكة الله على الأرض . هذه مملكة الله التي علينا الآن أن نتفحصها ونشرحها . ولابد أن نتذكر ، أنه عند مثول سيد الأنبياء بين يدي الله ، كما ورد في سفر دانيال ، صدر الوعد الإلهي التالي :

« إن ملــكوت وعظمة المملكة الممتدة تحت رقعة السماء كلها سوف تعطى لعباد الله تعالى وأوليائه . وسيكون ملكوتهم هذا مملكة أبدية ، تخدمها جميع الممالك الأخرى وتعمل بطاعتها » (دانيال / ٧ / ٢٢ ، ٢٧) .

وإن التعابير في هذه الرسالة التنبؤية القائلة : إن ملكوت الله سوف يتكون من « عباد الله تعــالى وأوليائه » وجميع المَمالك أو القــوى الأخرى سوف تخدمهم وتطيعهم ، لتدل بوضوح على أنه في الإسلام توجد وحدة لا انفصام لها بين الدين والدولة . فالإسلام ليس دين الله وحسب ، بل إنه أيضاً مملكته الدنيوية أو إمبراطوريته . ولنكون قادرين على تكوين فكرة واضحة صحيحة حول طبيعة وتكوين مملكة الله على الأرض ، لابد من إلقاء نظرة خاطفة على تاريخ دين الإسلام قبْلَ أن يكتمل ويتم وتترسخ أسسه بصورة نهائيه كما أراده الله ، على يد رسوله محمد ﷺ :

١ ـ الإسلام قبل محمد لم يكن مملكة الله على الأرض ، بل دين الله الحقيقي فقط :

إن أولئك الذين يعتقدون أن دين الله الحق ، مقصور على ما أوحى الله به إلى إبراهيم فقط ، وأن بني إسرائيل وحدهم ، هم الذين استحوذوا على هذا الشرف واستأثروا به دون سواهم ، لابد أن يكونوا تلاميذ جهلة لمدونات العهد القديم ، وإن فكرتهم عن طبيعة ذلك الدين خاطئة جداً ، فقد قدم إبراهيم نفسه الأعشار لملك القدس وإمامها (١) وباركه ، (سفر التكوين ١٤/١٨) كما أن حما موسى كان أيضاً إماماً وأحد أنبياء الله . وإنّ أيوب ، وبلعام ، وعاداً وهوداً ولقمان وكثيرين غيرهم من الأنبياء لم يكونوا يهوداً . وإن مختلف القبائل والشعوب كالإسماعيليين والمؤابيين والعمونيين والأدوميين وغيرهم ممن انحدروا من سلالة إبراهيم ولوط ، عرفوا الله تعالى ، وإن كانوا أيضاً كالإسرائيليين قد انغمسوا في الوثنية والجهل . غير أن الإسلام أبداً لا ينطفىء نوره بالكلية أو يُفسِحَ مكانه للوثنية . وإن الأصنام والتماثيل التي كانت تعتبر مقدسة وآلهةَ أسَرٍ من قبل اليهود وذوي قرباهم من الأمم ، والتي كانت تعرف في العبرية عادة « ترافيم » (تكوين / ٣٠) ، كانت في رأيي المتواضع من نفس طبيعة وخصيصة التماثيل والأصنام التي يقتنيها ويعبدها النصارى الكاثوليك في بيوتهم ومعابدهم . وفي تلك الأيام الجاهلية القديمــة كانت الأصنام تمثــل نوعــاً من « بطاقات الهوية » أو جوازات السفر . أليس مما يلفتُ النظر أن نجد أن « راحيل » زوجة يعقوب وابنة « لابان » كان عليها أن تسرق أوثان والدها ؟ (تكوين / ٣١) ، غير أن لابان وزوجها كانا مسلمين ، وفي نفس اليوم أقاما منصة عالية للعبادة وخصّصاها لله .

لقد كان اليهود في البرية ثملين بخمرة العجائب والمعجزات التي كانت تجري ليل نهار ، وكان معسكرهم مظللاً بغيمة عجيبة أثناء النهار ومُضاءً بعمود من النار ليلاً ، وكانوا يأكلون المن والسلوى ــ وعندما غاب موسى بضعة أيام (٢) على قمة جبل الطور

(١) في اللغة العبرية يدعى الواحد من هؤلاء الأئمة القدامى باسم « كوهين » ومعناها قسيس أو راهب عند المسيحيين ولايمكن أن يكون الحبر اليهــودي أبداً مماثلاً للقس المسيحي الذي يقوم بالطقوس الدينيــة . [المؤلف]

(٢) كانت غيبته أربعين ليلة كما جاء في القرآن . قال تعالى :
« وَإِذْ واعَدْنَا مُوسى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ » . البقرة / ٥١ . [المعلق]

الذي يلفه الضباب في سيناء سرعان ما صنعوا عجلاً من الذهب وعبدوه . وإنّ تاريخ ذلك الشعب العنيد من موت يوشع وحتى تتويج الملك داود أي حوالي أربعة قرون ، يحفل بسلسلةٍ من الانتكاسات المخزية نحو الوثنية . ولم ينقطع اليهود عن عبادة الأصنام إلا بعد انتهاء الوحي وشريعة كتابهم المقدس ، وذلك في القرن الثالث قبل الميلاد ، ومنذئذ أصبحوا موحِّدين . لكن إيمانهم بوحدانية الله — وإن كان يجعلهم موحدين — لا يخولهم لأن يستحقوا صفة مسلمين « لأنهم رفضوا بعناد كلاً من عيسى ومحمد وما أنزل عليهما » ، ولا يستطيع المرء الحصول على السكينة ويصبح مسلماً إلا إذا استسلم لله ، وإلا فإن الإيمان بغير طاعة ولا خضوع ، مشابه لإيمان الشياطين الذين يؤمنون بوجود الله ولكنهم مزعزعون .

وبما أنه ليس لدينا سجلات عن الشعوب الأخرى الذين أكرموا بالتنزيلات السماوية وبالأنبياء الذين أرسلهم الله هم والأئمة الذين ظهروا فيهم ، فإننا سوف نكتفي بإعلانِ أن دين الإسلام وجد عند شعب إسرائيل والشعوب العربية القديمة . وفي بعض الأحيان كان أشدّ تألقاً ، ولكنه في معظم الأوقات كان يشبه الفتيلة التي ترتجف أو الشرارة الخافتة التي تلمعُ في غرفة مظلمة . لقد كان ديناً اتّبعهُ قوم سرعان ما نسوه أو أهملوه أو حولوه إلى ممارسات وثنية . ولكن على أية حال فقد كانوا دائماً من الأفراد والأسر التي أحبت الله وعبدته .

ويبدو أن اليهود ولاسيما جماهيرهم لم تكن لديهم فكرة حقيقية عن الله والدين ، كما هي فكرة المسلمين عن الله والإسلام . وطالما كان شعب إسرائيل مزدهراً وظافراً في الحروب فإن « يهوه » كان دائماً مُعتَرفاً به ومَعبوداً . ولكن في أوقات البأساء كانوا يتخلون عنه ويَتّبعون إلـهَ أمةٍ أقوى أو أكثر ازدهاراً ، ويعبدون الصنم أو التمثال الذي يمثله ويرمز إليه . وإن الدراسة الدقيقة للكتب الدينية العبرية لتدل على أن اليهودي العادي كان يعتبر إلهه أحياناً أقوى أو أعلى ، وأحياناً أضعفَ من الآلهة التي كانت تتبعها الأمم الأخرى ، وإن ارتكاسهم السهل المتكرر إلى الوثنية ، يقيم الدليل على أن الإسرائيليين كانوا يحملون عن إلـههم « إيل أو يهوه » نفس الفكرة التي كان يحملها الأشوريون عن إلههم « آشور » ، والبابليون عن « مردوخ » ، والفينيقيون عن « بعل » . وباستثناء الأنبياء والمتصوفةِ ، فإن مسلمي التوراة ،

وإسرائيل شريعة موسى ، لم يرتفعوا إلى مستوى قداستهم أو يصلوا إلى فهمٍ حقيقي لإلههم . وإن الإيمان بالله ، والاعتقاد الراسخ والتصديق بالحياة الأخرى لم يكن متجذراً وراسخاً في نفس ذلك الشعب وقلبـــه .

إذن ما أبعد الفرق بين مسلمي القرآن والمؤمنين بالشريعة « المحمدية » (١) ، وبين مسلمي التوراة وشريعة موسى ؟ ؟ هل سبق أن شوهد أو ثبت بالبرهان أن شعباً مسلماً هجر مسجده وإمامه وقرآنه واعتنق أي دين آخر واعترف أن الله لم يكن إلهــاً ؟ ؟ من الأمور البعيدة الاحتمال جداً في الطائفة الإسلامية المحمدية ، مادام لديها كتاب الله، أن نجـــد الجامع والإمام أو « الملاّ » ، يتحول إلى الوثنية أو حتّى إلى النصرانية .

إني أعرف عن بعض الأسر المسماة بالتتارية قد اعتنقت المذهب الأرثوذكسي في روسيا . ولكـن بإمكاني أن أؤكد لقرائي استناداً إلى مصادر وثيقة أن هؤلاء « التتار » كانوا من المغول الذين كانوا لا يزالون كفاراً أو حديثي عهد بالإسلام وذلك بعد فترة طويلة من إخضاع روسيا وتأسيس باطوخان للـ « ألتين أوردو » كما يبدو أنهم كانوا قد أرغموا على اتباع الكنيسة الروسية أو تَـمَّ إقناعهم بذلك . وبهذه المناسبة فإنه جدير بالذكر أن هذا الذي حدث إنما كان بعد اضمحلال قوة القبيلة الذهبية المسلمة « ألتين أوردو » على إثر غزوة « تيمور لنك » الكاسحة . وعلى العكس فإن التجار المسلمين سواء في الصين أو في قارة أفريقيا المظلمة ، كانوا دائماً ينشرون دينهم الحنيف ، وإن الملايين من الصينيين المسلمين السود ما هم إلا ثمرة جهـــود هؤلاء المبشرين المسلمين الذين لا يتقاضون أجوراً ويعملون بصورة غير رسمية . وواضح مما سلف ذكره أن الدين الحقيقي لله قبل « محمد » كان لا يزال في عهد طفولته ؟ وقد ظلّ غير ناضج وغير مُتكامل بين العبرانيين ، وإن كان قد سَطَعَ بشدة خلال أيام خُدّام « يهوه » الصادقين ، وبتوجيه من القضاة الـذين يخشون الله ، وكـذلك القضاة والملوك المتدينين من بني إسرائيل . لقد كانت الحكومة دائماً ثيوقراطية ، ومادام وحــي الأنبياء موضع ترحيب ، وتعاليمهم موضع التزام دقيق ، فقد كانت الأمـــة والدين ينتعشان معاً .

(١) وإن كلمة « محمدية » هنا مستخدمة لتمييزها عن الشريعة الموسوية وكلتاهما من عند الله تعالى .   [المؤلف]

لـــكن دين الله الحق لم يتخذ قـــط شكل مملكة الله كما اتخذ في ظل النظام القرآني الحاكم . فقد قرر الله بحكمته غير المحدودة أن دول الظلام الأربع الكبرى يجب أن تتعاقب بعضها وراء بعض قبل تأسيس مملكة الله الحقيقية ، وكان لابد من ظهور الحضارات والإمبراطوريات القديمة العظيمة للأشوريين والكلدان والميديين ، والفرس واليونان والرومان ، وازدهار هذه الحضارات واضطهاد شعب الله والتضييق عليه ، واقتران ذلك مع جميع الشرور والآثام التي يمكن أن يخترعها الشيطان . ولقد كانت كلُّ أمجاد تلك القوى العظمى قائمة على عبادتها للشيطان . وكان هذا هو « المجد » الذي وَعدَ أمير الظلام بإعطائه ليسوع المسيح من قمة جبلٍ عالٍ إذا وعد أن يتبعه ويعبده .

٢ ـ لقـــد بشر يسوع وتلاميذه بملـــكوت الله :

صحيح أنهم كانوا الرواد المبشرين بمملكة الله على الأرض ، وأن روح إنجيل عيسى وزبدته موجودة في تلك العبارة الشهيرة من صلاته « ليأت ملكوتك » . ولمدة عشرين قرناً كان النصارى من جميع الملل والنِّحَل يصلون ويرددون هذا النداء « ليأت ملكوتك » والله وحده يعلم كم سيظلون مستمرين في هذه الصلاة وينتظرون قدوم الملكوت عبثاً . وهذا التوقع المسيحي لمجيء مملكة الله هو من نفس طابع توقع اليهودية لظهور المسيح . ويعكس كلٌّ من هذين التوقعين خيالاً مستهتراً ويتصف بالرعونة ، ومن العجيب أنهم يتمسكون بهذا الأمل العقيم . وإذا سألت قسيساً نصرانياً أو راعي كنيسة رأيه في مملكة الله فإنه سوف ينمق لك الأقوال ذات الأشكال الخداعة العديمة المعنى . وسوف يؤكد لك أن هذه المملكة هي هي الكنيسة التي ينتمي إليها عندما تتغلب على بقية الكنائس الملحدة وتمتصها ، وسيُلقي قسيسّ آخر خطبةً طنانةً حول الفترة الألفية السعيدة . أما تابع الكنيسة المـُخلـّصية أو الكويكرية (الفرندز) فقد يقول لك إنه حسب اعتقاده ، فإن كنيسة الله سوف تتألف من النصارى الحديثي المولد والأبرياء من الخطايا ، الذين غسلهم ونظفهم دَمُ الحَمَل ، وما إلى ذلك ! ! . .

ولا تعني مملكة الله كنيسة كاثوليكية « متنصرة » أو دولة « بيوريتانية » متجددة معصومة من الخطأ . وهي ليست « مملكة خيالية للفترة الألفية السعيدة » ولا مملكة مؤلفة من كائنات سماوية بما فيها أرواح الأنبياء الراحلين والمؤمنين المباركين تحت حكم

حمل مقدس أو إلهي ، وشرطتها من الملائكة ، وقُضاتها وحكامها وضباطها وقادتها من الملائكة ، وكبارها من البابوات والبطاركة والأساقفة والوعاظ الإنجليين .

إن مملكة الله على الأرض عبارة عن دين ومجتمع قوي من المؤمنين بإلهٍ واحد ، مسلح بالإيمان والسيف للقتال من أجل وجودها واستقلالها الكامل عن مملكة الظلام ، وضد جميع أولئك الذين لا يؤمنون بوحدانية الله ، أو الذين يؤمنون بأن له ولداً أو أباً أو أماً أو شركاء أو أنـــداداً .

وأن كلمـــة Evangelion اليونانيـــة التي تقابل كلمة Gospel (إنجيـــل) بالإنجليزية ، تعني « إعلان الأخبار السارة » وكان هذا الإعلان إخباراً عن مملكة الله الوشيكة ، وكان أصغر مواطنيها شأناً هو يوحنا المعمدان . وقام هو نفسه والمرسلون بعدهُ بالوعظ ، وأعلنوا هذه المملكة لليهود ، طالبين إليهم أن يؤمنوا ويتوبوا لكي يدخلوها ، ولم يُبْطِل عيسى بالفعل شريعة موسى أو يغيرها بل فسَّرها بمعنى روحي ، وقد رحل عنها وهي غير نافذة ، وعندما أعلن أن الكراهية أساس القتل وأن الشهوةَ منبعُ الزنا ، وأن الجشع والنفاق من الآثام الممقوتة كالزنا ، وأن الرحمة والإحسان أكثر قبولاً من القرابين ومن مراعاة السبت بدقة ، فإنه من ناحية عملية ألغى منطوقَ شريعة موسى الحرفي من أجل معناها الروحي . وهذه الأناجيل المحرفة المشكوك في صحتها ، تتضمّن كثيراً من حكم المسيح وإشاراته إلى مملكة الله وإلى ابن الإنسان ، ولكنها مشوهةٌ محرفة لدرجة أنها نجحت ومازالت ناجحة في تضليل النصارى المساكين ودفعهم إلى الاعتقاد أن عيسى لم يقصد بمملكة الله سوى كنيسته وبأنه هو نفسه كان « ابن الإنسان » .

وسوف يجري بحث مستفيض لهذه النقاط الهـــامة فيما بعد إن شاء الله ، ولكن في الوقت الحاضر سأكتفي بالقول إن ما أعلنه عيسى كان الإسلام ، وإن الإسلام هو مملكة الله ، وإن محمـــداً كان « ابن الإنسان » الذي بُعث للقضاء على الوحش وتأسيس دولة قوية تقـــوم على الجماعة المؤمنـــة بالله العلي القدير ، المؤلفة من أولياء الله وعباده الصالحين .

وحتى مجـــيء عيسى المسيح فإن دين الله كان محصوراً فقط في بني إسرائيل ، وكان أكثر مادية وذا طابع أكثر قومية . وقد شوه هذا الدينَ مشرعوه وأحباره

و كُتّابهُ وذلك بإدخال كتابات بدائية وأسطورية من تقاليد وأحاديث أجدادهم ، وندد المسيح بهذه التقاليد وشجب اليهود وزعماءهم على أنهم « منافقون » و« أبناء الشيطان » ، ومع أن شيطان الوثنية كان قد غادر إسرائيل ، إلا أن سَبْعَة شياطين قد استولوا على ذلك الشعب فيما بعد ، « متّى ١٢ / ٤٣ – ولوقا ١١ / ٢٤ – ٢٦) .

وقد أصلح المسيحُ الدينَ القديم وأعطاه حياةً وروحاً جديدين ، وشرح بمزيدٍ من الوضوح لاأخلاقية الروح البشرية ، والقيامة والحياة في الآخرة ، وأعلن على الملأ أن المسيح الذي كان اليهود يتوقعونه لم يكن يهودياً ، ولا من سلالة داود ، بل كان ابن إسماعيل واسمُهُ أحمد وأنَّهُ سوف يقيم مملكة الله على الأرض بقوة كلمة الله ، وقوة السيف . وبالتالي فقد حصل دين الإسلام على حياة جديدة ونور وروح جديد ، كما أنه كان يحث أتباعه على التواضع وإظهار التسامح والصبر ، وأخبرهم سلفاً عن الاضطهادات والاضطرابات وحوادث الاستشهاد والسجون . وقد لقي النصارى الأوائل – كما يسمي القرآن من آمنوا بالمسيح والإنجيل – عشرة اضطهادات مروعة تحت حكم أباطرة الرومان . ثم جاء قسطنطين الكبير وأعلن الحرية للكنيسة ولكن بعد قرارات مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م وإعلان مبدأ الثالوث ، وتعرض المسلمون الموحدون (١) إلى مزيد من الاضطهاد بصورة أشد من ذي قبل على يد أنصار التثليث ، حتى جاء محمد صلوات الله عليه وسلامه .

٣ – طبيعـة مملـكة الله وتكوينها :

هنـاك نشيد علوي إسلامي يرتل كل يوم خمس مرات من المـآذن والمساجد في كل أصقاع المعمورة التي يقطنها المسلمون . ويتبع هذا النشيد عبادة لله في غاية الجدية من قبل أتباعه المؤمنين . وهذا النشيد العلوي الإسلامي يسمى « الأذان » . ولا يقتصر الأمر على ذلك بل إن كل عملٍ ومشروعٍ وشغلٍ ، مهما كان بسيطاً ، يبدأ بكلمتي « باسم الله » وينتهي بكلمتي « الحمد لله » وتعني العبارة الثناء لله وحده . هذه الرابطة الإيمانية التي تصل المسلم بمليكه السماوي قوية ، والترابط بين الحاكم ورعاياه متين لدرجة لا تستطيع معه أية قوة مهما كانت جذابة أو مغرية أن تفصله عن الله ،

(١) لم يُفوّض عيسى أتباعه أبداً بأن يسمّوا أنفسهم مسيحيين ولا يوجد لقب أفضل للموحدين الأوائل من لقب « مسلمين » . [المؤلف]

وقد جاء في القرآن الكريم : (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ) . .

ولا يوجد أي تابع مفضل لدى سيده يحمل من المحبة والأخلاق والطاعة والاحترام لهذا السيد الرحيم قدر ما يحمل المسلم لربه . إن الله ملك السماوات والأرض وملك جميع الملوك وسيد السادة طراً . وهو ملكُ كلٍّ مسلمٍ بصورة خاصة وسيده ؛ لأن المسلم وحده هو الذي يشكر ويحمد مليكه ، تعالى شأنه في مواجهة كل ما يحدث له سواءً كان خيراً أم شراً .

وهناك مالا يقل عن ثلاثمائة مليون مسلم فيهم نفس المشاعر – بدرجات متفاوتة – من الإيمان والثقة بالله .

لذلك من الواضح أن طبيعة الإسلام تتكون في جوهرها من مملكة دينية صحيحة وحقيقية على الأرض . ولم تعد لله حاجة في إرسال مرسلين أو أنبياء لنقل إيحاءاته ورسائله للمسلمين ، كما جرت العادة بالنسبة لإسرائيل العبرية الأخرى ، لأن مشيئته منزلةٌ بصورة كاملة في القرآن الكريم ، ومطبوعة في عقول رعاياه المخلصين .

أما من حيث تكوين مملكة الله ودستورها ، فيجب ملاحظة النقاط التالية من بين أمور أُخرى :

(أ) إن جميع المسلمين يكوّنون أُمة واحدةً وأُسرة واحدةً وأُخوّةً واحدة . ولا حاجة لأن أرغم قرائي على دراسة مختلف الأقوال المقتبسة من القرآن والحديث حول هذه النقاط ، بل علينا أن نحكم على المجتمع الإسلامي ليس كما يطرح نفسه الآن ، بل كما كان في عصر محمد وخلفائه المباشرين . وكل فرد في هذا المجتمع عامل مخلص وجندي شجاع ومؤمن متحمس . كما أن جميع الثمار الشريفة لأي جهد ، إنما هي تخص الذي يكتسبها كحق له ، وإن كان الشرع يجعل من المستحيل على المسلم الحقيقي أن يكون فاحش الغنى(١) . ومن أركان الإسلام الخمسة

(١) لعله يقصد من ذلك أن الحقوق المتعلقة بالمال في نظام الإسلام من الزكاة والصدقات والنفقات وتفتيت الثروة بالميراث تقلّل من فرص تراكم المال وجعله دولة بين الأغنياء . .
فإذا ما جُمع المال من حلّه ، ووضع في محلّه ، وأُديت حقوقه . . فإن الإسلام لا يمنع تكاثره ووفرته . . وفي الحديث « نعم المال الصالح للرجل الصالح » فالشرط إذن هو الصلاح كسباً وإنفاقاً . . [المعلق]

المفروضة (١) ، إعطاء الزكاة وهي في الواقع تشمل معنى الصدقة والزكاة ، أو هي إعطاء اختياري وعطاء إجباري معاً . وفي أيام الرسول والخلفاء الأربعة الأوائل ، لم يُعرف عن أي مسلم أنه كان ذا ثروة هائلة (٢) ، وقد كانت الثروة القومية توضع في الخزانة العامة المسماة « بيت المال » وما كان المسلم ليترك عرضة للعوز والحاجة .

وإن اسم « مسلم » يعني حرفياً « صانع السلام » ولن تجد أي إنسان آخر أسْلَسَ قياداً وأكثر كرماً ومسالمةً من المسلم المخلص . ولكن في اللحظة التي يُهاجم فيها دينه وشرفه أو ممتلكاته فإنه يصبح خصماً مخيفاً . والقرآن واضح تماماً هنا إذ يقول : « ولا تعتدوا » والجهاد المقدس ليس حرباً عدوانية ولكنه حرب دفاعية . ومع أن اللصوص والقبائل التي تتعاطى السلب ، والرُّحَّل المسلمين ، أشباه البرابرة ، قد تكون لديهم بعضُ الأفكار الدينية والإيمان بوجود الله ، إلا أن الافتقار إلى المعرفة والتدريب الديني هما السبب الأساسي في ما يقترفون من رذائل وفساد . إنهم حالة شاذة ولا يمكن للمرء أن يكون مسلماً حنيفاً دون ثقافة وتدريب ديني .

(ب) وحسب وصف النبي دانيال فإن مواطني مملكة الله هم « جماعة القديسين » وفي النص الكلداني أو الآرامي الأصلي يوصفون بأنهم أُمة القديسين الأيليونيين "A'mma d'qaddishid I'lionin" وهي صفة تليق فقط بأمير الأنبياء وجيشه النبيل من المهاجرين والأنصار الذين اقتلعوا الوثنية من جزء كبيرٍ من آسيا وإفريقيا وقضوا على الوحش الروماني .

وجميع المسلمين الذين يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبأن الخير والشر كليهما من الله ، ويؤدون فروضهم الدينية قدر استطاعتهم وبنية حسنة ، يعتبرون أولياء مكرمين ومواطنين مباركين في هذه المملكة . ولا يوجد جهل ديني أشد

---

(١) إن الجهاد في سبيل الله هو أحد الفروض الدالة على الإيمان ولذلك فالأركان ستة لا خمسة . [المؤلف]

(٢) بل كان في الصحابة أثرياء مثل : عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام وغيرهم . . والإسلام لا يمنع ذلك ، كما سبق أن ذكرنا . [المعلق]

من الاعتقاد بوجود شخص اسمه الروح القدس يملأ قلوب أُولئك الذين تعمدوا باسم آلهة ثلاثةٍ كل منهم ثالث الثلاثة ، أو الثلاثة بمجموعها هي الثالث ، وهكذا ، يبارك المؤمنين بسخافاتهم . ويعتقد المسلم أنه لا توجد روح قدس واحدة ولكن توجد أرواح قُدُسٍ لا حصر لها من مخلوقات الله الأحـــد المسخرين لطاعته . إن المسلمين لا يُقدَّسون أو يُطَهَّرون بالتعميد أو الوضوء بل تزكو نفوسهم بجذوة الحماسة والشجاعة في دفاعهم عن ذلك الدين وقتالهم من أجـــله . وقال يوحنا المعمدان أو بالأحرى المسيح نفسه (كما في إنجيـل برنابا) : « إنني أعمدكم بالماء من أجل التوبة ، ولكـن الذي يأتي بعـــدي أقوى مني ، وسوف يعمدكم بالنـــار وبروح القـدُس » أجل . . بهذه الشعلة وبتلك الروح ، طهرّ محمد أُولئك الرُحَّل أنصاف البرابرة والوثنيين البدائيين ، وحَوَّلَهُـم إلى جيش من الأبرار الصناديد الذين حولوا بدورهم الكنيس المتداعي القـــديم ،والكنيسة المضمحلة ، إلى مملـــكة إلهية دائمة على امتداد الأرض الموعودة وفي بقـــاع أُخرى من العـــالم .

٤ – ديمـــومة مملـــكة الله ورفعة شأنها :

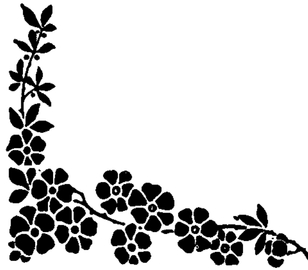
هذا أمر أكـّده أحد الملائكة لدانيالَ مرتين . ويقال إن جميع الأمم تحت قبة السماء سوف تخدم شعب الأبرار العامل بطاعة الله تعالى « ولا يحتاج الأمر إلى دليلٍ للقول بأن القُوى المسيحية الآن تبدي احتراماً ومراعاة خاصة عند الضرورة ، ليس للقوى الإسلامية والأماكن المقدسة والمساجد الإسلامية فحسب ، بل أيضاً للمؤسسات المحلية ولرعاياها من المسلمين ، ويكمن سر هذه « الخـــدمة » فيما يلي :

أولاً – إن المسلمين دائماً يثيرون الاحترام والرهبة من خلال سلوكهم المحترم وتعلقهم بدينهم وطاعتهم للقوانين العادلة ومسالمتهم .

وثانياً – لأن الحكومات المسيحية تعامل المسلمين عادة بِعَدالةٍ ولا تتدخل في قوانينهم ودينهم .

ولا يسمح لنا المجال بتوسيع ملاحظاتنا ، بحيث تشمل أُموراً أُخرى تتعلق بهذا الدين السماوي والمملكة الإلهية مثل خلفاء المسلمين وسلاطينهم . . . الخ .

ونكتفي بالقول : إن الحكام المسلمين يخضعون لنفس القوانين القرآنية التي يخضع لهـا مواطنوهم ، وإن العدالة والتواضعَ هي أفضل الضمانات لازدهار كلِّ دولة واستقرارها ، مسلمة كانت أو غير مسلمة ، وإن روحَ كتاب الله ومبادئه خيرُ مرشدٍ لكل التشريعات والحضارات .



الإسلام والأحمديات التى أعلنتها الملائكة

ثمة حادثان غريبان سجلهما اثنان من الإنجيليين ، لهما علاقة بمولد سيدنا عيسى (عليه صلوات الله وسلامه) . فقد ترك لنا كاتب الإنجيل « مَتَّى » رواية عن رحلة المجوس (magi) المدهشة حيث كان يوجههم نجمٌ من بلاد فارس نحو المذود في بيت لحم ، وفيه كان يرقد عيسى المولود حديثاً والذي « عبدوه » وأهدوه هدايا قيمة من الذهب والمُرّ والبخور . وإن المادة المركزة لهذا الحدث التاريخي أو القصة الخيالية للحكماء القادمين من الشرق ، تمثل أُسطورة مقبولة تتألف من أكثر من ستِّ عجائب كانت الكنيسة المسيحية وحدها هي القادرة على اختلاقها والإيمان بها . وحفظت الكنيسة نفس أسماء المجوس الذين كان يترأسهم الملك كاسبار ، وكانوا مزودين بإلهام إلهي ، وعرفوا أن الطفل الصغير في بيت لحم كان « إلهاً وحَمَلاً ومَلِكاً » ولذلك قدموا البخور له ، كما يقدمونه للآلهة ، وقدموا المُرَّ لدفنه قربانا ، والذهبَ من أجل خِزانته الملكية ؟ ؟ وإن رحلة السحرة الزردشتيين أو المنجمين الكلدان الطويلة عن طريق الاسترشاد بالنجم إلى القدس ، ثم اختفاء النجم عنهم هناك ، وارتجاف هيرودس الملك الحاكم اليهودي وسكان القدس وارتعاشهم لدى سماعهم خبر مولد الملِك الجديد ، وأنه لا يوجد سوى عبارة مفككة في كتابات النبي ميكا (٥ / ٢) تستطيع حل لغز المكان الذي حصلت فيه ولادة المسيح ، وأخيراً كون المنجمين قد عرفوا في منامهم أن الله يوجههم إلى عدم العودة إلى هيرودس ، كل ذلك في الواقع أعاجيب مدهشة لا يمكن أن تستسيغها إلا الخرافات النصرانية . ويتقدم موكب الحجاج الملكي إلى بيت لحم التي لا تبعد عن القدس سوى أميال قليلة ، وهناك يظهر النجم القديم المرشد ثانية ويقودهم قدماً حتى يقف تماماً فوق البقعة التي ولد فيها الطفل . والسرعة الخارقة التي حدثت بها الرحلة الطويلة من فارس إلى القدس ، حيث تمت بينما كان الطفل لا يزال في الإسطبل (لوقا ٢ / ٤ — ٧) تدلنا على أهمية المعجزة ! ! . .

وثمة أعجوبة أخرى مرتبطة بمولد المسيح وهي بين الحقيقة والخيال . . تقول : إنه بعد تلك المظاهرات جميعها في بلاط هيرودس، لم يتمكن أحد من أفراد الطبقات المثقفة في القدس أن يعرف العائلة المقدسة . وهذا الجهل المطبق كلف ذبح مئات من الأطفال الرضع في بيت لحم وضواحيها على يد هيرودس . وآخر معجزة – وإن كانت ليست الأخيرة – جرى التلميح إليها في هذه الرواية ، هي تحقُّقُ نبوءة أخرى من إرميا (٣١ / ١٥) حيث ظهرت راحيل وهي تبكي وتنوح على مذبحة أبناء أفرايم في الرامة وليس في بيت لحم . وقد حدث هذا منذ سبعمائة عام تقريباً عندما تم تهجير أبناء راحيل إلى بلاد آشور ، بينما كانت هي قد توفيت قبل وقت طويل ، حتى قبل هبوط زوجها يعقوب أرض مصر ؟؟ والقديس « متىَّ » وهو الوحيد الذي يعلم بين الحفظة والمؤرخين القدماء بهذا الحادث ، لم يخبرنا عن انطباعات الملك كاسبار ومنجميه بعد زيارتهم وحجِّهِم للمذود في بيت لحم . فهل كانوا مقتنعين أن ابن مريم كان ملكاً أم لا ؟ وإذا كانوا مقتنعين أن عيسى كان ملِكاً ، فلماذا إذن اضطهدت فارسُ النصرانيةَ حتى جاء الإسلام وتحولت إليه في القرن السابع الميلادي . . ؟ وليس صحيحاً أن الفرس لم يتلقوا معلومات وأضواء حول عيسى الناصري من سحرتهم ، وإنما علموا به فقط من الجيش الإسلامي الذي أرسله الخليفة الثاني عمــــر رضي الله عنه ؟ .

ولا أقصد الإنكار الكلي لحقيقة زيارة بعض المجوس الشرقيين إلى سرداب عيسى ، ولـــكني أقصد فقط إظهار رغبة الكنيسة العارمة أو طموحها إلى المبالغة في الحادِثة البسيطة في حياة يسوع المسيح ، وعرض بعض الخصائص الخارقة فيها .

والحدث الثاني الذي لا يقل عجباً ، والمتعلق بموضوعنا الحالي ، قد سجله الإنجيلي لوقا (٢ / ١ – ٢٠) . فقد كان بعض الرعاة يرقبون أغنامهم في حقل قرب بيت لحم في ذات الليلة التي ولد فيها عيسى في المذود ، ويعلن أحد الملائكة مولد « السيد المخلص » وفجأة ظهر حشد من الملائكة في السماء ينشد بأصوات عالية الترنيمة التالية :

المجـــد لله في الأعـالي
وعـــلى الأرض الســلام
وفــي النـــاس المســرة
(نشــيد ١٤)

هــذه الترنيمة الملائكية المعروفة بــ " Gloria in Excelsis Deo " والتي تُرتل في كافة الكنائس ذات الاتجـاه الكهنوتي خــلال احتفالها بالمراسم المقدسة ، ليست لسوء الحظ سوى ترجمة غامضة عن النص اليوناني الذي لا يمكن الركون إليه أو الوثوق به ؛ لأنه لا يبين لنـا الكلمات الأصلية في اللغة التي رتل بها الملائكة والتي فهمها الرعاة العبرانيون . ومن المسلَّم به كحقيقةٍ أن الحشود السماوية أنشدت أُنشودتها المفرحة بلغة الرعاة ، وأن تلك اللغة لم تكنْ اليونانية بل العبرية العامية أو بالأحرى الآرامية – وجميع الأسماء المذكورة في الكتب المقدسة لله والملائكة والسماء والأنبياء . . الخ معطاة لنا باللغات السامية (وهي العبرية والآرامية والعربية) . وإن التصور بأن الجموع السماوية رتلت باليونانية إلى الرعاة اليهود الجهلة في ضواحي بيت لحم أمر يعادل الاعتقاد بأن هذا الحشد الملائكي في السماء ، فوق جبال كردستان ، أنشدت ترتيلة مشابهة باليابانية كي يحاول استيعابها بعض الرعاة الأكراد أو يحتاروا في فهم معناها .

ومن المعجزات التي لا حصر لها والمسجلة في تاريخ بني إسرائيل ، ظهور ملاك إلى الرعاة البسطاء في بيت لحم ، وإعلان مولد النبي العظيم في تلك الليلة بالذات وسماعهم التهليلة الملائكية (هللويا) وحدهم دون أن يسمعها الأحبار والكتبة المتعجرفون . ولا يوجد في القصة ما يمكن اعتباره متناقضاً بحيث يُعَرِّضُ الرواية لعدم التصديق . ويمكن أن يظهر ملاك لأحد الأنبياء ويبلغه رسالةً من الله بِحُضورِ قومٍ آخرين دون أن يكون ذلك مفهوماً لهم . والرعاة الطيبون ذوو قلوب طيبة حسنة ، ولذلك كانوا أهلاً للتكريم الإلهي بسماعهم لتلك الترانيم . فمن وجهة نظر دينية لم يكن هنالك ما يدعو للتضارب أو عدم التصديق في هذا الحدث المدهش كما سجله القديس لوقا . ويبدي مؤلف هذه الرواية دقةً في أقواله وهو حريص دقيق في عباراته ، ويستخدم في كل

إنجيله أسلوباً يونانياً جيّداً جداً . ونظراً للحقيقة بأنه كتب كتابه بعد فترة طويلة من موت جميع الرسل ، وأنه قد تفحص « بمنتهى الدقة » الأعمال العديدة التي تتعلق بعيسى وإنجيله ، فإنه يبدو مرجحاً أنه كان على علم بأسطورة المجوس ، واستنكف كلية من تضمينها كتابه (١) ، ومذكور بدقة في الأناشيد الأربعة الأولى التي يفتتح بها الإنجيل الثالث أن الرسل الذين يدعوهم « شـــهود العيان وكهنة الكلمة » لم يكتبوا هم أنفسهم أية رواية عن السيد وتعاليمه ، ولكن اكتفوا على سبيل التقاليد بنقلها شفوياً إلى من جاؤوا بعدهم . كما يذكر أيضاً بوضوح أن المصادر التي استقى منها القديس لوقا في تأليف إنجيله كانت قصصاً متنوعة ألفها الرسل وغيرهم ممن كانوا شهود عيان لتلك الأحداث والتعاليم ، وأن المؤلف قد تفحصها بغـــاية العناية واختار منها فقط ما اعتبره صادقاً وجديراً بالثقة . كذلك فمن الواضح من اعترافات لوقا نفسه ــ حسبما يمكن استنتاجه بسهولة من مقدمته ــ هو عدم ادعائه بنزول أي وحي عليه هو نفسه ، كما لا ينسب أي طابع إيحائي إلى ما كتب . وقد يمكن أن نفترض بثقة واطمئنان أن الإنجيل الأول والرابع : إمّا أنهما لم يكونا مدونين عندما ألّف لوقا روايته ، أو أنه لم يَرَهُما ، وإلا لمـــا غامر بمناقضة الإنجيلين الذين كتبهما كل من متّى ويوحنا .

هذه الملاحظات الموجزة التي يمكن تفصيلها يجب أن تقنع كل قارئ محايد ، بأن ما يسمى بالأناجيل الأربعة لا تظهـــر فيها الملامح الضرورية التي لا بـــدّ منها في أي كتاب مقدس يزعم بأنه وحـــي أو تنزيل إلـــهي .

اعتقدت الكنائس أن مؤلف الإنجيل الثالث هو الطبيب لوقا (كولوسيانز ٤/١٤) الذي رافق القديس بولس في رحلاته التبشيرية وكان أسيراً معه في روما (٢ تيموثي ١١/١٤ ــ فيلم . ٢٤ . . الخ) لكن ليس هذا مجال مناقشة تأليف الكتاب ولا غرائبة الأخرى الهامة . ونكتفي بالقول بان القديس « لوقا » سجل بعض الحكم والتعاليم الجميلة الصادرة عن المعلم الرباني مثل حكايته عن السامري الطيب (١٠ / ٢٥ ــ ٣٧) ، وحـــكاية الغـــني الجشع (١٢ / ١٥ ــ ٢١) وحـــكاية الفريسي الطيب (١٣ / ٩ ــ

(١) يُنصح القراء بأن يقرأوا بمنتهى العناية المقدمة أو العبارات الافتتاحية في بداية إنجيل القديس لوقا (St. Luke) . [المؤلف]

١٨) ، وحـكاية المواظبة على الصلاة (١١ / ١ ـ ١٣) ، وحكايات الخراف الضائعة ، والدرهم المفقود ، والابن المبذر (٨) ، وحـكاية الرجل الغني وألعازر (١٦ / ١٩ ـ ٣١) ، وحـكاية الأرملة المسكينة (٢١) وصاحب الكَرْم الشرير (٢٠ / ٩ ـ ١٦) ، وحـكاية القاضي الظـالم (١٨ / ١ ـ ٨) ، وحـكاية ارتداد زكايوس عن دينه (١٩ / ١ ـ ١٠) ، وحكايات أخرى عـديدة .

ولـكن أهم محتويات الإنجيل الثالث هو الترنيمة الملائكية التي تشكل موضوع دراستنا الحـالية وموضع اهتمامنا .

وهذه الترنيمة ، مثل بقية محتويات العهد الجديد لا تُنْقَلُ لنا بلغتها الأصلية التي تم إنشادها بها ، ولكن بترجمتها اليونانية فقط . والله وحده يعلم الأصل الذي نقل عنه المؤلف أو ترجم أو اكتفى بالنقل عن الروايات الشفوية المنقولة من شخص إلى آخر . هل من الممكن أن عيسى أو رسله لم يتركوا الإنجيل الحقيقي الموثوق باللغة التي أنزل بها ؟ وإذا كان هناك إنجيل صحيح كهذا فما الذي حصل له ؟ ومن الذي أضاعه ؟ هل أتلف ؟ ومن الذي أتلفه ومتى ؟ هل ترجم قط إلى اليونانية أو إلى لغة أجنبية أخرى ؟ ولماذا لم تحتفظ الكنيسة لنا بالنسخة الأصلية من الإنجيل الصحيح أو ترجمته ؟ وإذا كان الجواب على هذه الأسئلة بالنفي ، فسوف نحاول أن نسأل سلسلة أخرى من الأسئلة ذات الأهمية ، فنقول : لمـاذا لم يكتب هؤلاء الرسل اليهود والإنجيليون بلغتهم الخاصة ، بـل كتبوا جميعـاً باليونانية ؟ وأين تَعَلَّم الصياد « شَمْعونُ كيفا » (سمعان بطرس) ويوحنان (يوحنا) ويعقوب (جيمس) والجابي « ميثاي » (متّى) أين تعلم هؤلاء اللغة اليونانية من أجل كتابة سلسلة من الكتب المقدسة ؟ وإذا ما قلتم إن الروح القدس علمهم ، فإنكم تجعلون من أنفسهم مجرد أضحوكة ، فالروح القدس ليس بمعلم نحو وصرف ولغات . إن الأمر سيحتاج إلى وحي آخر لتفسير السبب أو الحكمة في جعل الروح القدس ينزل بالوحي باللغة اليهودية إلى إسرائيلي في الناصرة ، ثم يأتي عليه بالمحو والتلف ، وبعد ذلك يعلّم بضعة أفراد من اليهـود اللغـة اليونانية ، لكي يكتب كل واحد منهم بأسلوبه الخـاص قطعة ، من نفس التنزيل .

وإذا قيل : إن الأناجيل والرسائل الإنجيلية كتبت من أجل فائدة يهود الشتات الذين كانوا يعرفون اليونانية ، فإننا قد نسأل : ما الفائدة التي جناها يهود الشتات هؤلاء من العهد الجديد ، ولماذا لم تنسخ عنه نسخة لأجل يهود فلسطين بلغتهم الخاصة ، آخذين في الاعتبار أن القدس كانت مركز الدين الجديد ،(وأن جيمس أو يعقوب « أخا السيد »(سفر الغلاتيين ٢/ ١١ ــ ١٥، ١ /١٩) كان رئيس الكنيسة ويقيم هناك (سفر الأعمال) .

وسيكون من قبيل الجهد الضائع محاولة العثور على حكمة واحدة أو وحي أو أية رسالة مرفوعة إلى يسوع المسيح بلغته الخاصة . ويجب أن يتحمل مجمع نيقية إلى الأبد مسؤولية جريمة ضياع الإنجيل المقدس بلغته الآرامية الأصلية ، وهي خسارة لا تعوض، والسبب الذي يدفعني إلى الإصرار على ضرورة الاحتفاظ برسالة الله المنزلة سبب واضح ، إذ أنه يمكن اعتبار هذه النسخة دون غيرها صحيحة ومعتمدة ، فالترجمة مهما كانت أمينة لا يمكن أن تحتفظ بالقوة الدقيقة والمعنى الحقيقي كما تحتويه الكلمات والتعابير الأصلية . إذ أن كل نسخة مترجمة هي عرضة للتحدي والنقـــد .

وهذه الأناجيل الأربعة على سبيل المثال لم تصل حتى إلى درجة الترجمة بل إنها النسخة الأصلية اليونانية ، وأسوأ ما في ذلك أنها مُحَرّفة تحريفاً سيئاً نتيجة ما حصل من تصحيف متأخر .

والآن أمامنا أنشودة مقدسة ، ولا ريب في أنه جرى إنشادها بلهجة سامية ، لكنها مقدمة لنا بترجمة يونانية . ومن الطبيعي أننا سنكون على درجة من حب الاستطلاع لمعرفة كلماتها الأصلية التي أنشدت بها . وهنا ألفت انتباه القارىء الجادّ إلى المرادف السامي الدقيق الذي ترجـــم إلى اليونانية بكلمة " Eudokia " وباللغة الإنجليزية " Good will " أو النيـــة الحسنة . والترنيمة مؤلفـــة من ثلاث فقرات : موضوع الفقـــرة الأولى هو الله (بالآرامية) وقد ترجم إلى (Theos) باليونانية ، وموضوع الفقـــرة الثـــانية هو شـــلاما (بالآرامية) وترجمت إلى اليونانية بكلمة " Eiring " وموضوع الفقرة الثالثة هو " eudokia " باليونانية وتُرجمت إلى " Bona Voluntas " في ترجمـــة الـ " Vulgate " اللاتينيـــة المعتمدة عنـــد الكنيسة الكاثوليكية ، وإلى (Sobhra Tabha) بالبشيتا الآرامية ، (والتي تلفظ أحياناً (Sura Tava)) .

وقد عجزت هاتان الترجمتان اللتان تلتهما جميع الترجمات الأخرى ، عن نقل المعنى الدقيق لكلمة Eudokia وبالتالي ظلت الفقرتان الثانيـــة والثالثـــة دون معنى على الإطلاق ، إذا لم تكونا كاذبتين بالمرة ، ومع شعورنا بخيبة الأمل لعدم تمكننا من العثور على الكلمات الدقيقة لهذه الترنيمة السماوية بصيغتها الأصلية ، فإنه لا داعي ليأسنا مع ذلك أثناء محاولتنا العثور على المعنى الحقيقي الذي تحتويه واكتشافه .

ولذلك سنسير نحو إيجاد الدلالات الصحيحة لتاريخ تطور معاني الكلمات اليونانية وهي Eiriny و Eudokia والمعنى الحقيقي والتفسير للتسبيحة الإنجيلية لله .

والتفسير المسيحي لكلمتي (Eiriny و Eudokia) أيريني و يودوكيا مخطـــىء ومتهـــافت .

وبموجب تفسير جميع الكنائس والطوائف المسيحية لهذه الترنيمة ، فإن الإيمان بألوهية عيسى المسيح وافتدائه الناس من الخطيئة ونار جهنم من خلال موته على الصليب ، وفي استمرار اتصاله بالروح القدس ، يجلب « السلام » والطمأنينة للقلب ويجعل المؤمنين يحملون النوايا الطيبة والإحسان والحب المتبادل بين بعضهم وبعض . وهـــذا التفسير حتى الآن مقبول عند الجماعات الطقوسية والإنجيلية ؛ لكنها لا تتوقف عندَ هذه النقاط الرئيسية الثلاث وذلك عن حكمة وذكاء ؛ لأنه حتى الآن لا يوجد بينها سلام عام ولا مصالحة ولا وفاق ولا وحدة ولا نية حسنة ولا حب متبادل . ثم تفترق عن بعضها وتحاول وسائل أُخرى للتوصل إلى هذا « السلام » و « النية الطيبة » وتوكيدهما . ويُصرُّ الطقوسيون على الاعتقاد بالطقوس السبعة وبتعاليم عديدة لا يمكن أن يحتملها حسنُ إدراك عيسى ولا عقيدتُه أو تعاليمُه البسيطة . وبعد أن ظهرت الكنيسة بدم الفادي من خلال مياهِ المعمودية المقدسة بصورة غامضة ، أصبحت عروس الحَمَل وجسده ، وكانت الكنيسة نفسها هي جسم الحَمَل ، وتتغذى من جسده بخبزٍ ونبيذ مقدسين بطريقة مُبهمة ، وقد تحولت إلى لحم العريس ودمه الحقيقيين . وللعروس ـ الكنيسة ـ ولاءات خاصة نحو القلوب المقدسة لعيسى ومريم والقديس يوسف والمراحل أو المنازل الأربع عشرة للصلب ، وكذلك لها ولاء لتماثيل مئات عديدة من القديسين والشهداء ، ولآلاف من العظام والبقايا الحقيقية أو المزيفة لهؤلاء ،

وكذلك لها عبادة لقطعة الفطير المقدسة ، كما لله تعالى ، ومع هذا مازال السلام مفقوداً ، ويجب الاعتراف بجميع الخطايا صغيرها وكبيرها ، أمام الكاهن أو القسيس ، وأن الغفران الذي يحصل عليه الخاطىء من ذلك الأب الروحي ، هو الذي يأتي بالسلام والطمأنينة إلى قلبه ويملأه بالنية الحسنة .

وإذا ما عدنا إلى المجموعة الإنجلية من مختلف العقائد والنِّحَل ، فإننا سنجدها تحاول الحصول على طمأنينة داخلية عن طريق الصلاة مباشرة لأقانيم الآلهة الثلاثة ، كل على انفــراد ، أحياناً لعيسى ، وأحياناً للروح وأحياناً للأب وبعيون مقفلة ، ولكن مع حركات وإشارات خطابية أو تعبيرية ، ثم عن طريق قراءة الكتاب المقدس ، وعن طريق ممارسات أُخرى خاصة أو عامة ، ثم يعتقدون بعد ذلك أنهم مملوءون بالروح القدس وأنهم في حالة اطمئنان ؟ ؟ ولكنني أُؤكد للقارئ أن جميع هؤلاء النصارى « التائبين » الذين يتظاهرون بذلك من خلال عباداتهم المخلصة أو الزائفة ، سيتظاهرون بأنهم حصلوا على الطمأنينة ، وأنهم حازوا على النية الحسنة تجاه جيرانهم . وبدلاً من أن يكونوا طيبين لطفاء ومسالمين مثل سيدهم المزعوم ، فإنهم يصبحون شديدي التعصب وعديمي التسامح . وسواء كان المسيحي ملتزماً بالطريق المعتمد أو غير ملتزم ، فإنه عندما يخرج من الكنيسة حيث شارك في تناول العشاء الرباني الذي يسمونه « القربان المقدس »(١) يصبح متعصباً وانعزالياً ، لدرجة أنه يفضل لقاء كلب على لقاء مسلم أو يهودي ؛ لأن هذين لا يؤمنان بالثالوث « وبالعشاء الرباني » . إنني أعرف ذلك ، وكنت أحمل نفس العواطف عندما كنت قسيساً كاثوليكياً ، وكلما ازداد تفكيري بأنني روحي ومقدس ومنزه عن الأخطاء ، ازدادت كراهيتي للهراطقة – حسب اعتقادي يومئذ – لاسيما غير المؤمنين بالثالوث .

وعندما يصبح النصارى ولاسيما قساوستهم ورعاة كنيستهم ، متحمسين في صلواتهم وطقوسهم وممارساتهم ، فإنهم يصبحون سريعي الانفعال والهيجان والعدوانية

(١) نسيت أن اذكر أعلاه أن إنجيل مارلوقا حسب نسخة « البشيتا » القديمة لا يحتوي على جملتي (١٧ – ١٩) من الإصحاح (٢٢) وكذلك لا يوجد ما يسمى بالكلمات الأساسية الموجودة في طقس القربان المقدس عند النساطرة . [المؤلف]

تجاه خصومهم الدينيين . أعطوني واحداً فقط من القديسين الكاثوليك أو المنشقين أو الهراطقة بعد مجمع نيقية لم يكن طاغية في كتاباته أو مواعظه وأفعاله ضد أولئك الذين كان يعتبرهم « هراطقة » . وديوان التحقيق أو محكمة التفتيش في روما هي الشاهد الخالد على هذه الترنيمة وهي : « على الأرض السلام وفي الناس المسرة » .

ويظهر أن السلام الحقيقي لا يمكن الحصول عليه بالوسائل المصطنعة ؛ إذ أن هناك ثلاث وسائل فقط يمكن الحصول بواسطتها على السلام الحقيقي التام ، وهي : الاعتقاد المتين بوحدانية الله المطلقة ، والخضوع الكامل والاستسلام لمشيئته المقدسة ، وأن يكون سبحانه هو محور التأمل والتفكير باستمرار . فمن يحقق هذه الوسائل الثلاث فهو مسلم حقيقي وعملي ، والسلام الذي يحرزه عن طريقها يكون سلاماً حقيقياً وغير مصطنع ، فيصبح متسامحاً أميناً عادلاً ورحيماً ، ولكن في نفس الوقت يصبح مستعداً للقتال بكل جوارحه دفاعاً عن كل ما يتعلق بالله ، وذوداً عن شرفه إذا ما هُدّد أو هُوجم . وواضح أن الحصول على هذا السلام الكامل يتم عن طريق الإيمان الداخلي والاستسلام المطلق للخالق ، وليس عن طريق الممارسات والطقوس الخارجية المظهرية . فهذه الأخيرة لا تفيدنا إلا إذا كان الإيمان حقيقياً والخضوع اختيارياً غير مشروط .

ولـــكن الملائكة بالتأكيد لم يُنشدوا تكريماً للسلام الخاص أو الفردي الذي يقتصر في نهاية الأمر على عدد صغير من أهل الله ، كما أنهم لم يفعلوا هذا تمجيداً لسلام شامل مزعوم سيعني نزع السلام كلية من الأمم وإيقاف الحروب والأعمال العدائية ، كلا لم يكن هذا السلام ولا ذاك موضوع هذه الأنشودة ، فالسلام الروحي عبارة عن طمأنينة في القلب وراحة في الضمير ، يمنحه الله تفضّلاً منه ونعمة لأولئك المؤمنين القلائل الذين هم قدم صدق عنده في التقوى والحياة الروحية ويحبونه أكثر من كل شيء ويضحون بكل حب آخر إيثاراً لمحبتـــه .

إنه لم يكن سلاماً اجتماعياً ولا سياسياً لشعب إسرائيل ؛ لأن تاريخ العشرين قرناً الأخيرة يدل على العكس تماماً . لذلك لا يستطيع الملائكة أن ينشدوا ويعلنوا سلاماً لا يمكن أن يتحقق أو يتوصل إليه . لذلك فنحن مضطرون إزاء الحقائق التاريخية التالية من جهة ، وإزاء أهمية المناسبة والمصدر الذي جاء منه هذا الإعلان من جهة أُخرى ، إلى الاستنتاج أن هذا السلام على الأرض لم يكن سوى تأسيس مملكة الله على الأرض

وهو أمر قادم ، ألا وهو الإسلام . إن كلمة (Eiriny) اليونانية مرادفة للكلمات السامية « شالوم » وشلاماً و « إسلام » هذا كل ما في الأمر .

وإن مجرد ذكر « الحشود السماوية الكثيرة » يعطي للأنشودة صفة عسكرية أو طابع انتصار . فهي في الواقع دلالة واضحة على البهجة من جانب الجيوش التي تنتمي إلى مملكة السماء نظراً لمصلحة حلفائها في المستقبل الذين ينتمون إلى مملكة الله على الأرض ، تلك المملكة التي كان أعظم إنجيليها أو رسلها هو الطفل الحديث الولادة في بيت لحم .

وفي مناسبات مختلفة أثناء تدوين هذه المقالات ، شرحنا أن السلام بمعناه العملي الحسي ، يدل على دين جيد سليم مأمون نافع ، وأن طريق السلام إنما هي ضد الدين الشرير السيء المؤذي المدمّر ، وضد السبيل المؤدي إلى البؤس والهلاك . وبهذا المعنى فإن الله في رسالته من خلال نبوءة إشعيا (٤٥) إلى كورش ، استعمل كلمة شالوم كمرادف للخير ، وضد الشر . هذا هو بالضبط التفسير الحرفي والمبدئي والعملي الدال على أصل كلمة الإسلام كدين صحيح كفيل بإقامة مملكة ربانية قوية على الأرض لها شرائعها وتوجيهاتها الدائمة الصالحة ، التي يتضمنها القرآن الكريم .

ووراء الإسلام الذي يعني حرفياً « صنع السلام » فإن أي تفسير آخر أو سلام خيالي أمر غير وارد بالمعنى الذي فيه كلمة (Eiriny) في هذه الترنيمة الملائكية الظافرة . وقد قصد عيسى المسيح هذا المعنى الإسلامي للكلمة عندما ألقى موعظته البليغة على الجبل : « طوبى للمسلمين (حرفياً صانعي السلام) لأنهم يُدْعَون أبناءَ الله » (١) (متى ٥ / ٩) . وكان السلام الخيالي هو ما رفضه سيدنا المسيح عندما صاح « لا تظنوا أنني قادم لإقامة السلام على الأرض ، إذ لم آتِ لوضع أُسس السلام بل لاستخدام السيف » (متى ١٠ / ٣٤ ـ ٣٦) أو كما يعلن لوقا « جئت لأشعل النار في الأرض . . فهل تظنوني قادماً لبناء السلام ؟ أقول لكم لا ولكن للانقسامات . . . » (لوقا ١٢ / ٤٩ ـ ٥٣) .

وما لم تفهم كلمة (Eiriny) على أنها دين الإسلام ، فإن هذين القولين الخطيرين المتناقضين من أقوال عيسى سيظلان لغزاً إن لم تكونا أذى لا يمكن إصلاحه ، اقترفته الكنيسة النَصْرانية بسبب قبولها الأناجيل على أنها كلمة الله المنزَّلة .

(١) سنعالج فيما بعد تعبير أبناء الله . [المؤلف]

"يودوكيا" تعني "أحمدية"

(لوقا ٢ - ١٤)

إن إعـــادة ترجمة قطعة رائعة وضعها مؤلف شهير ، من نسخة غريبة عن لغته ، إذا خلّف كتابات أخرى بلغته الأصلية — لا يعتبر أمراً بالغ الصعوبة ؛ ذلك لأنّ المترجم يستطيع أن يتفهم الأفكار والتراكيب والتعابير المتعلقة بأعماله ، وكذلك يصرف أقصى الجهد لإعادة ترجمة الكتاب إلى اللغة الأصلية التي كتب بها . ولكن إلى أي مدى يستطيع مثل ذلك المترجم أن ينجح في موضوع لا يتسنى لغير المترجمين القديرين أن يقرروا ويؤكدوا صحته ؟ ؟ . . وبنفس الصورة لو كانت هناك على الأقل رسالتان أو مخطوطتان باللغة العبرية للقديس لوقا مثلاً ، فإن إنجيله يمكن وبأقل صعوبة نسبية أن يترجم إلى ذلك اللسان ، قياساً على ما هو ممكن ترجمته الآن . ولكن لسوء الحظ حتى هذا الافتراض غير متوفر لنا الآن ، ذلك أنه لا يوجد شيء باق إلى اليوم من الكتابات القديمة بلغة المسيح ، والتي ترجم منها القديس لوقا النشيد الملائكي ، وهو نفسه لم يترك لنا أي كتاب آخر باللهجة السامية .

ولكني أُوضح الأمر بصورة أفضل . وحتى أمكّن القراء بالإنجليزية أن يتفهموا بصورة أحسن ، الأهمية العظمى لهذه النقطة ، أودّ أن أتحـــدى أعظم العلماء بالأدب الإنجليزي أو الافرنسي في أن يعيدوا الترجمة من النسخة الافرنسية لأعمال شيكسبير الدرامية إلى اللغة الإنجليزية ، دون الرجوع إلى النص الإنجليزي الأصلي ، وأن يظهروا جمال وتناسق وأناقة النص الأصلي بنفس الوقت .

والفيلسوف المسلم الكبير ابن سينا (أفيسينا) كتب باللغة العربية وأُعيدت بعد ذلك ترجمة بعض كتاباته من اللغة اللاتينية إلى اللغة العربية ؛ لأن الأصول قد فقدت ،

فهل كانت هذه النسخ هي النص المطابق تماماً لتلك التي وضعها هذا الارسطوطاليس المسلم ؟ والجــواب ، كلا بالتأكيد .

وفي الحلقـــة السابقة من هذا المسلسل حول كلمة (Eiriny) تحـــدثنا عن ترجمة هذه النقطة إلى حدٍ ما ، ولم نجد أية صعوبة بإيجاد ما يماثلها باللغة العبرية ألا وهي كلمة « شالوم » ذلك أنّ الكلمتين مماثلتان تماماً في نصوص الترجمة « السبعينية » والعبرية . ولكن الكلمة اليونانية المركبة « يودوكيا » على ما أعلم ، لم ترد في الترجمة (السبعينية)(١) وإنه لمن الصعوبة بمكان كبير إيجاد تعبير يماثلها أو يرادفها في الأصل . وإن القديس « بَرْنابَا » لا يذكر في إنجيله هذه الترنيمة الملائكية ، ولا قصة الرعاة في بيت لحم ، ولا التشابه المتعلق بالأناجيل أو بالرسائل الإنجيلية في العهد الجديد .

وفي اليونانية الحديثة كثيراً ما يستعملون كلمة « يودوكيا » و « يودوكسيا » لأسماء العلم المؤنثـــة ، واسما العلَم هذان يتألفان من عنصرين اثنين (eu) « يو » و « دوكيو » (dokeo) ومن الأخيرة اشتقت « دوكسا » (doxa) ، والتي تعني : « المجـــد » أو « المدح » وهـــكذا .

ومن أجل اكتشاف الأصل السامي للكلمة الواردة في الترنيمة التي سمعها ورددها الرعاة الاتقياء ، والتي صاغها المبشر لوقا في كلمة « يودوكيا » فإنه لابد لنا من فحصها ومتابعتها من جذورها وأُصولها اليونانية . ولكن قبل أن نقوم بهذا ، ينبغي أن ننقد ونكشف الترجمة غير الصحيحة للكتاب المقدس والتي خسفت المعنى الصحيح لكلمة « يودوكيا » وحجبت منحاها التنبؤي عن « أحمد أو محمد » .

هنـــاك نصان رئيسيان للعهد الجديد من النسخة اليونانية ، الأول باللغة « السريانية » والثاني باللغـــة اللاتينية ، وكلاهما يحمل نفس المعنى للكلمة « سمبلكس " Simplex " أو « سمبـــل – (Simple) وهو مدلول كلمـــة « بشيتا – " Pshitta " . وكلمة (Vulgate) (٢) فالجيت . وهناك الكثير الجديد من المـــواد الإعلامية حول هاتـــين

---

(١) السبعينية : نسبة إلى السبعين عالمـــاً يهودياً الذين ترجموا التوراة في سبعين يوماً . [المؤلف]

(٢) (Vulgate) – الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس . [المؤلف]

الرسالتين الشهيرتين القديمتين ، وهذه المواد لابد أن تسبب حرجاً لأعظم العلماء والمؤرخين المسيحيين ، وكذلك أصحاب العقــائد اللاهوتيين . ولكن في الوقت الحاضر يكفي أن نذكــر بأن النسخة الآرامية والمسماة « Pshitta – بشيتا (١) » هي أقدم من الترجمة اللاتنية للكتاب المقدس . ومما هو معروف بصفة عامة أن كنيسة روما ، وخلال القرون الأربعة الأولى ، لم يكن لديها كتب مقدسة ولا طقوس دينية باللغة اللاتنية ، ولكن ما توفر لديها كان باللغة اليونانية . وقبل المجمع المسكوني المنعقد سنة ٣٢٥ م ، لم يكن قد تم تجميع لائحــة الأسفار المؤلفة لكتاب العهد الجديد ، وبالأحرى لم يكن قد وُضع بعد . وكان هناك العديد من الأناجيل والرسائل الإنجيلية تحمل أسماء مختلفة للأنبياء ولأصحاب المسيح ، والتي احتفظت بها بعض المجتمعات المسيحية كأسماء مقدسة ، ولكن المجمع المسكوني قد رفضها معتبراً إياها غير شرعية وزائفــة .

ولمــا كانت الرئاسة أو المركز التعليمي للغــة السريانية (٢) مقره في « أوراهي » أي في (إيديسا) وليس في (أنطيوخ) ، فقد كانت نسخ العهد الجديد تترجم من الإغريقية في « ايديسا » وذلك بعد انعقاد المجمع الكنسي الشهير في « نيسيا » (نيقيه) .

وبالدراسة الفاحصة العميقة للأدب والتاريخ المسيحي القديم ، يتبين بأن أوائل المبشرين بالإنجيل الجديد كانوا من اليهود الذين كانوا يتكلمون باللغة الآرامية أو باللغة « السريانية » القديمة . فإن كان هذا الإنجيل وثيقة مكتوبة أو كان عقيدة ، أو ديانة تدرس وتنشر سنوياً ، فإن ذلك يعتبر تساؤلاً قائماً بحد ذاته ، وأنه يقع خارج نطاق موضوعنا الحــالي . ولكن أمراً واحداً مؤكداً ، ويقع حتماً ضمن محيط موضوعنا ، هو أن أوائل المسيحيين كانوا يقومون بخدماتهم الدينية باللغة الآرامية . فقد كانت هي الدارجة التي يتحدث بها اليهود والسريانيون والفينيقيون والكلدانيون

(١) (Pshitta) – النسخة الأصلية للكتاب المقدس باللغة الأرامية . [المترجم]

(٢) (Pshitta) الترجمة الأرامية القديمة للعهد القديم لم تستعمل مطلقاً الكلمات : (سيريا ، وسيرياك (Syriac) بــل كانت تستعمل كلمتي (Aram) – آرام وأرامايك . (Aramaic) [المؤلف]

والأشوريون . وأصبح الآن واضحاً بأن المسيحيين الذين ينتمون إلى القوميات التي تتحدث باللغة الآرامية ، كانوا حتماً يفضلون أن يقرأوا ويُصلّوا بلغتهم الخاصة ، وبالتالي فإن الأناجيل المختلفة ، أو الرسائل ، أو كتب الصلاة ، أو الطقوس الدينية ، كانت جميعها مكتوبة باللغة السِّريانية ، حتى أن الأرمن – قبل اختراع الألفباء الأرمنية في القرن الخامس – كانوا يستعملون الحروف السِّريانية .

ومن ناحية أُخرى ، فإن الذين اهتدوا إلى الدين حديثاً من اللاساميين ومن غير اليهود ، كانوا يقرأون العهد القديم بلغته الإغريقية « السبعينية » . وبطبيعة الحال ، فإن علماء الفلسفة الإغريقية والقساوسة السابقين في علم الأساطير ، بعد أن تحولوا إلى العقيدة الجديدة بالإضافة إلى « السبعينيين » من قبلهم ، لا يجدون أية صعوبة في إنتاج « عهد جديد » كي يُتمّوا ما مضى من العهد القديم ، أو يستمروا فيه .

فكيف أصبح الإنجيل الناصري البسيط الذي أنزله الله ، مصدراً لاتجاهين فكريين قوميين ، أحدهما سامي والآخر إغريقي ؟ وكيف استطاع أخيراً الفكر المُشرِكُ الإغريقي أن يتغلب على العقيدة التوحيدية السامية ، تحت سيطرة أعتى وأطغى الأباطرة الإغريق اللاتينيين ، وتحت أعظم القساوسة تعصباً وتشاؤماً من أصحاب العقيدة الثالوثية في بيزنطية وروما ؟ تلك نقاط متطرفة تستحق الدرس والتمحيص الدقيقين من قبل العلماء المسلمين الموحدين .

ثم هناك أيضاً مسائل وحدة العقيدة ، والمذهب ، والنص المنزّل ، ذلك لأنه قبل أكثر من ثلاثة قرون لم يكن لدى الكنيسة المسيحية أي « عهد جديد » كالذي نراه في صورته وشكله الحاليين . وليس هناك كنيسة من الكنائس السامية أو الإغريقية ولا كنيسة من أنطاكية أو أديسا أو بيزنطية ولا روما ، تملك جميع أسفار العهد الجديد ، بل لم تكن تملك حتى الأناجيل الأربعة قبل انعقاد المجمع المسكوني في نيسيا (نيقية) . وإني لأستغرب كيف كانت ، أو كيف يمكن أن تكون عقيدة أُولئك المسيحيين الذين لم يكن في حوزتهم غير إنجيل (القديس لوقا) أو إنجيل (القديس متى) أو إنجيل (القديس يوحنا) فيما يتعلق بتعليم ونصوص القربان

المقدس ، أو المعمدانية ، أو التثليث أو المفهـوم الخارق المعجز للمسيح ، وكذلك لكثير من المعتقـدات والمذاهب ؟ . . .

وإن نسخة « البشيتا » السِّريانية ، لا تحتوي على ما يسمى « بالضروري » أو بالكلمات التأسيسية أو التنظيمية ، الباقيـة إلى الآن في إنجيل القديس لوقـا (٢٢ / ١٧ — ١٨ — ١٩) فإن آخر اثنتي عشرة رسالة من الفصل السادس عشر من الإنجيل الثاني ، لم توجـد في المخطوطات اليونانية القـديمة ، وأن ما يدعـى « بصلاة الرب » (متى ٦ / ٩ — لوقا ١١ / ٢) ليست معروفة عند مؤلفي الإنجيـل الثاني والرابع ، وفي الحقيقة إن الكثير من التعاليم الهـامة الموجودة في إنجيل واحد لم تكن معروفة لدى الكنيسة ، ذلك أنها لم تكن تملكها . وبالتالي لم تتحقق الوحدة في طرق العبادة وفي الانضباط والسلطة والعقيدة وفي الوصايا والقوانين لدى الكنيسة الأولى ، كما أن الوحدة في هذه الأمور ، غير حاصلة في أيامنا هذه . وجل ما نستطيع أن نستخلصه من كتاب العهد الجديد هو أنّ الكتب اليهودية المقدسة كانت بمثابة الإنجيل للنصارى في عهـد الحواريين ، بالإضافة إلى إنجيل يضم ما أُنزل على عيسى بطريق الوحي . وكانت مواده تماماً كتلك التي أُعلنت في « أُنشودة الملاك الحارس » ، أي « الإسلام والرسول محمد المشار إليه باسم أحمد » وإن الرسالة الخاصة التي بعث الله بها رسوله المسيح كانت من أجل هداية أو عودة اليهـود عن ضلالهم وانحرافهم واعتقادهم الفاسد والخاطىء عن المسيح المنتمي إلى داود ، ولإقناعهم بأن ملكوت الله على الأرض الذي كانوا ينتظرون لم يكن ليأتي بواسطة مسيح من سلالة داود ، ولكن من نسل إسماعيل ، يحمل اسم « أحمد » ، وهو الاسم الصحيح المماثل للاسم الذي نص عليه الإنجيل اليوناني محفوظاً على صورة « يودوكسوس » و « بيريكلتوس » وليس (باراكليت) كما صَوَّرَتْهُ الكنائس . ومما لا شك فيه أن الـ (بيريكلايت) تؤلف واحداً من أكثر الأبحاث أهمية في سلسلة هذه المقالات . ولكن مهما تكن أهمية هذا الـ « باراكليت » انظر (يوحنا ١٤ / ١٦ — ٢٦) وكذلك (١٩ / ٧) أو أهمية تهجئة أصل الكلمة الصحيح ، فإن الحقيقة الساطعة ستبقى شاهدة على أن يسوع خلف بعده ديانة غير مكتملة فجاء بعده من أطلق عليه يوحنا (اوبي سوبرا) ووصفه (لوقا ٢٤ / ٤٩) « بالروح » . هذه « الروح » ليست هي « الرب » المتمثل

في أحد الأقانيم الثلاثة ، لكنها روح « أحمد » الزكية والتي وجدت مثل أرواح الأنبياء الآخرين في الجنـــة (إنجيـــل برنابا) . فإذا كانت روح المسْيح بشهادة النبي يوحنـــا (١٨ / ٥ . . الخ) . قد وجدت قبل أن يصبح إنساناً ، فهنـــاك أيضاً الموحدون المسلمون يسوغ لهم تماماً الاعتقاد بوجود روح محمد ، بشهادة رسول آخر هو « بارنابا » ولماذا لا يكون ذلك ؟ . . إن هذه النقطة سوف تُبحث في الحلقة التالية ، وفي هذه اللحظة فإني أود أن أسأل جميع الكنائس المسيحية هذا السؤال : هل كان لدى جميع الكنائس المسيحية في آسيا وأفريقيا ، وأوربا : الإنجيل الرابع قبـــل انعقـــاد المجمـــع المسكوني في نيقيه (بآسيا الصغرى عـــام ٣٢٥ م) ؟ ؟ فإذا كان الجواب بالإيجاب فالرجاء أن تبرزوا براهينكم ، وإذا كان الجواب بالنفي ، عندئذ يجب الإقرار والاعتراف بأن قسماً كبيراً من المسيحيين لم يعرفوا شيئاً عن « باراكليت » الذي بَشَّرَ به القديس يوحنا ، فهو عندهم كلمة مبهمة لا تعـــني « الهـــادي » ولا « الوسيط » ولا أي شيء آخر . وهذه جميعاً بكل تأكيد هي اتهامات جـــد خطيرة ضد المسيحية .

ولكن . . عودةً إلى الموضوع . فإن « البشيتا » قد تَرجمتِ الكلمة « يودوكيا » (التي يلفظها اليونانيون « إيفدوكيا » أو بالأحرى إيفذوكيا) إلى « سوبرا تابا » (وتلفظ سوفرا – تافا) ، وهي تعني « الأمل الطيب » أو « التوقع الطيب » بينما الترجمة اللاتينية للإنجيل من ناحية أُخرى تترجم « يودوكيا » إلى « بونافولانتاس » أو « النية الحسنة » .

وإني أتحـــدى ، دون خوف أو وجل ، جميع علماء اليونان ، أن يكذبوني أو يناقضوني إذا استطاعوا ، عندما أُعـــلن أن مترجمي النص السِّرياني أو اللاتيني قد ارتكبوا غلطة هائلة في ترجمتهم إلى الـــ « يودوكيا » . ومع ذلك ، فإني أعترف بأنني لا أستطيع بصدق أن أضع اللوم على أُولئك المترجمين لأنهم حرفوا متعمدين هذا التعبير الإغريقي ، إذ أنني أُسلِّمُ بأن كلا النصين لهما أساس بسيط من صحة الترجمتين ، ولكن في هذه أيضاً ، يجب أن نلاحظ بأنه قد فاتهم الإدراك التنبوئي والمعنى الصحيح في المعجم السامي ، عندما حولوه إلى الكلمة اليونانية « يودوكيا » .

إن المعنى الصحيح والحرفي المماثل لجملة « الأمل الطيب » باللغة اليونانية هو ليس « يودوكيا » بل هو « إيبو إلبِسْ » أو بالأحرى « « يولِبستيا » وإن هذا التفسير لـ « إيفلبستيا (وهو اللفظ الصحيح اليوناني) كاف تماماً لإسكات ال « بشيتا » ، أما التعبير الدقيق والصحيح المطابق للتعبير اللاتيني « بونا فولانتاس » أو « النيَّة الحسنة أو الطيبة » باللسان اليوناني فهو بالتأكيد ليس « يودوكيا » ولكن « يوثيليما » وإن هذا الشرح على إيجازه حاسم ، وكفى به تأنيباً لكهنة الفاتيكان وكهنة باهنار (القسطنطينية) وكهنة كانتربوري عندما يرتلون جميعهم « المجد في الأعالي » ويحتفلون بالقداس أو يزاولون طقوساً أخرى .

١ — البنية الصرفية لكلمة يودوكيا — Eudoxia ومعناها .

ولنمض الآن قدماً في إعطاء المعنى الحقيقي لكلمة « يودوكيا — Eudokia » . إن الحرفين (Eu) يُفيدان صفةً تابعة للاسم بمعنى : « جيد ، حسن ، أكثر ، والأكثر » تماماً كما هو في « يودوكيميو — Eudokimeo » — أي المحترم ، المحبوب ، المقبول ، وكذلك « صاحب الجاه والمجد » ، ثم إن كلمة « يودوكيميوس — Eudokimos » تعني المبجَّل ، أو ذائع الصيت ، أو عظيم القدر . وكلمة « يودوكسوس — Eudoxos » تعني « ذا الشهرة الواسعة والمجد العريض ، وكلمة « يودوكسيا — Eudokia » معناها : « مشهور ومعروف » . أما كلمة « دوكسا — doxa » فهي صيغة مصدرية في اللغة اليونانية وتستعمل مركبة في الأسماء مثل : « أورثودوكس » ، ودوكسولوجي » وهكذا . . . هذه الكلمات جميعها مشتقة من من الفعل « دوكيو — Dokeo » وإن كل تلميذ يدرس الأدب الإنجليزي يعرف بأن كلمة « دوكسا — Doxa » تعني المجد ، الشرف ، الشهرة » وهناك تعابير عديدة في التأليف الكلاسيكي الإغريقي حيث تستعمل كلمة « دوكسا — Doxa » لتشير إلى « المجد » ، مثلاً : « بيري دوكسز ماخيشاي » تعني « أن يحارب من أجل المجد » ، وإن الخطيب اليوناني الشهير « ديموستينُس » فضل المجد على الحياة الهادئة ، ذلك « المجد الذي يضارع مجد الآلهة » وإنني على علم بالحقيقة أن كلمة « Doxa — دوكسا » ، مع أنها نادرة الاستعمال ، تستخدم للتعبير عن :

(أ) الرأي أو المعتقد . (ب) المبدأ والعقيدة والمذهب . (ج) التوقّع أو الأمل . ولكن مع هذا ، فإن معناها العام هو « المجد » . وفي الحقيقة ، فإن القسم الأول من نشيد الإنشاد يبدأ بـ : (دوكسا) أي « المجد لله في الأعالي » .

إن القاموس الإغريقي (الذي نشره في باريس السيد « ر . س اسكندر » عام ١٨٤٦ يعطي كلمة « يودوكيا – Edokia » معنى « لطيف ، محسن ، ودمث » إلى آخره . . . وإن المؤلف يقدم كلمة « دوكيو – Dokeo » باعتبارها الأصل لكلمة « Doxa – دوكسا » مع مختلف معانيها التي ذكرت سابقاً .

وبينما أجمع يونانيو القسطنطينية الذين تعرفت إلى عدد كبير من المعلمين منهم ، على المفهوم العام لكلمة « يودوكيا – eudokia » بأنه « السرور ، المحبة ، الرضى ، والرغبة » إلا أنهم كذلك يعترفون بأن الكلمة تعني أيضاً في معناها الأصلي « الشهرة ، المعرفة ، والشرف » .

٢ – دراسة أصول معاني الكلمات اليهودية (ماحماد) أو (حمدا) ومعانيهما :

إنني مقتنع بأن السبيل الوحيد لفهم معنى الكتاب المقدس وروحه ، هو دراسته من وجهة النظر الإسلامية ، فمن هناك فقط يمكن الفهم والتقدير والمحبة الحقيقية للوحي الإلهي ، وهناك فقط يمكن الكشف عن الزيف والخداع ، وعناصر التحريف والمغايرة في أسوأ مظاهرها ، ثم بعد ذلك استئصالها . ومن وجهة النظر هذه فإنني أُرحب بالكلمة اليونانية « يودوكيا – eudokia » والتي في معناها الصحيح والحرفي تتفق بصورة عجيبة مع الكلمات العبرية « ماحماد ، مَاحَامُود ، حَمْدَا وحِمْد » والتي تستعمل بصورة متكررة في العهد القديم .

(أ) (حاماد أو حمده): إن هذا الفعل ، يتألف من حروف ساكنة أصلية « ح م د » وهي معروفة لجميع اللهجات السامية ، وحيثما جاءت هذه الحروف في الكتابات المقدسة اليهودية فإنها تعني « يشتهي ، يقع في الحب ، يشتاق إلى ، يتلذذ ويتذوق ، ويرغب بعمق » وأُولئك الذين يعرفون اللغة العربية سوف يفهمون بصورة طبيعية المعنى الشامل لكلمة « شهوة » والتي تعني باللغة الإنجليزية أيضاً « الرغبة

الشديدة أو التلهف ، أو الجشع والطمع ، أو الرغبـــة الجـــامحة والشهية ».فإذن ، هذا هو بالدقة المعنى والمغزى للفعل « حاماد » في المخطوطات العبرية .

وإن إحـــدى الوصايا العشر من التوراة والتشريع العبري تقول:« لوتا حمود إيش رَايْخا » أي « لا تشتهِ زوجة جارك » (سفر التكوين ٢٠ / ١٧) .

(ب) « حـمدْ » اسم مذكر ، و « حمدا » اسم مؤنث وهما يدلان على « الشهوة اللذة ، الرضى ، البهجـــة ، التلهف ، والجمال » (حجيٍّ ٢ / ٧ وإرميا ٣ / ٢٥ الخ).

(ج) ماحماد ، ماحامود (نواح إرميا ١ / ١٠ – ١١ ، ٣ / ٤ . . الخ) .

هاتان صيغتان لاسم الفاعل واسم المفعول ، مشتقتان من الفعل « حمد » معناهما: «المرغوب فيه جداً ، البهيج ، الرائع ، اللطيف ، اللذيذ ، الجذاب ، القيّم ، المحبوب » .

لهـــذا فإن الصيغة العربية « محمد » والعبرية « ماحماد ، وماحامود » هي مشتقة من أصل واحد ومن نفس الفعل أو الجذر ، وإنها بالرغم من الفروق البسيطة في التهجئة ، فلها أساس ومعنى واحد مشترك ، وعليه فلا يكون هناك مثقال ذرة من الشك في ذلك . ولقد أوردتُ معاني الصيغ العبرية كما فهمها اليهـــود ومؤلفو المعاجم .

(د) ولسوف يكون من المستطاع إذاً ملاحظة أن الكلمة اليونانية « يودوكيا » يجب أن تمثـــل حرفياً معنى الاسم العبري « حِمْدا » والكلمتان تعنيان : السرور ، اللطف ، مصدر الابتهاج ، الرغبة ، الحسن ، النفاسة ، وبعض المعاني المرادفة الأخرى .

ومما تقـــدم يمكن الاستنتاج بأن الكلمة المماثلة في العبرية لكلمة « ماحامود » لا يمكن إلا أن تكون « يودوكسوس – Eudoxos » وهي بمعنى:الشيء المرغوب فيه ، والمتطلّع إليه ، واللطيف ، والمشتهى ، والنفيس ، والمرضيّ ، والمحبوب ، والمحترم » .

٣ – إنها لمعجزة فريدة حقاً في تاريخ الأديان ، أن يُطلق اسم محمد من بين جميع أبناء آدم ، على نجل عبد الله وآمنة في مدينة مـــكة لأول مرة . ولا يمكن أن تكون هناك حيلة زائفة ، أو محاولة ما أو تزوير ما في هذا المجـــال ؛ لأن والديه وأقرباءه كانوا وثنيين ولم يعلموا شيئاً مطلقاً عن التنبؤات العبرية ولا عن المخطوطات

المسيحية الخاصة بنبيّ عظيم ، كان موعوداً أن يأتي لكي يعيـد ويقيـم دين الإسلام . وإن اختيارهم لاسم محمد أو أحمد لا يمكن تفسيره بأنه كان على سبيل المصادفة أو حدثاً عرضياً . فقد كان الأمر – بلا ريب – يتعلق بالعناية الإلهية والإلهام الإلهـي .

وسواء كان شعراء العرب أو أدباؤهم قد حافظوا على الأهمية لاسم الفاعل المبني للمجهول لصيغة الفعل « حَمَد » في العبرية أم لا ، فإنه لا يتوافر لدى إثبات ذلك بطريقة أو بأخرى ، ولكن الاسم المبني للمجهول للفعل « حُمِّدَ » في العربية هو « مُحَمَّد » وهو ما يماثله في العبرية (حيميد) ، (ماحماد) أو (محمود) ، فإن الصلة بين التطابق والتشابه في الصيغتين أمر لا مجـال للشك فيه .

وإنني بكل أمانة استخلصت مغزى الصيغ العبرية كما قدمها أصحاب الصناعة المعجمية والمترجمون . ولكن المعنى الجوهري والروحي لكلمة « حمدا » و « محمود » هو : الثناء ، والمستحق للمدح ، والمشهور ، والمُحتفى به ، والمجيد « ذلك أنه من بين المخلوقات والأشياء ، ماذا يمكن أن يكون الأكثر تمجيداً وشرفاً ولمعاناً وحسن ثناء » غير ذلك الذي هو جدّ محبوب وجدّ مرغوب ؟ ومن منطلق هذا المعنى الواقعي استعمل القرآن كلمة (الحمد) والتي يشتق منها « أحمد ومحمد » ، وكلمة « حمدو » هي نفس الكلمة العبرية (حمد) وإن مجـد « محمد » يتفـوق على مجد كل مخلوق آخر ، كما أوضح دانيال (فصل ٧) ، وكذلك في الوحي الإلهي الذي يقول : « لولاك لمـا خلقت الأفلاك » « أيها الحبيب محمد » . ولكن الشرف الأكبر والمجد الذي منحه الله إلى أعظم أنبيائه إجلالاً ، هو تكليفه بإقامة دين الله وتصحيح مفاهيمه ، تحت اسم « الإسلام » وهو كمثل اسم محمد الذي بشرّ به ، يتوافر فيه الكثير من خصائص الهدوء والوداعة ، إذ يعني : السلام ، الأمان ، السلامة ، الاطمئنان ، الخلاص ، وكذلك « الخير » في مقابل « الشر » ، فضلاً عن الخضوع والإذعان لمشيئة الله تعالى .

وإن الرؤيا التي تشرف بها الرعاة بمناسبة ميلاد المسيح ، كانت من حيث الوقت والفرصة مناسبة جداً ، لأنه ولد في تلك الليلة رسول عظيم من رسل الله ، وأحـد الأبرار المبشِّرين بالإسلام . لقد كان المسيح هو البشير النذير من قِبَل الله ، كذلك كان إنجيله تمهيداً للقرآن ، وكان مجيء يسوع المسيح بداية لعصر جديد في تاريخ

الأديان والسلوك الأخلاقي . وهو نفسه لم يكن « ماحامود » الموعود فيما بعد لتحطيم الشرير ومملكته الوثنية في الأراضي الموعودة . ولقد كان « الوحش الرابع » — وهو القــوة الرومانية الجبارة — ما تزال تنمو وتنمو في فتوحاتها . وكانت القــدس ، مع هيكلها الرائع ، وكهنوتها ، ستتحطم على يدي ذلك الوحش ، وحين جاء المسيح إلى قومه ، أعرضوا عنه ولم يقبلوا به .

وأمّا أولئك الذين قبلوه من بين اليهود فقد جُعلوا « أبناءً للمملكة » ولكن من تبقى منهم تشتتوا في الدنيا ، وتبع ذلك الاضطهادات العشرة الفظيعة تحت حكم أباطرة الرومان الوثنيين ، والذين كان عليهم أن يتوجوا الآلاف بأكاليل الاستشهاد ، وكذلك قُيِّضَ للإسكندر الكبير وأتباعه أن يجتاحوا المؤمنين الصادقين في توحيدهم لله . وبعد ذلك كانت بعثة « محمــد » الذي لم يكن إلهــاً ، ولا ابن إلــه ، بل « الممجَّد ، المحبوب » ، وابن الإنسان الأسمى ، إنه « البارناشا الكامل » الذي يأتي ويحطــم ذلك الوحش .



يوحنا المعمدان يعلن عن نبيٍّ قوي
يحيىٰ بن زكريا

كان يوحنا المعمدان حسب روايات الإنجيليين الأربعة هو ابن خالة (عيسى) وكان معاصراً له ، ولم يزد عمره عن عمر عيسى أكثرَ من ستة أشهر . ولا يذكر القرآن شيئاً عن حياة هذا النبي وعمله ، سوى أن الله – عن طريق ملائكته . أعلن لوالده زكريا (١) أنه سيولد له ولد اسمه يحيى ، وسيكون شخصاً شريفاً طاهراً مصدِّقاً لكلمة الله ، ومن الأنبياء الصالحين .

أما بالنسبة لطفولته الأولى ، فلا نعرف شيئاً عنها سوى أنه كان ناصريا (من الناصرة) يعيش في البرية ، يأكل الجراد والعسل البرّي ، ويغطي جسمه بكساء مصنوع من وبر الجمال ، ويتمنطق بحزامٍ من الجلد ، ويُعتقد أنه كان من طائفة دينية يهودية تسمى الأسينيين (Essenes) الذين ظهر منهم المسيحيون الأوائل « الإيبونيون – (Ibionites) » والذين كانت ميزتهم الرئيسية الانصراف عن الملذات الدنيوية ، والواقع أن الوصف القرآني لهذا النبي بكونه « حَصُوراً » – وتعني الطاهر العفيف بكل معنى الكلمة – تدل على أنه عاش عيشة عزوبية قائمةً على العفة والفقر والتقوى . ولم يكن يُشاهَدُ منذ باكورة شبابه إلى أن بلغ الثلاثين من عمره أو يزيد ، حيث بدأت بعثته ، وأخذ يدعو الناس للتوبة وتعميدِ الخاطئين بالماء ، وانطلقت جماهير غفيرة إلى برية يهودا ، لسماع المواعظ النارية التي يلقيها هذا

---

(١) قال تعالى : (يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا) . سورة مريم / ٧ .
(أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً ، وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ) .سورة آل عمران / ٣٩ .   [المترجم]

النبي الجديد ، وقام بتعميد اليهود التائبين في ماء نهر الأردن ، ووبّخ الفريسيين والقُسُسَ المثقفين والمتعصبين ، وهـدد « السدوقيين – (Saducees) » المتعلمين ، ذوي الاتجاه العقلاني بالانتقام القادم ، وأعلن أنه كان يعمِّدهم بالماء فقط كرمز لتطهير القلوب بالتوبة . وأذاع أن نبياً آخر قادماً بعده ، سوف يعمِّدهم بالروح القدس والنار ، وسوف يجمع قمحه في أهرائه ، ويحرق القش ، بنار لا تُخمد . كما أعلن أن القادم من بعده سيكون أعلى مكانةً منه ، من حيث القوة والكرامة ، بحيث أن المعمدان اعترف أنه « لا يستحقّ شرفَ الانحناء وحلّ سيورِ حذاء هذا النبي »

وكان من جملة هذه الإنجازات العظيمة ليحيى عليه السلام (يوحنا المعمدان) أن عيسى الناصري دخل أيضاً في ماء الأردن وتعمَّد على يد هذا النبي كأي واحد آخر. أما مرقص (١ / ٩) ولوقا (٣ / ٢١) ، اللذان يرويان قصة تعميد عيسى هذه على يد يوحنا ، فإنهما لا يعرفان شيئاً عن ملاحظات يوحنا حول هذه النقطة كما وردت في إنجيل متّى (فصل ٣) حيث ينص على أن المعمدان قال لعيسى « إنني بحاجة لأن أُعَمَّد على يديك فهل جئت أنت لي ؟ » ويقال إن عيسى أجاب بقوله « دعنا نحقـق الاستقامة » ثم عمَّـده ، ويقول جماعة الأناجيل الثلاثة الأولى من العهد الجديد : (Synopties) إن روح النُّبوَّةِ نزلت على عيسى على شكل حمامة عندما خرج من الماء ، وسُمع صوتٌ يقول : « هذا ابني الحبيب وأنا مسرور به كثيراً » .

أما الإنجيل الرابع فهو لا يذكر شيئاً عن تعميد عيسى على يد يوحنا ، ولكنه يقول لنا : إن المعمدان عندما رأى عيسى ، صاح قائلاً « انظروا هذا حَمَلُ الله . . . الخ » (يوحنا ١) . ويدّعي هذا الإنجيل أن « أَندراوس » كان تلميذاً للمعمدان ، وبعد أن هجر سيده ، أَحضر سمعان إلى عيسى . (يوحنا ١) وهي قصة تناقض بصورة واضحة أقوال الإنجيليين الآخرين (متى ٤ / ١٨ – ١٩) و (مرقص ١ / ١٦ – ١٨) . وعند القديس لوقا تختلف القصة كُلِّيةً ، فقد جاء فيها أن عيسى يعرف « سمعان بطرس » قبل أن يصبح حوارياً (لوقا ٤ / ٣٨ – ٣٩) كما أن الظرف الذي حدا بالمعلم لأن يَكتُبَ أولادَ يونس وزبيدي في قائمة تلاميذه ، غريب كل الغرابة على الإنجيليين الآخرين (لوقا ٦/١–١١) . وتحتوي الأناجيل الأربعة للكنائس التثليثية (Trinitarians)

على العديد من الأقوال المتضاربة حول الاتصال بين النبيَّيْن اللذين تجمع بينهما آصرة القرابة . وجاء في الإنجيل الرابع أن المعمدان لم يكن على معرفة من شخصية عيسى ، حتّى بعد تعميده ، عندما نزلت روحٌ كالحمامة وحلّت فيه (يوحنا ١) بينما يقول لنا القديس لوقا إن المعمدان – وهو ما يزال جنيناً في رحم أمه – كان يعرف عيسى ويعبده ، وعيسى بدوره كان عندئذ جنيناً أصغر في رحم مريم ، (لوقا ١ / ٤٤) ثم يقال لنا ثانيةً إن المعمدان وهو مودع في السجن حيث جرى قطع رأسه ، (متّى ١١ / ١٤) لم يكن على علم بالطبيعة الحقيقية لرسالةِ عيسى .

وثمة إشارة غامضة في الأسئلة التي وُجّهت إلى النبي يحيى من قبل الرهبان واللاويين ، فهم يسألون المعمدان « هل أنت المسيح ؟ هل أنت إيليا ؟ » وعندما يجيبهم بالنفي يقولون : « إذا لم تكن المسيح ولا إيليا ولا ذلك النبي ، إذن فلماذا تُعَمِّد ؟ ! » (يوحنا / ١) ولذلك سوف يُلاحَظُ أنه حسب الإنجيل الرابع لم يكن يوحنا المعمدان هو المسيح ولا إيليا ولا ذلك النبي ! ! ، وإنني أتجرّأ فأسأل الكنائس المسيحية التي تؤمن أن مُلْهِمَ جميع هذه الأقوال المتضاربة هو الروح القدس ، أي ثالث الآلهة الثلاثة ، فَمَنْ يعني أولئك الأحبار اليهود واللاويون بقولهم « وذلك النبي ؟ » وإذا كنتم تدّعون عدم معرفتكم مقصد رجال الدين العبرانيين ، فهل يعرف باباواتكم وبطارقتكم من هو « ذلك النبي » ؟ وإذا كانوا لا يعرفون ، فما هي الفائدة الدنيوية من هذه الأناجيل المشكوك في صحتها والمحرَّفة ؟ وإذا كان الأمر على العكس ، وكنتم تعرفون من هو « ذلك النبي » فلماذا إذن تبقون صامتِين . . . ؟ !

وفي الاقتباس الوارد أعلاه (يوحنا ١) يُذكرُ بوضوح أن المعمدان قال إنَّهُ لم يكن نبياً ، بينما يُروى أن عيسى قال « لم يوجد قط رجال ولدتهم النساء أعظم من يوحنا » (متّى / ١١) فهل نادى عيسى حقيقة بقول كهذا ؟ هل كان المعمدان أعظم من إبراهيم وموسى وداود وعيسى نفسه ؟ وإذا كانت هذه الشهادة من عيسى عن ابن زكريا صحيحة ، إذن فإن عظمة « آكل الجراد في البرّيّة » سوف تقتصر فقط على النكران المطلق للذات والعزوف عن الدنيا بكافةِ ملذاتها ومباهجها ، ورغبته الشديدة في دعوة الناس إلى التوبة ، وأخباره السارّة عن « ذلك النبيّ » .

أم أن عظمته تتكون – كما تصرح الكنائس – من كونه ابن الخالة ، والمعاصر والمشاهد لعيسى ؟ ويمكن أن تُقرَّرَ قيمةُ الرجل وكذلك النبي ، وتُقدَّرَ بأعماله . ونحن نجهل كل الجهل عدد الأشخاص الذين اهتدوا من خلال المواعظ وتطهروا بمعمدانية يوحنا ، كما أننا لا نعرف ما يتعلق بالأثر الناتج عن ذلك التحول إلى الدين ، على موقف واتجاهات اليهود التائبين تجاه « حَمَلِ الله ! ! . . »

ويُروى أن المسيح أعلن أن يوحنا المعمدان كان تجسّداً جديداً للنبي إيليا (متَّى ١١ / ١٤ ، و ١٧ / ١٢ ، ولوقا ١ / ١٧) بينما قال يوحنا للوفد اليهودي « إنه لم يكن إيليا ولا المسيح ولا ذلك النبي » (يوحنا / ١) .

إذن هل في وسع المرء استخلاصاً من هذه الأناجيل الحافلة بالأقوال المتناقضة المتضاربة ، أن يتوصل إلى استنتاج صحيح ؟ هل يستطيع الإنسان أن يعرف الحقيقة ؟ إن التهمة خطيرة جداً ، لأن الأشخاص المعنيين ليسوا بشراً عاديين مثلنا ، إنهما اثنان من الأنبياء ، خُلقا في رحمي أميهما على يد الروح ، وولدا بصورة خارقة ، أحدهما لم يكن له أب ، بينما كان أبوا النبي الثاني عجوزين عقيمين غير قادرين على الإنجاب ، وفي التسعينات من عمريهما . وتزداد التهمة خطورة عندما نأتي للدراسة طبيعة الوثائق التي كُتبت فيها هذه الروايات المتناقضة . والرواة هم الإنجيليون وهم أشخاص يُزعم أنه مُوحى إليهم من الروح القدس ، وأن ما دوّنوه هو وحي ! ! إلا أنه توجد هناك أكذوبة أو قول خاطىء أو تزييف في مكان ما (فيقال إن إيليا « أو إلياس » جاء قبل « ذلك النبي » (متَّى ٤ / ٥ – ٦) ويقول عيسى « يوحنا هو إيليا » ، ويقول يوحنا « أنا لست إيليا » . وكلا القولين المثبت والمنفي وارد في الكتاب المقدس عند النصارى ! ! !

ومن المستحيل كل الاستحالة الوصول إلى الحقيقة والدين الحقّ من هذه الأناجيل إلا إذا قُرِئت وجرى تمحيصها من وجهة نظرٍ إسلامية وتوحيدية . عندئذ فقط يمكن استخلاص الصدق من الكذب وتمييز الحقيقي عن الزائف أو المشكوك فيه . ولا يمكن غربلة الإنجيل ، وتمييز الغث من السمين في صحائفه ، إلا بمقياس الإسلام وروحه وعقيدته . وقبل السير قدماً لإظهار أن النبي الذي تنبأ عنه المعمدان لا يمكن أن يكون

سوى محمد ، فإنني يجب أن ألفت الانتباه الكامل لقرّائي ، إلى نقطة أو نقطتين هامتين أخريين :

يمـــكن أولاً القول إن المسلمين يكنّون أعظم احترام وتقدير لجميع الأنبياء ولاسيما أولئك الذين يقرأون أسماءهم في القرآن مثل يوحنا (يحيى) وعيسى ، ويؤمنون أن الرســل أو تلاميــذ عيسى كانــوا رجــالاً أبراراً ملهمين (١) . ولكن لأنه ليس في حوزتنا كتاباتهم الأصلية الصافية ، فإننا لا نستطيع أن نتصور أن اثنين من عباد الله العظماء ، يمكن أن يناقض أحدهما الآخر . وثمة أمر آخر هــام جدير بالملاحظة وهو السكوت الذي يلفت النظر من قبل إنجيل برنابا » عن يوحنا

---

(١) إن المسلمين يؤمنــون أن تلاميــذ المسيح - عليه السلام - هــم حواريّوه وأصحابه ، وهم أبرار مطهرون .

جاء في تفسير المنار أن الحواريين جمع حواريّ ، وهو من خلص لك وأخلص سراً وجهراً في مودتك . ومعناه في أصل اللغــة الأبيض النقي اللون .

وقال بعضهم : الحواريون : صفوة الأنبياء ، أي أصحابهم الذين خلصوا لهم.

قال الزجاج : الحواريون : خلصاء الأنبياء عليهم السلام وصفوتهم .

قال : والدليل على ذلك قول النبي ﷺ : « الزبير ابن عمّي ، وحواريي من أمتي » . أي : خاصتي من أصحابي وناصري .

قــال : وأصحاب النبي ﷺ حواريّون . . .

وتأويل الحواريين في اللغة الذين أخلصوا ونُقّوا من كل عيب . واللغة لا تدل على النقاء من كل عيب بهذا التحديد ، وإنما تدلّ على النقاء والخلوص مطلقاً ، فيكفي في صحة الإطلاق أن يكونوا قد خلصوا لنصره ، أو خلصوا ونُقّوا من الكفر والنفاق .

وقد أخبر القرآن عنهم في سورة المــائدة وفي سورة آل عمران ، وفي سورة الصف بأنهم مسلمون لله في إيمانهم مذعنون لمــا يترتب عليهم من الأمر والنهي . . وأنهم أنصار الله . . . [المعلق]

المعمدان ، هذا الإنجيل ، لا يذكر قط اسم يحيى ، وينسب إخباره عن « النبي الأقوى » إلى عيسى المسيح . وهناك ، وفي أثناء حديث عيسى عن روح محمد على أنها خلقت قبل أرواح الأنبياء الآخرين ، فإنه يخبر أنها على درجة من المجد والرفعة ، بحيث أنه عندما يأتي ، فإن عيسى سوف يعتبر نفسه غير جدير بالانحناء وحل سيور حـــذائه .

واعتاد « الصارخ » العظيم في البرية أثناء مواعظه للجماهير أن يصرخ بصوت عالٍ ، ويقـــول : « أنا اعمّدكم بالماء وذلك للتوبة وغفران الخطايا ، ولكن هناك شخص قـــادم بعدي وأقوى مني لدرجة أنني لا أستحق حل سيور حذائه ، وسيعمّدكم بالروح والنار » هذه الكلمات مرويّة بصورة مختلفة في الأناجيل ، ولكن الجميع يعبرّون عن نفس المعنى ، الدالّ على أكبر قدر من الاحترام والتقدير للشخصية القوية ذات الكرامة الرفيعة التي يتمتع بها النبي القوي المتَنَبَّأ عنه . وهذه الكلمات الصادرة عن المعمدان دقيقة الوصف للأسلوب الشرقي في الضيافة والتكريم اللذين يقدمّان للزائر المحترم . في اللحظة التي يدخل فيها الضيف يسارع المضيف أو أحد أفراد عائلته لخلع حذائه ومرافقته إلى أريكة أو مقعد مريح . وعندما يغادر الضيف يتكرر التكريم ومساعدته على انتعال حذائه ، ويكون المضيف راكعاً يربط سيور هذا الحـــذاء .

والذي يقصده يوحنا المعمدان من قوله ، هو أنه إذا قدّر له أن يقابل ذلك النبي الموقّر ، فإنه بالتأكيد سوف يعتبر نفسه غير جدير بشرف الإنحناء وحل سيور حذائه . ومن هذه الطـــاعة التي تـّم تقديمها سلفاً من قبل المعمدان ، يتأكد شيء واحد وهو أن النبي الذي تمت البشارة بقدومه ، معروف لدى كافة الأنبياء بأنه سيدهم وسلطانهم وكبيرهم ، وإلا لمـــا اعترف شخص شريف طاهر معصوم من الذنوب ورسول من رسل الله مثل سيدنا يحيى ، هذا الاعتراف المتواضع .

والآن بقيت مهمة تحديد هوية « ذلك النبي » ؛ لذلك فإن هذه المقالة يجب أن تقسم إلى جزأين ، وهمـــا :

(أ) النـــبي الذي جرى التنبؤ عنـــه لم يكن عيسى المسيح .

(ب) النـــبي الذي جرى التنبّؤ عنه هو « محمد » .

وكل الناس يعرفون أن الكنائس النصرانية قد اعتبرت يوحنا المعمدان دائماً تابعاً لعيسى ومبعوثاً له . وكل المفسّرين أو المعلقين النصارى يظهرون عيسى وكأنه موضوع شهادة يوحنا ونبوءته .

ومع أن لغـــة الأناجيل قد شوّهها المزيفون في ذلك الاتجاه ، إلا أن ذلك الزيف أو الخطـــأ لا يمكن أن يخفى إلى الأبد عن عين الناقد البصير ، أو العين الفاحصة المحايدة ، ولا يمكن أن يكون عيسى موضوع شهادة أو قول يوحنا للأسباب التالية :

١ - إن نفس كلمة « بعـــد » تستبعد عيسى بكل وضوح من أن يكون هو النبي المبَشَّر به ؛ لأن عيسى ويوحنا ولدا في سنة واحدة وعاصر أحدهما الآخر . يقول يوحنا « إن ذلك الآتي بعدي هو أقوى مني » ، وكلمة « بعد » هذه تدل على مستقبل غير معلوم بعده . وبلغة النبوءة فهي تعبّر عن دورة أو أكثر من دورات الزمن . ومن المعروف جيّداً لدى المتصوّفة وأولئك الذي يعيشون حياة روحية وحياة تأمل ، أن في كل دورة زمنية تقدّر بنحو خمسة قرون أو ستة ، تظهر شخصية لامعة ، يَحُفّ بها أنصار وتابعون ، ويمتد أثرها في مختلف أنحاء العالم ، وتؤدي إلى حركات دينية واجتماعية تدوم عدة أجيال إلى أن يحين ظهور نبيّ يدعو إلى الهدى ، ويتبعه كثير من الأصحاب والتلاميذ ، ويقوم بإصلاحات وحركات استنارة ضخمة . وهـــكذا فإن تاريخ الدين الحق من إبراهيم إلى محمد مرصّع بأحداث حاسمة تحت أسماء إبراهيم وموسى وداود وزورو بابـــل ، وعيسى ومحمد ، وكلّ فترة من هذه الفترات تتميز بملامح خاصة ، فهي تزدهر حيناً ، ثم تأخذ في الاضمحلال والزوال إلى أن يظهر كوكب مضيء آخر على المسرح ، وهكذا حتّى قدوم يوحنا وعيسى ومن ساروا على إثرهما من المهتدين .

ووجدِ يوحنا أمّته تعاني تحت النير الحديدي المتمثل في روما والملوك الهيروديين الأشرار وجنودهم الكفرة ، وشاهد كذلك الشعب اليهودي الجاهل ، يضلله رجال الدين الفاسدون والمتبجّحون ، ورأى الكتّب المقدسة تُحرق وتَحِلّ محلّها أدبيات خرافية موروثة عن الأجداد ، ووجد أن الناس قد فقدوا كل أمل في الخلاص إلا اعتقادهم بأن إبراهيم أباهم سيخلّصهم ، فقـــال لهم إن إبراهيم لم يُرِدْهم كأبناء له

لأنهم لم يكونوا ليستحقوا أباً مثله ، ولكن الله قادر على إنهاض سلالة لإبراهيم من الحجارة (متّى / ٣) . كذلك كان لديهم بعض الأمل القليل بمسيحٍ وسليلٍ لأسرة داود ، والذي انتظروه آنئذٍ كما ينتظرونه اليوم ليأتي ويعيد مملكة ذلك المُلك في القـــدس لديهم .

وعندما سأله الوفد اليهودي من القدس « هل أنت المسيح ؟ » أجاب غاضباً بالنفي لهذا السؤال وما تلاه من أسئلتهم ، والله وحده يعلم التوبيخ والملامة التي سمعوها من تلك الأقوال الحادّة التي تفوّه بها في البرّيّة ، ذلك النبي الكريم . وقد حرصت الكنيسة أو الكنيس على عدم إظهارها مكتوبة .

وإذا ما تركنا المبالغات جانباً ، وهي التي يتضح أنها أُضيفت إلى الأناجيل ، فإننا نعتقد اعتقاداً كاملاً أن المعمدان قدّم عيسى على أنه المسيح الحقيقي ، ونصح الجماهير بإطاعته واتباع تعليماته وإنجيله . غير أنه أخبر قومه بوضوح أن ثمة كوكباً آخر عظيماً هو الأخير الخاتم ، الممجّد المقدَّم عند الله ، بحيث أن (يوحنا) لا يستحق حـــلّ سيور حذائه .

٢ – لم يكن عيسى المسيح هو الذي يمكن أن يكون مقصوداً عند يوحنا ، لأنه لو كان الأمر كذلك لاتّبع عيسى وخضع له كتلميذٍ وكتابعٍ ، ولكن لم يكن الأمر كذلك . وعلى العكس نجده يعظ ويُعَمِّد ويستقبل التلاميذ ويلقنهم ، ويُوبخ الملك هيرودس ويُقرِّع الطبقات الحاكمة اليهودية ، ويتنبأ بمجيء نبيٍّ آخر أقوى منه ، ودون أن يعير أدنى التفات لوجود ابن خالته في يهودا أو الجلّيل .

٣ – مع أن الكنائس النصرانية جعلت من عيسى المسيح إلهـــاً أو ابن إلـــه ، إلا أنّ كونه مختوناً مثل كل الإسرائيليين ومُعمَّداً على يد القديس يوحنا مثل اليهود العاديين ، يثبت أن الأمر على العكس تماماً ، فالكلمات التي يجري تبادلها بين المعمدان والمعمَّد في نهر الأردن ، تبدو تحريفاً أو ابتذالاً لأنها ذات طابع خدّاع . فلو كان عيسى حقيقة هو الشخص الذي تنبأ به المعمدان على أنه « أقوى » منه لدرجة أنه لم يكن أهلاً للانحناء وحل سيور حذائه ، وأنه « سوف يعمِّدُ بالروح والنار » لو كان الأمر كذلك ، لمـــا كان هناك ضرورة أو معنى لتعميده في النهر على يد

شخص أقل منه ، ومثله مثل أي يهودي ؟ ؟ وإن تعبير عيسى القائل « يجدر بنا أن نحقــق كل العدالة » قول غير مفهوم ؛ فلماذا تتحقق على أيديهم كل العدالة ؟ وكيف ذلك إذا كان عيسى معمَّداً ؟ هذا التعبير غير مفهوم البتة . فهو إما تحريف أو عبارة مشوهة عمداً . وهنا مثال آخر يطرح نفسه من أجل حله وتفسيره بالروح الإسلامية .
ومن وجهة نظر إسلامية فإن المعنى الوحيد لهذا التعبير أنّ يوحنا من خلال عين البصير أو الصوفي (الحكيم Sophi) رأى الطابع التنبؤي للناصري ، واعتقد لفترة قصيرة أنه رسول الله الخـاتم العظيم ، وبالتالي فقــد أحجم عن تعميده ، ولكن حينما اعترف عيسى بهويته ، عندها فقط وافــق يوحنا على تعميده .

٤ ـ إن الحقيقة القائلة بأن يوحنا عندما كان في السجن أرسل تلاميذه لعيسى يسألونه : « هل أنت النبي الذي سيأتي ؟ أم نتوقع واحداً آخر ؟ » هذه الحقيقة تُظهِرُ بجلاء أن المعمدان لم يعرف موهبة النبوة في عيسى إلا بعد أن سمع وهو في السجن بمعجزاته ، هذه الشهادة من القديس متىً (١١ / ٣) تتناقض مع شهادة الإنجيل الرابع (يوحنا / ١) وتضعفها ، حيث ينص فيه على أن المعمدان عندما رأى عيسى قال : « انظروا حَمَلَ الله الذي سيحمل خطيئة العـالم » ولا يعرف الإنجيل الرابع شيئاً عن الاستشهاد القاسي ليوحنا (متى / ١٤ ، مرقص ٦ / ١٤ ـ ٢٩) .

ومن ناحية عقيدة التوحيد الإسلامية فإن من المستحيل معنوياً ، أن نبياً كالمعمدان الذي يصفه القرآن بكونه « سَيّداً وَحَصُوراً ونَبِيًّا مِنَ الصَّالِحينَ » يستخدم تعبيراً إلحادياً كهذا عن يسوع المسيح . إذاً ، فإن طابع رسالة يوحنا وجوهرها هو الوعــظ بالتوبة ، أي أن كل شخص مسؤول عن خطيئته ، ويجب أن يتحمل وزرها ، أو أن يمحوها بنفسه عن طريق التوبة . فالمعمودية كانت مجرد وضوء خارجي أو غسيل يرمز إلى طرح الخطـايا ، ولكن لا يمكن إزالة الذنب إلا بالاعتراف به إلى الله واستسماح من تضرر بذلك الذنب ـ إذا اقتضت الضرورة ذلك ـ والعزم على عدم ارتكابه ثانية . ولو كان عيسى « حَمَلَ الله » الذي سيتحمل خطـايا العالم ، فإن وعظ يوحنا سيكون ، لا سمح الله ، مضحكاً وعـديم المعنى . كذلك فإن يوحنا عرف أكثر من أي شخص أن كلمات كهذه تصدر من فمه سوف تؤدي ـ كما حدث بالفعل ـ ،

إلى خطــأ لا يمكن تصحيحه ، وكان لابد لهذا الخطأ من تشويه كنيسة المسيح ومسخها . وإن أساس الخطأ الذي شوه دين الكنائس يمكن البحث عنه والعثور عليه في قضية التضحية التي تم نيابة عن الآخرين وهي قضية سخيفة ، فهل تحمَّل « حَمَلُ الله » خطيئة العـالم ؟ إن صفحات التاريخ الكنسي المظلمة لأي من الكنائس العـديدة المعادية والملحـدة ، ستجيب على ذلك السؤال بالنفي القاطع . « فالحُمْلانُ » في مقصورات الاعتراف تستطيع أن تخبرك عن طريق تنهداتها عن وطــأة الآثام الثقيلة المتعـددة الألوان التي تحملها كواهلها ، ومن خلال ذلك تدرك أن النصارى رغم علمهم وحضارتهم ، فإنهم يرتكبون من الخطـايا وأعمال القتل والسرقة والانغماس في الشهوات والزنا والحروب والمظـالم وأعمال السلب والاندفاع إلى الغزو وحب المال ما هو أشدّ هولاً مما ترتكبه بقية البشرية جمعاء .

٥ – لا يمكن أن يكون يوحنا المعمدان سلف عيسى المسيح المبشّر به ، بالمعـنى الذي تفسر فيه الكنائس بعثته . فالأناجيل تقـدمه لنا على أنه « صوت يصرخ في البرية » كتحقيقٍ لعبارة جاءت في إشعيا (٤٠ / ٣) ، وكرسولٍ لعيسى المسيح استناداً إلى قول النبي ملاخي (ملاخي ٣/ ٥٠) . إن القول بأن مهمة المعمدان أو واجبَه كان إعدادَ الطريق لعيسى – باعتباره سلفاً من ناحية ، ومن ناحية أُخرى باعتباره فاتحاً منتصراً قادماً فَجْأةً إلى هيكله ، حيث يقيم دينه « السلام » ، ويجعل القـدس بهيكلها أكثر مجـداً من ذي قبل (حاجّى ٢/ ٨) ذلك القول – إنمـا هو اعتراف بالفشل المطـلق في المهمّة بأسرها .

ومع ذلك فثمة شيء واحد صحيح كوضوح قولنا (٢ + ٢ = ٤) وهو أن المشروع كله حسب رأي النصارى المبالغ فيه أثبت أنه فاشل كلياً . لأنه مهما كانت وجهة النظر التي نتناول منها تفسيرات الكنائس ، فالفشل يبدو بجلاء ، فبدلاً من استقبال أميره في القدس عند بوابة الهيكل ، وهو يلبس التاج والأرجوان ، بين هتافات اليهـود الشديدة الهيـاج ، فإن ذلك السلف يستقبله عارياً مثله ، في وسط نهر الأردن ، ثم يقـدم سيده بعد غمسه أو تغطيسه في الماء إلى الجماهير بقوله : « انظروا هذا هو المسيح » أو « هذا هو ابن الله » أو في مكان آخر « انظروا حَمَلَ

الله » وهذا يعـــني إما مجرد تحقير لشعب إسرائيل أو يعني الكفر ، أو يعني السخرية من عيسى ليس إلا ، إضافة إلى أن يجعل من نفسه هو أضحوكة .

والطبيعة الحقيقية لرسالة الزاهد المتقشف ، والمعنى الحقيقي لمواعظه ، أمرٌ أُسيءَ فهمُه كلية من قبل الكنائس ، ولكن فهم هذه الحقيقة أحبارُ اليهـــود وأصحاب الفتوى عندهم ورفضوها . وسأتناول هذا في الحلقة التالية وأُبين أن طبيعة رسالة يوحنا ، وكذلك هـــدف رسالة المسيح إلى اليهود ، أمران مختلفان تمـــاماً عما تحاول الكنائس أن تعتقده .



النبي الذي تنبأ به «المعمدان» كان محمداً بدون ريب

ثمة ملاحظات بارزة جداً عن يوحنا المعمدان ، أبداها يسوع المسيح ولكنها مسجلة بطريقة غامضة . أولها : هي التي يُصَوِّرُ فيها يوحنّا للعالم على أنه تجسيد جديد لإيليا « العهد القديم » . ويتكون الغموض الذي يلف هذه التسمية من الصمت الملحوظ الذي أبداه المسيح عن هوية الشخص الذي كان متوقعاً من إيليا أن يعلن عنه رسمياً ويقدمه للعالم على أنه آخر الأنبياء . ولغة عيسى في هذا الصدد غامضة كل الغموض ومبهمة جداً . فإذا كان يوحنا هو إيليا كما هو معلن بوضوح وجرأة ، فلماذا إذن لا يذكُر اسم الشخص الذي كان إيليا سلفاً سابقاً له ؟ وإذا كان عيسى هو رسول العهد « والسيد المسيطر » كما تُتَرجِمُ الترجمةُ اللاتينيةُ الكاثوليكية للكتاب المقدس كلمة « أدون »[1]، فلماذا لا يقول ذلك بصراحة ؟ وإذا ما أَعلنَ بشجاعة أنه لم يكن هو ذلك السيد المسيطر بل هناك نبي آخر ، فلابد من أن تكون يداً مجرمة ، تلك اليد التي محت وأزالت كلمات عيسى من الإنجيل الأصلي . وعلى أية حال ، فإن الأناجيل هي المسؤولة عن هذا الغموض والإبهام . وما هو إلا تلاعب شيطاني بالنص ذلك الذي أضلَّ بلايين النصارى لقرون عديدة . وأقل ما يقال إن عيسى ، بصرف النظر عن اعتقاده من الشخص الذي كان يمثله ، فإنه كان من واجبه أن يُظهِرَ نفسه بوضوح وأن يُعلِنَ بصراحة : « إن يوحنا هو إيليا الذي أُرسلَ كسلفٍ سابق مبشر يمهد لي الطريق » فإذا لم يكن الأمر كذلك فإنه كان عليه أن يعلن الإعلان التالي : « إن يوحنا هو إيليا الذي أُرسل ليمهد السبيل أمام محمد » ولعل هذا يُعزى إلى حب عيسى للغموض . والواقع أن هناك عدة أمثلة – كما ورد في الأناجيل حيث يعطي عيسى جواباً أو يدلي بقولٍ يكون غير مفهوم البته . وإذا تركنا ألوهيته جانباً ، فإنه كان متوقعاً منه كنبي بل وكمعلم أن يكون معلماً وقائداً واضحاً .

(١) ملاخي : ٣/ ٥٠

أما الملاحظة الثانية فإنها ملفوفة بغموض أكثر كثافة إذ يقول عيسى: « لا يوجد ابن أنثى أعظم من يوحنا المعمدان ، ولكن أقلّ من في مملكة السماء أعظم شأناً من يوحنا » فهل يقصد عيسى المسيح أن يعلّمنا أن يوحنا المعمدان وجميع الأنبياء الأتقياء كانوا خارج مملكة الله ؟ « ومن هو ذلك الأقل » الذي كان أعظم من يوحنا ، وبالتالي من كافة الناس الذين سبقوا المعمدان ! ؟ ! فهل يقصد عيسى بكلمة الأقل نفسه أو الأقل بين النصارى المعمَّدين ؟ لا يمكن أن يكون نفسه ، لأن تلك المملكة في زمنه لم تكن قائمة على الأرض ، وإذا كانت قائمة فإنه لا يمكن أن يكون هو الأقل فيها لأنه هو مؤسسها . وقد اكتشفت الكنائس – أو بالأحرى كل كنيسة سواء كانت متطابقةً مع الطريق السوي أو مخالفة له ، حسب وجهة نظرها – حلاً مبهماً أو سخيفاً جداً لهذه المشكلة ، وذلك الحل هو أن « أقل » مسيحي مغسول بدم عيسى ، إما من خلال طقس المعمودية حسب اعتقاد الكهنوتيين ، أو من خلال إعادة الحياة بطريقة ما حسب أساطير الإنجيليين ، ويصبح أعظم من المعمدان ومن كل جماعات الرجال والنساء البَرَرَة ، بما فيهم « آدم ونوح وإبراهيم وموسى وداود وإيليا ودانيال ويوحنا المعمدان » ؟ ؟ وسبب هذا الادعاء العجيب ، هو أن المسيحي مهما كان خاطئاً أو جاهلاً ومنحط القدر وفقيراً فله حق التمتع بالامتيازات التي تَطَلَّع إليها الأنبياء الكرام ، ولكن لم يبلغوها ، شريطة أن يؤمن بأن عيسى هو مُخلِّصُه ، وهذه الامتيازات لا تقع تحت حصر مثل التطهُّر من الخطيئة الأصلية من خلال المعمودية ، ومعرفة الثالوث المقدس – حاشا لله واستغفر الله من استخدام هذا الاصطلاح – والأكل من لحم عيسى ودمه في طقوس القربان المقدس ، وكرامة رسم إشارة الصليب ، وامتياز تَسَلُّم مفاتيح الجنة وجهنم التي أُعطيت للكاهن الأكبر ، والنشوة الباعثة على النشاط والفرح ، التي يشعر بها البيوريتان ، والكويكرز ، والإخوان ، وكافة النِّحَل الأخرى ، المسماة بالمنشقة ، والمتميزة كلّ منها بطريقتها ، وتدعي أنها تتمتع بنفس الامتيازات والحقوق ، ولكنها كلها تتفق على أن كل مسيحي جيد سوف يصبح يوم القيامة كعذراء طاهرةٍ تقدم نفسها « لِحَمَلِ الله » .

إذن ، ألا تعتقدون أن النصارى على صواب في اعتقادهم أن « أقل » واحد منهم هو « أعظم » من كافة الأنبياء ! ؟ ألا تعتقدون إذن أن راهباً بَتَاغونيًّا قوي البنية

وراهبة باريسية متطهرة أعظم مكانة من آدم وحواء ؛ لأن سر الثالوث قد انكشف لهؤلاء الأغبياء وليس لآبائنا الأوائل الذين عاشوا مع الله في الجنة قبل إخراجهم منها ؟ أو ، ألا ترون أن هذا النوع من الاعتقاد هو أبعد ما يكون عن اللياقة والملاءمة في هذه الأيام الراقية التي تتميز بالعلوم المتقدمة ، والقول بأن أميراً إنجليزياً أو يتيماً زنجياً أعظم من يوحنا المعمدان لمجرد أنهما من النصارى ؟ ! أو ليس هذا قولاً أقل ما يمكن أن يوصف به أنه يدعو للقرف ! ! ! . . .

ومع ذلك فإن جميع هذه المعتقدات والآراء المتباينة ، مُستقاة من العهد القديم ، ومن الكلمات المنسوبة إلى عيسى وحوارييه . ولكن بالنسبة لنا نحن المسلمين الموحِّدين ثمة شرارات متلألئة موجودة في الأناجيل ، وهي تكفينا لاكتشاف الحقيقة عن عيسى الحقيقي وابن عمته يوحنا المعمدان ! ! . .

يوحنا المعمدان تنبأ بمحمد

بموجب شهادة عيسى لم يكن هناك ابن أُنثى أعظم من يوحنا المعمدان ، ولكن « أقل » مَنْ في مملكة السماء أعظم من يوحنا . والمقارنة التي أجراها « روح الله »(١)

(١) هذا التعبير خطأ ، والصحيح أنه روح من الله . قال تعالى : (. . . إنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ . . .) . (النساء : ١٧١) .

ومعنى (روح منه) أنه مؤيّد بروح منه تعالى .

أو أن معناه خلق بنفخ من روح الله ، وهو جبريل عليه السلام .

ويوضحه قوله تعالى في أُمّه مريم : « والتي أحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فيها مِنْ روحِنا » الأنبياء : ٩١ . وكما قال سبحانه في خلق الإنسان (. . . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ . . .) . السجدة : ٩ .

وقال بعضهم : إن المراد بالروح هنا النفخ – أي نفخ الملك بأمر الله في مريم . فإنه استعمل بمعنى النفخ والنفَس الذي ينفخ .

ويجوز أن يراد بقوله تعالى : (وَرُوحٌ مِّنْهُ) الأمران معاً . =

أي عيسى ، هي بين يوحنا وجميع الأنبياء السابقين كموظفين وإداريين في مملكة السماء والآن وحسب الترتيب الزمني ، فإن آخر الأنبياء سوف يكون أصغرهم جميعاً ، ولذلك سيكون دونهم ترتيباً أو أصغرهم سِنّاً بموجب الترتيب الزمني كما أسلفنا . وكلمةُ « زعَيْرا » الآرامية مثل كلمة « صغير » العربية تعني صغير الحجم أو السن ، وتَستَخدِمُ نسخة البشيتا « زعيرا » مقابل كلمة « ربا Rabba » التي تدل على كبر الحجم أو تقدم السن . وسوف يعترف كل نصراني أن عيسى ليس آخر الأنبياء ، ولذلك لا يمكن أن يكون أصغرهم . ولم يكن الرسل وحدهم يتمتعون بهبة النبوّة ، ولكنْ هناك رجال صالحون كثيرون في عصر الرسل يتمتعون بها(١) أيضاً (انظر سفر الأعمال ١١ / ٧ ، ٢٨ / ١٣ ، ١٥ / ٣٢ ، ٢١ / ٩ – ١٠ .. الخ) .

وبما أننا لا نستطيع أن نحدد الرسول الأخير من بين رسل الكنيسة الكثيرين ، فإننا مضطرون لأن نبحث في مكان آخر عن نبيٍّ يكون الأخير بدون شك ، ويكون خاتم سلسلة الأنبياء . هل نستطيع أن نتصور ما هو أقوى وأبلغ في الدلالة على نبوّة محمد ، من تحقق بشارة المسيح المدهشة في شخصه وحده (ﷺ) دون غيره من الأنبياء ؟ ! . .

إن محمداً بلا مراء ، هو الأصغر سنّا في سلسلة الأنبياء ، وهو صفوتهم ، إنه « بنيامين » الأنبياء ، ومع ذلك فهو « سلطانهم » ، « وسيدهم » ، « ومجدهم » . وإن إنكار الطابع النّبوي والرسولي لرسالة محمد هو إنكار أساسي لكل الوحي الإلهي ، وكافة الرسل الذين بشروا به ؛ لأن جميع الأنبياء معاً لم يُنجِزوا العمل الهائل الذي

= أي أنه خلق بنفخ الملك المعبر عنه بالروح ، وبروح القدس في أُمّه نفخاً ، وكان مؤيـداً بهذا الروح مـدة حياته ، ولذلك غلبت عليه الروحانية ، وظهرت آيات الله فيه من الطفولية وزمن الرجولية . [المعلق]
(انظر تفسير المنار ٦ / ٨٢ ، ٨٣)

(١) هذا القول فيه خطأ كبير لأن هبة النبوة لا يتمتع بها غير الأنبياء ، وكل من سواهم من الصالحين فإنهم أتباع لهم ، وليسوا بأنبياء ولا مرسلين .
[المعلق]

فعــله نبي مــكة وحده في فترة قصيرة لم تتجاوز ثلاثة وعشرين عاماً من بعثته الرسولية .

إن سرّ الوجود السابق لأرواح الأنبياء ، لم يكشف لنا ، ولكن كل مسلم حقيقي يعتقد به . . وذلك السر الإلهي هو الذي جعل للكلمة الإلهية (كن) خاصية الإيجاد . . وبتأثير هذه الكلمة الإلهية ، كانت ولادة إسحاق ، ويوحنا المعمدان ، وعيسى ، على التوالي – من سارة وحنة ومريم العذراء عليهن السلام . وهناك أسماء أُخرى عديدة ، وردت في العهد القديم ، مثل شمشون وأرميا على سبيل المثــال .

ويَروي أنجيلُ برنابا أن عيسى يتكلم عن روح محمد التي يُعلن أنها خُلقَتْ قبل كل شيء آخر . ومن هنا شهادة المعمدان عن النبي الذي بشر به قائلاً : إن من يجيء بعدي قد خُلِقَ قبلي لأنه كان قبلي . (يوحنا ١ / ١٥) .

ومن العبث تفسير هذه الكلمات المدهشة للمعمدان عن « محمد » على أنها تشير إلى عيسى ، كما يحاول أن يفعل مؤلف الإنجيل الرابع .

وثمة فصل لافت للنظر عن يوحنا المعمدان في كتاب « أرنست رينان » الشهير : « حياة المسيح » وقد قرأت هذا الكتاب منذ زمن طويل . ولو كان للكاتب الفرنسي الضليع أو النحرير أي اعتبار لدعوى « محمد » في عالم الأنبياء ، فإنني على يقين من أن تحقيقاته العميقة وتعليقاته كانت ستؤدي به إلى استنتاج مخالف كليةً ، وإن رينان – شأنه شأن جميع النقاد التوراتيين والمخالفين الآخرين – ينتقدُ الدّينَ بصورةٍ عدائيةٍ ، ويقود قراءه إلى الشك بدلاً من محاولة العثور على الحقيقة .

ويسعدني القول إنني تشرفت بفضل الله ، بحــل المشكلة ، وإماطة اللثام عن السر الذي غطى المعنى الصحيح لعبارة « الأصغر في مملكة السماء » .

٢ – يعترف يوحنا المعمدان « بمحمد » على أنه أعلى منه وأسمى قدراً . وإن ذلك التعبير إلهــامٌ الذي جرى إعلانه على الجماهير اليهودية والذي مفاده « ذلك الذي يجيء بعدي » يُذَكِّرُ النّساخ منهم ، والفريسيين والقانونيين » بالنبوءة القديمة التي قالها جدّهم أو سلفهم العظيم يعقوب ، الذي يطلق عليه البطريرك الصفة الفريدة

« شيلوخا » بدل « رسول الله » وهي صفة كثيراً ما استخدمها عيسى بحق محمد ، كما في إنجيل برنابا . وعند كتابة حلقتي السابقة عن « شيلوه » قلتُ : إن الكلمة قد تعني تحريفاً « لشيلوخ أو شيلوخاه » والتي تعني « رسول الله » ولكنني لم أتذكر آنئذ أن القديس جيروم أيضاً قد فهم الصيغة العبرية بذلك المعنى ؛ لأنه ترجمها بعبارة « ذلك الذي أُرسل».

وليس لدينا سوى خلاصة في سطور قليلة ، لموعظة جيروم ، لم يكتبها هو بل كتبها شخص مجهول – على الأقل ليس بلغته الأصلية – وجرى فيها تلاعب كثير على يد النساخ والمنقحين الذين سبق أن جعلوا من تلميذه عيسى صنماً أو إلهـاً . ولكن عندما نقارن هذه الموعظة التي قيلت في برية يهودا وعلى ضفاف الأردن بالرشاقة والأناقة والفصاحةِ والقوةِ المدهشةِ والبالغةِ أعلى درجة من الوضوحِ في كل آية وصفحة من القرآن الكريم ، فإننا نفهم معنى هذه الكلمات « إنه أقوى منّي » .

عندما أتخيل بنفسي صورة « المعمدان الزاهد » وهو يعظ بصوت عال في البرية ، أو على ضفاف الأردن ، إلى جماهير اليهـود ، ووراءهم حوالي أربعة آلاف عامٍ ، من التاريخ الديني واللاهوتي ، ثم أستعرض باختصار الأسلوب الهـادىء المنظـم الرزين الذي كان يعلن فيه محمد الآيات السماوية من القرآن على العرب الجاهليين ، ثم عندما أتفحص وأُشاهد تأثير كُلٍّ من تلكما الدعوتين على السامعين في ضوء النتيجةِ النهائية ، حينئذ أتـفَـهَّـمُ ضخامة البون الشاسع بينهما ، وأدرك أهمية الكلمات القائلة : « إنه أقوى مني » .

وعندما أتأمل في عملية القبض على المعمدان البائس واعتقاله من قبل « هيرودس أنتيباس »(١) ثم قطع رأسه بصورة وحشية – أَو عندما أسرد الروايات المضطربة المأساوية لجلد عيسى (أو يهوذا الاسخريوطي) على يد بيلاطس ، وتتويجه بتاج من الشوك على يد هيرودس ، والكارثة التي حلت بالفرسان ، ثم أتوجه بنظري إلى دخولِ

(١) ثمـة خلط في الأحداث في رواية استشهاد يوحنا يتعلق بعائلة « هيرودوس » الكـبير (متّى ١٤) وفي إمكان القاريء الرجوع إلى « جوزيف فلافيوس » في كتابه (Antiquities) حول الموضوع . [المؤلف]

السيد العظيم الظافر — سلطان الأنبياء — إلى مكة ، وتدميره الكامل لجميع الأصنام القديمة وتطهيره للكعبة المقدسة ، والمنظر الجذاب للأعداء المدحورين بقيادة أبي سفيان على قدمي « الشيلوها » رسول الله — المنتصر يطلبون منه العفو والرحمة ويعلنون إيمانهم بالدين الجديد ، وعندما أتأمل العبادة والتبتُّل المجيد وخطبة الوداع التي خطبها خاتم الأنبياء وهذه الكلمات الإلهية (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . . الآية) عندئذ أفهم فهماً كاملاً معنى اعتراف المعمدان وقيمة كلامه حيث قال : « إنه أقوى مني » .

٣ — « الغضب القادم » هل سبق أن وجدتم قط تفسيراً لهذه العبارة أكثر عقلانية وحكمة وإقناعاً في أي من الشروح العديدة للأناجيل ؟ ماذا يقصد يوحنا أو يريد من مستمعيه أن يفهموا من تعبيره « انظروا ، لقد انطلقت البلطة على جذور الشجرة ؟ » أو من ملاحظته « إنه يمسك بالمقود بيده ليطهر بيدره » أو عندما مسخ لقب « أبناء إبراهيم » فجعله لا شيء ؟ ؟ ! . .

نن أثقل عليكم طويلاً في عرض تخرّصات الشارحين ، فإنها أفكار خيالية لم يحلم بها يوحنا ولا المستمعون له أبداً ، فهل يستطيع يوحنا أن يُعلِّم هؤلاء الفريسيين المتغطرسين والصدوقيين العقلانيين "Saduqees" الذين أنكروا القيامة الجسدية ، أن يسوع الناصري يوم القيامة سوف يصب جام غضبه عليهم ويحرقهم كالأشجار غير المثمرة وكالقش في نار جهنم ؟ لا توجد كلمةٌ واحدة في جميع أدبيات الكتب المقدسة حول قيامة الأجساد أو حول نار جهنم . وهذه الكتابات التلمودية حافلة بالمواد الأخروية الشديدة الشَّبَه بالزرادشتية ، ولكن لا أصل لها في الكتب الشرعية .

إن نبي التوبة والبشارة لا يتحدث عن الغضب البعيد وغير المحدود الذي لا شك في أنه ينتظر الكفرة والفاسقين ، ولكنه يتحدث عن الكارثة القريبة للأمة اليهودية ، وقد هدد بغضب الله الذي ينتظر الناس إذا ما استمروا في خطاياهم ورفضهم لرسالته ورسالة أخيه يسوع المسيح . وكانت المصيبة القادمة دمار القدس وتشتت بني إسرائيل نهائيًا ، والذي حدث بعد ثلاثين سنة وخلال حياة كثيرٍ من الذين حضروا واستمعوا له . وأعلن هو وعيسى عن قدوم رسول الله العظيم الذي أعلن عنه يعقوب

تحت لقب « شيلوها » وأنه عند قدومه سوف تُنْتَزَعُ جميع الامتيازات النبوية والملكية من اليهود ، وبالفعل فإن ذلك تحقـــق بعد حوالي ستة قرون ، عندما سُوِّيت آخرُ معاقلهم بالأرض ، وقام محمد بتدمير تحصيناتهم . وكانت سيطرة روما المتزايدة في سوريا وفلسطين تهدد الاستقلال شبه المحلي لليهود ، كما أن مغادرة اليهود لتلك الديار كانت قد بدأت . وحول هذا الأمر بالذات كان الواعظ يستفسر قائلاً : « من الذي أخبركم أن تهربوا من الغضب الآتي » لقد جرى إنذارهم ونصحهم من أجل ثمارٍ طيبةٍ وحصادٍ جيدٍ بالتوبة والاعتقاد برسل الله الصادقين ، ولاسيما رسول الله الذي كان القـــائدً الحقيقيّ وآخر القـــادة الأقوياء .

٤ – اتهم اليهود والنصارى « محمداً » دائماً بأنه أقام دين الإسلام بالقوة والإكراه والسيف ، وحاول المسلمون المعاصرون دائماً دحض ذلك . ولكن هذا لا يعني أن محمداً لم يستَلّ السيف قط . لقد اضطر لاستعماله ، للمحافظة على اسم الله . « ولِكُلِّ صبرٍ حـــدود » ولِكُلِّ عطفٍ نهاية . وهذا لا يعني أن إمهال الله وعطفه محـــدودان ، فكل شيء يسوّى ويحدد ويُبَتُّ فيه بأمره ، وإن الفرصة والوقت الذي تكرم الله بإعطائه لليهود وللعرب وللأغيار (غير اليهود) دام أكثر من أربعة آلاف سنة . ولم يرسل الله إلا بعد هذه المدة حبيبه محمداً ومعه السلطة والسيف والنار والروح لمعالجـــة الكفـــرة الأشرار ، بالإضافة إلى أبنـــاء إبراهيم العاقّين الجاحدين – سواء كانوا من بني إسماعيل أو إسرائيل ، ولمعالجة قـــوة الشيطان معالجة حاسمة أبدية .

وإن العهد القديم برُمته ليس إلا قصة من الحكم الديني (الثيوقراطية والوثنية) . وبين الحين والآخر كانت تلمع شرارة صغيرة للإسلام – أي دين الله – في القدس ومـــكة . ولكنها كانت دائماً موضع اضطهاد من قوة الشيطان . فكانت الوحوش الشيطانية الأربعة تأتي وتدوس بأقدامها القلة المؤمنة بالله . ثم جاء محمد ليسحق الأفعى السامة ويقتلها ويعطيها اللقب الكريه وهو « إبليس » أي « الشيطان المقهـــور » ومن المؤكد أن محمداً كان نبياً محارباً ولكن الهدف من حربه كان النصر لا الانتقام ، وهزيمة العـــدو لا إبادته ، وباختصار : إقامة دين الإسلام كمملكةٍ للهِ على الأرض . والحقيقة أنه عندما نادى المنادي في الصحراء بصوت عال : « مهدوا الطريق للسيد واجعلوا ممراته مستقيمة » كان يشير إلى دين السيد على صورة مملكة يقترب موعدها .

وقبل ذلك بسبعة قرون كان النبي إشعيا قد صاح ونطق بنفس الكلمات (إشعيا * ٤٠ / ١ — ٤) ، وبعد ذلك بقرنين مهد الله الطريق لكورش بأن رفع كل وادٍ وملأه وخفض كل تلة وجبل من أجل تسهيل الزحف وإسراعه (١) (٤٥ / ١ — ٣) ويكرر التاريخ نفسه كما يقولون ، واللغة ومعناها هي نفسها في الحالتين ، فالأولى نموذج أولي للثانية . لقد مهد الله السبيل لكورش وأخضع أعداءه للفاتح الفارسي من أجل بيته في القدس وشعبه المختار في الأسر . والآن ها هي عنايته تتكرر مرة أُخرى . ولكن على نطاق أكثر وأوسع . فقد اختفت الأوثان والأكاذيب أمام مواعظ « محمد »، وانهارت الإمبراطوريات أمام سيفه . وأصبح أبناء مملكة الله متساوين وتكونت منهم الجماعة المؤمنة التي تمثل أولياء الله تعالى وأصفياءه ، والناس لا تتحقق بينهم المساواة إلا في الإسلام ، إذ لا كهنوت ولا طقوس . وليس هناك من مسلم مرتفع كالتلال ولا من مسلم منخفض كالوديان ، ولا توجد طبقات أو تمييز يقوم على العنصر والرتبة ، والمؤمنون سواسية لا يتفاوتون إلا بالفضيلة والتقوى ، حيث يمكن أن يتفوق في ذلك بعضهم على بعض ، والإسلام هو الدين الوحيد الذي لا يعترف بأي كائن مهما عظم ومهما كان مقدساً ، كوسيط مطلق بين الله والبشر .



(١) هذه من خرافات اليهود ومبالغاتهم الكاذبة ؛ فإن هذا الذي يزعمونه لكورش ، لا يتأتى إلا أن يكون معجزة لنبيّ أو كرامة لوليّ . . علماً بأن كورش كان وثنياً ، وقد حكم بلاد فارس ، وكان له جيش قوي . . فتح به بلاد بابل ، وكانت أمّه من سبايا اليهود هناك ، وتدعى « أستير » . . وهذا هو سرّ عطفه على اليهود ، إذ سمح لهم بالعودة إلى أورشليم بعد أن بسط نفوذه على فلسطين ، وأعاد لهم الأموال التي اغتصبها نبوخذ نصر . . وهذا أيضاً هو السبب في أن اليهود يحبونه ويشيلون بذكره . . إلى درجة التقديس . . [المعلق]

معمدانية يوحنا وعيسى
مجرد نوع من « صبغة الله »

من المؤسف جداً أن الإنجيليين لم يتركوا لنا رواية كاملة ومفصلة عن موعظة يوحنا المعمدان . وعلى فرض أنهم فعلوا ذلك فإن إغفال الكنيسة لها ليس أقل من جريمة ، إذ من المستحيل أن نتصور أن كلمات المعمدان الغامضة والمحاطة بالألغاز في شكلها الحالي ، يمكن فهمها حتى من قبل أكثر المستمعين علماً . إننا نعرف أن الكهنة والقضاة اليهود طلبوا إليه أن يُبَيِّن ما يقول في عدة نقاط ، وأن يجعل أقواله أكثر وضوحاً وسهولة (يوحنا ١ / ١٩ — ٢٣ و ٥ / ٣٣) ولا شك في أنه أوضح هذه النقاط الحيوية لسامعيه ، ولم يتركهم فريسة للغموض لأنه كان « الشمعة المحترقة المضيئة التي كانت تشهد بالحق أو الصدق » (يوحنا ٥/٣٣ — ٣٥) ماذا كان هذا الشاهد وماذا كانت طبيعة الحقيقة التي شهد لها ؟ والذي يجعلها أكثر غموضاً هو أن كل كاتب إنجيل لا يسرد نفس النقاط بنفس العبارات . وليس ثمة دقة فيما يتعلق بطبيعة الحقيقة ؛ إذ هل كان ذلك حول طبيعة شخص المسيح وطابع رسالته ؟ أو كان حول رسول الله كما تنبأ عنه يعقوب ؟ (التكوين / ٤٩) وماذا كانت العبارات الدقيقة لشهادة يوحنا عن عيسى وعن نبي المستقبل الذي كان أعلى قدراً منه ؟

في الحلقة الثالثة من هذه السلسلة أعطيتُ براهين ساطعة على أن النبيّ الذي تنبأ عنه المعمدان ، كان نبياً آخر غير عيسى المسيح . وفي الحلقة الرابعة توجد عدة براهين إلى جانب رسول الله على أنه نبي أعظم وأقوى من يوحنا . وهذه البراهين في رأيي المتواضع وحسب اعتقادي الراسخ ، منطقية وحقيقية وحاسمة ومن الممكن شرح كل

---

(١) صبغة الله : جاءت في سورة البقرة آية : ١٣٨ . (صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ) . [المؤلف]

دليل أو برهان فيما لا يقل عن حجم كتاب مستقل . وكل برهان يرتفع صوته ليقرع مسامع العديد من النصارى ، والحقيقة ترفع نفسها وترفع من قدرِ الذي يذيعها . وإننا نعتقد دون تردد ، أن الحقيقة التي شهد بها يوحنا كانت تتعلق « بمحمد » إذْ أعطى يوحنا شهادتين : واحدة عن « شْلِيهَا دألاها Shliha, d'Allaha » ، وكان معناها باللهجة الفلسطينية الدارجة عندئذٍ « رسول الله » أما الأخرى فكانت عن عيسى الذي أعلن أنه وُلدَ من الروح القدس وليس من أب بشري ، وأنه المسيح الحقيقي الذي أرسله الله كآخر الأنبياء العظماء من اليهود ، ليمدَّ شراع موسى بنور وروح جديدين ، وأعطيتْ له الصلاحيةُ لإبلاغ اليهود أن خلاصهم كان يتوقف على الخضوع لابن إسماعيل العظيم . وكما فعل اليهود القدماء الذين أحدثوا في كتابهم المقدس كثيراً من الخلط والفوضى ، فكذلك فعل يهود الكنيسة النصرانيه الجدد ، إذ أفسدوا وحرّفوا (١) كتابهم المقدس . ولكن حتى هذا التحريف في الأناجيل لم يستطع أن يخفي الحقيقة .

والنقطة الرئيسية التي ترتكز عليها قوة أمير رسل الله وتفوقه ، هي المعمودية بالروح القدس وبالنار ، وإن اعتراف مؤلف الإنجيل الرابع أن عيسى وتلامذته اعتادوا أيضاً أن يُعَمِّدوا بالماء في نفس الوقت على يد يوحنا المعمدان ، ليشكل نفياً فعلياً للملاحظة المعترضة القائلة : « إن عيسى لم يعمِّد نفسه ولكنه عَمَّدَ تلاميذه فقط » (يوحنا ٣ / ٢٣ و ٤ / ١ – ٢) وإذا ما سلمنا أنه هو نفسه لم يُعمَّد ، فإن الاعتراف أن تلاميذه عُمِّدوا بينما كانوا لا يزالون مبتدئين وجاهلين ، يدل على أن معمدانيتهم كانت من نفس طبيعة معمدانية يوحنا . وإذا ما تذكرنا أن عيسى خلال فترة رسالته في الأرض قد مارس ذلك الطقس تماماً كما كان يفعل المعمدان في جداول المياه وبركها ، وأنه أمر تلاميذه أن يواصلوا الشيء نفسه ، فإنه يتضح كل الوضوح أنه لم يكن الشخص المقصود من قبل المنادي في البرية عندما تنبأ بمجيء نبي قوي يمارس التعميد بالروح والنار . ولا يَحتْاجُ الأمر إلى كثير من العلم أو إلى ذكاء خارق لفهم قوة هذه الحجة .

(١) (وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) . سورة البقرة : الآية : ٧٥ .
[المترجم]

أي أن عيسى خلال حياته لم يعمد شخصاً واحداً بالروح القدس وبالنار . إذ كيف يمكن اعتباره مُعَمِّداً بالروح القدس وبالنار ، أو كيف يمكن وصفه بأنه النبي الذي تنبأ عنه يوحنا ؟ وإذا كانت الكلمات والمواعظ والنبوءات تحمل أي معنى ، وقُبِلت من أجل تعليم شيء ما ، مهما كان ، فإن كلمات المعمدان تعني وتفيد أن المعمدانية سوف تستمر ممارستها التعميد بالمـــاء حتى ظهور « الشيلوها » أو رسول الله ، وعندئذ تنقطع وتُخلي مكانها لممارسة التعميد بالروح والنار . هذا هو الاستنتاج المنطقي الوحيد المفهوم الذي يُمكِنُ استخلاصه من الموعظة كما هي مدونة في الفصل الثالث من الإنجيل الأول . وإن استمرار التعميد المسيحي ورفعه إلى مستوى الأسرار المقدسة برهان ساطع على أن الكنيسة لا تؤمن بعمدانية تختلف عن تلك التي تم بالماء . إن المنطق والعقل أو الإدراك السليم واحترام أي أمر مقدس يجب أن يُقنِعَ كلَّ قارئ محايد على أن المعموديتين أمران مختلفان تماماً بعضهما عن بعض ؛ فنبيُّ الصحراء لا يعترف بالمعمودية بالنار مقرونة بالمعمودية بالماء ، فإن طبيعة كل معمودية وفعاليتها مذكورة بوضوح وبالتحديد . فالأولى تم عن طريق التغطيس أو غسيل الجسم بالماء كإشارة أو علامة على التوبة ، أما الأخرى فلم تعد تم بالماء ولكن بالروح القدس والنار ، وتأثيرها يَتَجلَّى في تغير كامل للقب والإيمان والمشاعر(١) . الأولى تطهر الجسم ، والأخرى تنير العقل وتُثَبِّتُ الإيمـــان وتعيد القلب إلى الحياة النشطة .

الأولى خارجية أو ظاهرية وهي اليهودية ، والأخرى داخلية أو باطنية وهي الإسلام . إن معمودية يوحنا وعيسى تغسل القشرة الظاهرية ، أما معمودية رسول الله فتغسل اللب . وباختصار فإن المعمودية اليهودية النصرانية حل محلها الغسل والوضوء في الإسلام ، وأمور الاغتسال هذه لا يمارسها نبي أو راهب ، ولكن يمارسها الفرد

(١) معنى التطهر بالنار كما يبدو من هذا التعبير : التـــوبة النصوح التي يشعر الإنسان فيها بالنـدم على ما فات ، أو على ما فرط في جنب الله ، مع ما يصحب ذلك من حرقة في القلب ونـــدم يلهب الشعور والوجدان ، وعزم قاطع على الإقلاع عن المعصية وعدم العودة إليها .

فهي عملية داخلية تشمل العقل والقلب معاً ، بينما التعميد عملية ظاهرية بدنية ، تقتصر على التغطيس بالماء . . وشتان ما بين هذا وذاك . [المعلق]

المؤمن نفسه . كانت المعمودية اليهودية النصرانية ضرورية ولازمة مادامت معمودية الله أو « صبغة الله » القرآنية متوقعة ، وعندما كان محمد ينذر بالتنزيلات القرآنية ، كانت المعمودية السابقة محكوماً عليها أن تتلاشى كما يتلاشى الظـــل .

إن الأهمية الفائقة للمعموديتين لتستحق تَدَبُّراً في غاية الجـــدية . وأعتقد أن الملاحظات التي وردت في هذه المقالة يجب أن تهم المسلمين والقراء الآخرين ؛ ذلك لأن النقطة مدار البحث ذات أهمية كبيرة لتحقيق الخلاص من وجهة نظر دينية . وإنني أصر بأمانة على أن النصارى ليس لديهم مبرر للتمسك بمعموديتهم بالماء إلى ما لا نهاية ، لأن نفس أناجيلهم تتنبأ بأن هذه المعمودية سوف تُلغيها معمودية أخرى تستبعد استخدام الماء كلية ، وإنني أطرح الملاحظات التالية أمام حكم قرائي النابع من التفكير العميق والموضوعية : —

(ما هي الأشياء التي توجد في المعمودية وما هي الأشياء التي لا توجـــد ؟) .

(أ) من حقنا أن نتفـــق أو نختلف مع عقيدة أو نظرية ، ولكن ليس هناك مبرر لتحريفنا وتشويهنا أية عقيدة عن عمد لإثبات نظريتنا حولهـــا . وتحريف الكتب السماوية عمل جائر وإجرامي ، لأن الخطأ الذي يحدث في هذا المجال خطأ فادح لا يمكن إصلاحه . والآن توصف معمودية يوحنا وعيسى وتُبسط لنا بوضوح في الأناجيل وهي غريبةٌ كلياً ومعارِضةٌ لمعمودية الكنائس .

ولسنا متأكدين بصورة حازمة من الكلمة العبرية أو الآرامية الأصلية لترجمة المعمودية باليونانية ، وإن نسخة « البشيتا » تستخدم كلمة « معموديثا » من الفعل « عيماد » و « عامد » الذي يعـــني الوقوف كالعمود ، وفي صيغة التعدية أو السببية « عامد » معناها : « ينَصُب ، يُقيم ، يُؤسس ، يؤكِّد أو يُثبِّت » وهكذا . . ولكن ليس فيها أية دلالة على التغطيس أو الغطس أو الرش أو الاستحمام ، كما يفترض أن يكون معنى المعمودية الكنسية . وإن الأفعال العبرية الأصلية : رحاس " Rahas " بمعنى يستحم ، تبحال " Tabhal " (تقرأ طڤال) بمعنى « يغمس أو يغطس » قد تعطي معنى الكلمة اليونانية « بابتيزو "Baptizo" بمعنى « أنا أعمد » وقد اكتسبتْ الترجماتُ أو الرواياتُ العربية للعهد الجديد الصيغة الآرامية ، وتسمي يوحنا « بالمعمدان » ،

والغطس نفسه بالمعمودية ، وفي جميع اللغات السامية بما فيها العربية فإن الفعل « عماد » يعني بصورته البسيطة « الوقوف منتصباً كالعمود » ولا يحوي معنى الغسل أو الغطس ، ولذلك لا يمكن أن تكون الكلمة الأصلية « بابتزموس Baptismos » اليونانية ترجمة لها . ولا داعي للمجادلة بأن كلاً من يوحنا وعيسى لم يسمع قط كلمة Baptismos بصيغتها اليونانية ولكنهما استعملا تسمية سامية أخرى دون شك .

(ب) وإذا ما أخذنا في الاعتبار الدلالة الكلاسيكية لكلمة « Baptismos » اليونانية التي تحمل معنى « صبغة ، وتلوين ، وتغطيس » فإن الكلمة المستعملة لا يمكن أن تكون سوى Saba والكلمة العربية « صَبَغ » ومن الحقائق المعروفة جيداً أن الصابئين الذين ورد ذكرهم في القرآن وعند آباء الكنيسة النصرانية القدامى مثل أبيفانوس وسواه – كانوا من أتباع يوحنا ، واسم الصابئة نفسه كما جاء في الفصل السادس من كتاب « حياة يسوع » لمؤلفه الشهير « أرنست رينان » يدل على المعمدانيين . لقد مارسوا المعمودية وكانوا يعيشون حياة تقشف كالهسائيين « Essenians » أو « Al - Chassaites » والأبيونيين . وإذا ما تذكرنا أن مؤسس جماعتهم بوداسب « Budasp » كان أحد حكماء الكلدان ، فإن التهجئة الصحيحة لاسمهم تكون « صباغي أو صبائي»: بمعنى الصباغين أو المعمدانيين ، وكان مار شمعون وهو أحد البطاركة الكلدان أو الأشوريين المشهورين في القرن الرابع الميلادي ، يدعى « بار صباغي أو ابن الصباغين » ومن المرجح أن أسرته كانت تنتمي إلى المذهب الصابئي ، والقرآن يورد هذا الاسم « الصابئين » مع همزة بدل الغين وهي في الآرامية الأصلية ، « صباغي » لكنني أعرف بعض التفسيرات الأخرى التي تطلق على الاسم : صابئي " Sabian " ويفترض بعض المؤلفين أنها مشتقة من « صابيء بن شيت » ويفترض آخرون أنها من كلمة سبا « Saba » العبرية ومعناها « جيش » ؛ لأنهم كانوا ذوي اهتمام خاص بالنجوم على أنها جيش السماء . ومع أنه ليس لديهم أمور مشتركة مع الكنائس النصرانية سوى معموديتهم الغريبة ، إلا أنهم كانوا يدعون خطأً : نصارى مار يوحنا المعمدان ، والقرآن كعادته يورد جميع الأسماء الأجنبية كما كان يلفظها العرب .

وسوف تتضح لنا حقائق عديدة من خلال البحث العميق المستفيض لديانة الصابئة الذين كادوا يكتسحون الأمة العربية قبل وقت طويل من بزوغ نور الإسلام

الذي بشر به رسول الله الكريم . وكانت هناك ثلاث صيغ للمعمودية مارسها اليهود أو الصابئة والنصارى . أما المعمودية اليهودية التي لم يكن لها أصل في كتبهم المقدسة ، فقد اختُرِعَت في معظمها من أجل الذين اعتنقوا هذا الدين . وكان لكل دين صيغته المعمدانية الخاصة به ، كذلك طقسه الخــاص به . وكان الــكاهن اليهودي يعمّد الذي يحــوله إلى الدين اليهودي باسم الله ، والصابئة يعمدون باسم الله ويوحنا ، ولكن القشيشاء (القسيس) كان يعمد باسم: الآب والإبن والروح القدس، الذي لم يذكر فيه اسم الله وعيسى بصراحة ، ويتجلى بوضوح التنوع والخصومة بين الأنظمة المعمدانية الثلاثة . فاليهودي كموحد حقيقي ، لم يستطع احتمال أن يقترن اسم « يوحنا » مع اسم « الإلوهيم » بينما كانت الصيغة النصرانية منافية كل المنافاة لذوقه الديني . ولا مِراءَ في أن المعمودية النصرانية بطابعها الطقوسي السري وصبغتها الاشتراكية كانت بغيضة للصابئة أيضاً . أما العهد الذي بين الله وشعبه ، فلم يكن المعمودية بل هو الختان (تكوين / ١٧) ، وهو تقليد قديم كان يمارس بكل دقة ليس من قبل الأديان الثلاثة وحسب ، بل مارسته أيضاً قبائل عربية وثنية عديدة ، وهذه الصور والطقوس المختلفة للمعمودية والموجودة بين الشعوب السامية في الشرق ، لم تكن من الأحكام السماوية الأساسية بل كانت مجرد رمز أو إشارة . لذلك لم تكن قوية أو ذات فعالية لدرجة أن ينسخ بعضها بعضا . لقد استعملت جميعها الماء كمادة لمعموديتها وإلى حد ما بأسلوب مشابه ، ولكن كل دين منها اقتبس اسماً مغايراً ليميز ممارسته عن ممارسة كل من الدينين الآخرين . وكان الصابئة يتقيدون بدقة بـ « السّابوثا » الآرامية الأصلية التي تترجم ترجمة صحيحة إلى كلمة « baptismos » اليونانية . ويبــدو أن النصارى من العنصر السامي من أجل تمييز معموديتهم ذات الطقوس عن معمودية الصابئة ، اتخذوا اسم « مَعْمُودِيتا » الذي لا توجد له أدنى علاقة من ناحية لغوية مع المعمودية أو حتى مع الغسل أو التغطيس ، وهو مجرد اشتقاق أو صيغة كنسية . أما لماذا استُخدمت كلمة « معموديتا » لتحل محل سبعوثا ، فهو سؤال بعيد كل البعد عن موضوعنا الحالي . ولكن يضاف بهذه المناسبة أن هذه الكلمة في ترجمة أو نسخة « البشيتا » تُستخدمُ مرادِفةً لكلمة بِرْكة أو حوض للوضوء (يوحنا ٥ / ٢) والتفسير الوحيد الذي قد يؤدي إلى حل لمشكلة « المعموديتا » هذه هو أن يوحنا المعمدان وأتباعه بما فيهم

عيسى بن مريم وتلاميذه يجعلــون التائب أو المعتنق الجــديد للدين ، يقف مستقيماً كالعمود في بركة ماء أو في نهر من أجل أن يتطهر ، ومن هنــا جــاء اسم « أعامد » و « معموديتا » .

(ج) إن المعمودية النصرانية رغم تعاريفها المتبجحة ، لا تتعدى الرش بالماء أو التعميد فيه . ويلعن « مجمع تْرِنْتْ » كل شخص يقول إن المعمودية النصرانية تشابه معمودية القديس يوحنا . وسأحاول أن أعلن عن أن المعمودية النصرانية ليست خالية من الطابع أو الأثر الروحي وحسب ، بل إنها أيضاً دون مستوى معمودية المعمدان . وإذا كنت استحق لعنة الكنيسة بسبب اعتقادي ، فإنني أعتبر ذلك شرفاً عظيماً لي أمام خالقي . وإنني أعتبر مزاعم القسيس النصراني عن المعمودية كوسيلة لتطهير الروح من الخطيئة الأصلية وما إلى ذلك ، ضرباً من ضروب الدَّجَل والشعوذة ، فالمعمودية بالمــاء كانت رمزاً فقط للمعمودية بالروح القدس والنار ، وبعد قيام الإسلام كمملكة الله الرسمية ، نُسِخَتْ جميع المعموديات الثلاث السابقة وأُلغيت تمــاماً .

(د) من الرواية القليلة الضئيلة في الأناجيل ، لا نستطيع الحصول على تعريف إيجابي للطبيعة الحقيقية للمعمودية كما مارسها يوحنا وعيسى . والزعم بأن الكنيسة هي مستودع الوحي الإلهي ومفسره الحقيقي ، سخيف ومضحك مثل الزعم بأن الطفل أو الراشد المُعمَّد يتلقى الروح القدس ويصبح أحد أبناء الله .

وإذا كانت الكلمة اليونانية « Baptismos » هي المرادف الدقيــق لسبعوثا الآرامية أو شبعوثا « Sabutha » وهو أمر مؤكــد في نظري ، فإن كلمة « صبغة » العربية في القرآن لا تقتصر على حل المشكلة وإماطة اللثام الذي يخفي وراءه النبوءة الغامضة ليوحنا المعمدان ، ولكنها أيضاً برهان ساطع على أن كتاب الإسلام المقدس هو تنزيل مباشر من الله ، وأن الرسول الذي أنزل إليه هذا الكتاب هو الشخص الحقيقي الذي تنبأ به يوحنا . والمُعَمِّد « صباغ » « يُغَطِّس أو يُغَمِّس المعتنق الجديد أو المولود حديثاً في بِرْكة كما يُغَطِّس الصبّاغُ أو قصارُ النسيج القماشَ أو الرداءَ في غلاية الصبغ . ومن المفهوم الواضح أن المعمودية ليست طهارة « Thara » أو غسيلاً ولا « طبحــالاً » « Tabhala » أو تغطيساً حــتى ولا "Rahsa" رحْصــا »

أو حماما أو غسلاً ولكنها « سبعيثا » أي صبغ أو تلوين . ومن المهم جداً معرفة هذه الفروق . وكما يُعطي « الصبَّاغ » وناً جديداً لثوب بغمسه في غلاية الصبغ ، فإن المعمدان يعطي المعتنق الجديد لوناً روحياً جديداً . وهنا يجب أن نميز بصورة أساسية بين غير اليهودي « Gentile » واليهودي التائب والعربي من نسل إسماعيل . لقد كان غير اليهودي مختوناً بينما كان اليهودي مُعمَّداً فقط . وبالختان دخل غير اليهود إلى أسرة إبراهيم وكذلك إلى حظيرة شعب الله . وبالمعمودية أُدخل المؤمن المختون إلى مجتمع المؤمنين التائبين الذين تم إصلاحهم ، والختان أحد الطقوس السماوية أو الدينية القديمة ولم يرفضه عيسى أو محمد . والمعمودية مارسها يوحنا والمسيح وكانت فائدتها قاصرة على الأشخاص التائبين بين الذين جرى ختانهم . وهاتان الشعيرتان تُشيران وتدلان على الدين . وكانت معمودية يوحنا وابن عمته عيسى علامة على الدخول في مجتمع التائبين الذين كانوا يَعِدُون بالولاء والطاعة لرسول الله الذي تنبأ كل منهما بقـــدومه .

يترتب على هذا ، أنه كما ميز الختان دين إبراهيم وأتباعه ، (وكان عبيده أيضاً مختونين) فقد ميزت المعمودية دين يوحنا وعيسى ، وذلك كان بمثابة تمهيد لكي يستقبل اليهـــود وغير اليهود نبيّ الإسلام استقبالاً حاراً ويعتنقوا دينه .

(ه) حسب شهادة القديس مرقص (١ / ١ – ٨) فإن معمودية يوحنا كانت تتسم بطابع العفو عن الخطايا ، ويقال إن جميع بلاد اليهودية أو يهودا أو سكان القدس ، خرجوا إليه ، وقد عمَّدهم في نهر الأردن بينما كانوا يعترفون بخطاياهم . وهذا يرادف القول بأن ملايين اليهود التائبين اعترفوا بخطاياهم وعمدهم النبي ثم مسحت مياه المعمودية خطاياهم ، ومن المسلم به عموماً أن إنجيل القديس مرقص هو أقدم الأناجيل الأربعة . وجميع المخطوطات اليونانية القديمة لا تحتوي على العبارات الإثنتي عشرة الأخيرة التي أُضيفتْ إلى الإصحاح السادس من هذا الإنجيل (٩ – ٢٠) وحتى في العبارات الملحقة فإن عبارة « باسم الآب والإبن والروح القدس » ليست مكتوبة ، ويقول عيسى : « اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها ، فمن آمن وعُمِّد يخلص ، ومن لم يؤمن يـــدان » .

ومن الواضح أن معمودية عيسى كانت نفس معمودية يوحنا واستمراراً لها . وإذا كانت معمودية يوحنا طريقة كافية لغفران الخطايا ، فعندئذ يتهافت القول بأن حَمَـلَ الله يتحمل خطايا العالم (يوحنا / ١) . وإذا كانت مياه الأردن فعَّالة لدرجةٍ تنظيف جُذام « نحمان » من خلال صلاة النبي إليسع (ملوك / ٢ — ٥) وطرح خطايا الجماهير الكثيرة من خلال صلاة النبي يوحنا ، فإن سفك دم إلــٰه يكون لا محل له ، وبالفعل مخالفاً للعدالة الإلهية .

وليس ثمّة من شك في أنه حتّى ظهور القديس بولس على المسرح ، كان أتباع يسوع المسيح يمارسون الطقوس المعمدانية ليوحنا المعمدان . ومن الجدير بالملاحظة أن بولس كان فريسياً من أتباع الطائفة اليهودية المشهورة — كطائفة الصدوقيين — الذين ندد بهم يوحنا وعيسى وسمّياهم « أبناء الأفاعي » . ومن الجدير بالملاحظة أيضاً أن مؤلف الكتاب الخامس للعهد الجديد المسمى « بأعمال الرسل » كان أحد رفاق بولس هذا ، ويدّعي بأن هؤلاء الذين عمدهم يوحنا المعمدان « لم يتلقوا الروح القدس » ولذلك كان لابد من إعادة تعميدهم ثم ملئهم بالروح القدس (أعمال ٨ / ١٦ ، ١٧ ، ١٩ / ٢ — ٧) لا عن طريق المعمودية باسم عيسى ولكن عن طريق « وضع الأيدي » ويذكر بوضوح في هذه المقتبسات أن المعموديتين كانتا متماثلتين في طبيعتهما وفعاليتهما ، وأنهما لم تُنْزِلا الروح القُدُس على الشخص الذي جرى تعميده سواء من قبل عيسى أو يوحنا أو باسم أي منهما . وبوضع الرسل لأيديهم على الشخص المعمد ، يمسُّ الروح القدس قلبه لكي يملأه بالإيمان ومحبة الله . لكن هذه الهبة الإلهية جرى منحها للرسل فقط ممن كانوا حقيقة أنبياءَ يُوحى إليهم ، ولا يمكن أن يُطالِبَ بها أو يدّعيها خلفاؤهم المزعومون .

(و) وإذا كانت الأناجيل تعني أي شيء على الإطلاق ، في حديثها عن المعمودية ، فإنها تُخَلِّفُ وراءها الانطباع بأنه لم يكن ثمة فرق بين المعموديتين ، سوى أنهما كانتا تُمارَسان باسم واحد أو آخر من النبيين الاثنين . والفريسي العظيم بولس أو شاول « الطرسوسي » ليس لديه كلمة واحدة حول يوحنا المعمدان الذي وصم طائفة الفريسيين بالوصف الكريه « أبناء الأفاعي » وثمة لمسة من الحقد ضد يوحنا وضد قيمة

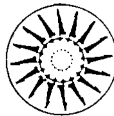
معموديته في الملاحظات التي أبداها لوقا في « أعمال الرسل » وكان لوقا أحد تلاميذ بولس ومرافقيه . وإن اعتراف لوقا بأن المعمودية باسم عيسى أيضاً لم تكن تتم بالروح القدس ، لبرهان أكيد ضد الكنيسة التي حولته بصورة تعسفية طائشة إلى طقوس سرية . وكانت معمودية الكنيسة إكمالاً وتكريساً لمعمودية يوحنا لا أكثر . أما المعمودية بالروح القدس وبالنار فقد كانت مقتصرة على الإسلام فقط . وإن القول بأن اثني عشر شخصاً من السامرة لم يتلقوا حتى الآن الروح القدس لأنهم عمدوا فقط باسم سيدنا عيسى (أعمال ٧ / ١٦ — ١٧) ، دليل حاسم على تفنيد مزاعم الكنيسة .

والعبارات الثلاث الأخيرة للقول الوارد ذكره تعتبر ضربا من التزييف عند الكثيرين . فهي ليست موجودة في أقدم مخطوط موجود ، وهو بالطبع أصل جميع النسخ التالية للكتاب المقدس ، بما فيها النسخة الكاثوليكية المعتمدة « Vulgate » . وأن أيّة وثيقة تصبح غير جديرة بأي اهتمام جديٍّ إذا ثبت أن أي جزء منها مزيف . ولكن هنا نتقدم خطوة إلى الأمام ، لأن الإضافة — الوارد ذكرها — للنص الأصلي أمر مسلَّم به حتى من قبل أولئك الذين يتحدثون عن أصالته .

ولكن لنأخذ النبوءة كما هي . لا حاجة بي إلى القول بأنها تتحدث عن أشياء يمكن للإدراك السليم أن يحرزها ؛ نظراً لأن الأحداث التي يتم التنبؤ بها تحدث باستمرار من وقت لآخر في مسار الطبيعة ، فقد زادت الطواعين والحروب والمجاعات حوادث الزلازل في العالم أضعافاً كثيرة ، لدرجة أن مجرد ذكرها في نبوءة كدليل على صدقها ، يجرد هذه النبوءة من أية أهمية كانت ستحظى بها لولا ذلك . إضافة إلى هذا ، فإن الأنبياء الأوائل لأي دين جديد من المؤكد أن يتعرضوا للاضطهاد ، لاسيما إذا كانوا من مرتبة اجتماعية دنيا . ولكن إضافةً إلى هذا فإن النبوءة تتحدث بروح واحدة عن عدة أشياء جملة واحدة ، قد تحدث هذه الأشياء معاً في وقت واحد ، أو تقع متفرقة ، ثم لا تتكرر بعد ذلك على هذا النحو مرة أخرى .

وقد بدأ اضطهاد التلاميذ مباشرة بعد رحيل عيسى من يهودا ، « فقد سُلموا إلى الكُنس والسجون وأُحضروا أمام الملوك والحكام » من أجـل اسمه . لكن هذه النبوءة لم تكن تحتاج إلى عقل متنبىء ؛ لأن الاضطهاد بدأ حتى عندما كان عيسى مع

تلاميذه . وكانت هذه الأحداث هي النتيجة الطبيعية لتعاليم يكرهها اليهود . وقد تَحَمَّل التلاميذ دون شك كل أنواع المشاق والامتحانات التي يمكن تصورها بصبر وشجاعة ، ولكنهم كانوا متأكدين من عودة السيد طبقاً لوعده « الحق أقول لكم : إن هذا الجيل لن ينجح إلا إذا تم فعل جميع هذه الأشياء » وإن الاعتقاد بهذه الكلمات قد أوجد صبراً مدهشاً بين أفراد الجيل المشار إليه ، لكن هذه الكلمات تلاشت ، « وإن كان الوقت لم يحن بعد لزوال السماوات والأرض » . يضاف إلى ذلك أن أيام اضطهاد التلاميذ لم تشهد أية ظاهرة غير عادية على شكل زلزلة أو قِتال أو طاعون . وحتى في الفترة التي تلت ذلك مباشرة ، فإن الأحداث الأربعة التي تم التنبؤ بها لم تتزامن . وفي آخر أربعين سنة من القرنين الأخيرين سمعنا عن حروب واضطرابات ، وأن أُمة كانت تقوم ضد أمة ومملكة ضد مملكة ، « وحدثت » هزات عظيمة في مناطق مختلفة وكذلك مجاعات وطواعين ، ولكن لم تظلم الشمس ولم ينقطع القمر عن إمدادنا بضوئه ، وهما من الأمور التي كان لابد من حدوثها قبل « مجيء ابن الإنسان » ويمكن فهم هذه الكلمات بمعنى مجازي ، ولكن في تلك الحالة لماذا ينتظر الأدفنتست أو السبتيون المجيء الثاني بالمعنى الحرفي ؟ وأيضاً فإن معظم الظواهر آنفة الذكر حدثت في أوقات عندما لم يكن مُتَوقعاً أن أُولئك الذين يَعِظون ويَعلِّمون باسم عيسى ، يحضرون أمام الملوك والحكام من أجل العقاب ، وذلك لأسباب سياسية ، وعلى العكس فقد حصلوا على حرية الوصول إلى الأراضي التي كانت موصدة أبوابها في وجوههم منذ زمن طويل . وكل ذلك يدل على أنه إما أن يكون التنبؤ نوعاً من التراث الشعبي أو أنه رواية أُسطورية لأشياء كان يتحدث عيسى عنها في مناسبات مختلفة ، وإما أنه هو نفسه لم تكن لديه أكثر من فكرة غامضة عن الأحداث القادمة ، أو أن الذين كتبوا سيرة حياته بعد قرنين من وجوده قد خلطوا بصورة تدعو لليأس أشياء مختلفة تعالج أُمــوراً لا علاقة بين بعضها وبعض .



«صِبْغَةُ الله» أو المعمودية «بالروح القُدُسِ وبالنار»

من الظواهر الدينية القليلة التي لم أكن قادراً على تفسيرها هي : كيف كان بإمكان الصابئة المشهورين الذين يسود مذهبهم في شبه جزيرة العرب وما بين النهرين ، أن لا يعتنقوا النصرانية ، مادام النبي يوحنا المعمدان قد أعلن في الواقع وبصراحة ، أن عيسى كنبي أقوى منه ، وأنه هو المسيح الذي لم يصل يوحنا إلى درجة تسمح له يحل سيور حذائه ؟

فإذا كان عيسى هو رسول الله الذي تنبأ عنه يوحنا ، والذي جاء ليعمد بالروح القدس وبالنار ، في الوقت الذي كان يعمّد الجموع بماء الأردن وغيره ، إن هذه الحقيقة تثير سؤالاً وهو : لماذا لم يعمدّ فوراً بالروح وبالنار ، ثم يطهّر من الوثنية جميعَ الأراضي التي وعدها الله لسلالة إبراهيم ، ثم يؤسس مملكة الله بقوة النار ؟ إن من غير المفهوم أبداً أن لا يتبع عيسى أُولئك التلاميذُ والمؤمنون بالرسالة التي أنزلها الله على يوحنا ، مادام يوحنا هذا قد قدم عيسى للجمهور ، معتبراً إياه سيده والأعلى منه مرتبة . وقد يُعفى أتباع يوحنا من رفضهم الدخول في الكنيسة النصرانية فيما لو جاء يسوع المسيح ، بعد قرن تقريباً من مجيء المعمدان . ولكن من حسن الحظ أنْ لم يكن الأمر هكذا ، فقد كان كل منهما معاصراً للآخر ، ووُلِدا في نفس العام ، وقد تعمدا بالماء دليل التوبة ، وبشّرا الذين آمنوا بهما من التائبين بمملكة الله التي كانت تقترب من موعد قيامها ، ولكنها لم تظهر في عهدهما .

وكان الصابئة أو « الصباغون » أو « المعمدانيّون » أتباع يوحنا المخلصين ، وربما يكونون قد وقعوا فريسة للخطأ والأساطير ، ولكنهم كانوا يعرفون كل المعرفة أن عيسى لم يكن الشخص المقصود بنبوءة نبيّهم . وقد اعتنقوا الإسلام عندما جاء محمد . أما أهل حرّان في سوريا فلم يكونوا – كما يفترض بعضهم – بقايا من الصابئة القدماء . وفي الأراضي الموعودة كانت هناك ثلاثة أديان فقط غير إسلامية معترف بها

وموضع تسامح القرآن ، وهي اليهودية والنصرانية والصابئة . ويقال إن الحرّانيين زعموا أنهم بقايا الصابئة القدماء ، ولذلك سمح لهم بممارسة دينهم الغريب دون مضايقة من الحكومة التركية .

والمفهوم النصراني للروح القدس يختلف كلية عن المفهوم الإسلامي واليهودي عنه. فالروح القدس ليس شخصاً إلهياً ذا صفات إلهية ووظائف لا تمت بصلة إلى هذا أو ذاك من الأشخاص المقدسين الآخرين لإله ثلاثي . وإله الاعتقاد النصراني القائل إن نفس روح القدس هذا أو « الأقنوم » الثالث المقدس ينحدر من عرشه السماوي طوع إشارة أي قسيس أثناء احتفاله اليومي ببعض الطقوس – من أجل تقديس عناصره وتغيير جوهرها وخصائصها إلى بعض عناصر أُخرى فوق الطبيعة – إن هذا الاعتقاد أمر مناف للعواطف الدينية لكل موحِّد ، يهودياً كان أو مسلماً . ولا يوجد شيء يهز مشاعر المسلم أكثر من الاعتقاد بأن الروح القدس – بإيعاز من أحد القسس – يُغَيِّرُ دائماً ماء المعمودية إلى دم إله مصلوب ، ويمحو ما يسمى بالخطيئة الأصلية . أو كالاعتقاد بأن العملية السحرية التي تجرى على العناصر المادية للقربان المقدس تحولها إلى دم وجسد إلــه متجسد . هذه الاعتقادات كانت معاكسة تماماً لتعاليم العهد القديم ، وهي تزويرٌ للعقيدة الحقيقية ليوحنا وعيسى . ويؤكد النصارى أنه إذا ترنم بعض القساوسة بشيء من الترانيم ، فإن روح القدس تحل في بعض الأفراد وتقدسهم ، ولكنها لا تضمن عصمتهم أو وقوعهم في الجهالة . . إن هذا المعتقد خالٍ من أي معنى . ويقال لنا إن « حنانيا وزوجته شابيرا » قد عُمِّدا أي أنهما كانا مملوءَين بالروح القدس ، وهكذا ألهمهما الشخص الإلهي الثالث أن يبيعا حقلهما ويضعا ثمنه من النقود تحت قدمي الرسول بطرس ، ولكن في نفس الوقت أغراهما الشيطان بإخفاء جزء من النقود . وكانت النتيجة أن هذين الاثنين الشيوعيين المنكودي الطابع قد أصابتهما ضربة أماتتهما فوراً (سفر الأعمال / ٥) .

فكروا في الاعتقاد القائل : إن « الأقنوم الثالث » من ذلك الثالوث ينزل على البشر ويقدسهم ، ثم يسمح لهم بعدئذ بالوقوع في الخطأ والكفر والزندقة ، ويتركهم لكي يقترفوا الحروب المُهلكة والمذابح . هل هذا ممكن ؟ ! هل يستطيع الشيطانُ إغراءَ

الإنسان المملوء بالروح القدس المحفوظ بأمره فيحوله إلى شيطان ؟ القرآن الكريم واضح جداً في هذه النقطة إذ يقول الله تعالى للشيطان :

(إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ)(١) .

ولا نستطيع أن نؤمن بل ولا أن نتصور للحظةٍ واحدة ، أنَّ أحداً من عباد الله المؤمنين حقاً ، الذين تطهرت أرواحهم بالتقوى ، يمكن أن يقع في خطيئة موبقة ، يتردى بها في الجحيم . بل إن الشخص المستقيم مادام في هذا العالم المادي ، عليه أن يكافح ويناضل ضد الخطيئة والشر ، وإن زلت قدمه ، فإنه سوف ينهض ثانية ولن تخذله الروح النقية التي تحرسه . إن الندم والتوبة الحقيقية هي عمل الروح الطيبة التي تعيش فينا . وإذا عُمِّدَ نصراني بالروح القدس والنار ، وفق المعنى الذي يتضمنه « سفر أعمال الرسل » والذي تقبله الكنائس ، فعندئذ يجب على كل لاتيني أو يوناني أو حبشي مُعَمَّد أن لا يصبح نقياً من الآثام فحسب ، بل أيضاً عالِمَ لغاتٍ ونبياً متنوع المواهب ؟ .

والحقيقة أنه ليس لدى النصارى فكرة محددة أو دقيقة عن الروح القدس الذي يملأ النصراني المعمَّد . فلو كان إلهاً ، فكيف يجرؤ الشيطان على الاقتراب من هذا الرجل المقدس والمؤلَّه إلى حدٍّ ما وإغرائه وغوايته ؟ ويضاف إلى هذا الأمر الأكثر أهمية أنه : كيف يستطيع الشيطان أن يطردَ الروح القُدُس ويستقرَّ هو في قلب زنديق أو كافر مُعمَّد ؟ ومن ناحية أُخرى ، إذا كان الروح القدس يعني الملاك جبريل أو ملاكاً آخر ، فإن الكنائس النصرانية تتيه في صحراء الخرافات ، لأن الملاك ليس دائم الحضور في كل مكان . وإذا كانت هذه الروح التي تطهِّر النصارى المعمَّدين وتملؤهم ، هي الله نفسه ، لأن هذا هو اعتقادهم في الأقنوم الثالث من الثالوث ، فمن حق جميع النصارى أن يدَّعوا أنهم مقدَّسون أو مؤلَّهون .

---

(١) سورة الحجر : ٤٢ .

ثم يأتي مفهوم البروتستانت عن الروح القدس (١) الذي يملأ قلوب أولئك الذين يعتقدون ، وهم في ذروة انفعالهم ونشوتهم ، خلال خطاب ناري يلقيه خطيب عالم أو جاهل فيعتقدون بأنفسهم أنهم ولدوا من جديد ، وفي نفس الوقت يتراجع كثيرون منهم ويصبحون كما كانوا من قبل أوْغاداً وأفّاقين ؟

والآن قبل أن أتقدم لشرح المعمودية النارية والروحية ، فإنني حسب فهمي المتواضع أرغب في أن أقرّ وأعترف أن هناك عدداً كبيراً من الصالحين الذين يخافون الله موجودون بين النصارى واليهود ، غير أن معتقداتهم الدينية قد تختلف عن معتقداتنا ، فهم يحبون الله ويفعلون الخير باسمه . ونحن لا نستطيع أن نفهم أو نقرّر التعامل بين الله من جهة وبين شعوب تخالفنا في الدين من جهة أُخرى ، والمفهوم المسيحي للإله ليس إلا تعريفاً خاطئاً للإله الحقيقي الذي يؤمنون به ويحبونه . فإذا كانوا يمجدون عيسى ويؤلهونه ، فليس معنى هذا أنَّهُم يرغبون في عدم احترام الله، ولكن يفعلون ذلك لأنهم يرون جماله في روح الله ، (ويعنون بروح الله : عيسى) ومن المؤكد أنَّهُم لا يستطيعون تقدير رسالة أو نبوّة محمد ، ليس لأنهم ينكرون خدمته التي لا يضاهيها شيء لدين الله ، وذلك بإيقاعه أعظم ضربة بالشيطان وعبادة الأوثان ، ولكنهم لا يفهمون كما فهم هو الطبيعة الحقيقية لرسالة عيسى المسيح . ويمكن أن يُطرحَ نقاشٌ مشابهٌ حول موقف اليهود تجاه عيسى ومحمد ، إن الله غفور رحيم .

والروح القدس مع أداة التعريف « ال » تعني شخصية ملائكية معينة ، هي جبريل أو أي واحدٍ من الأرواح النقية التي خلقها الله وأوكل إليها أداء عمل معين . وإن نزول الروح القدس على كائن بشري معناه ، أن تلقي إليه الوحـــي بمشيئةٍ وبأمر من الله ، فيكون بذلك نبيّاً ، وإن نبيّاً من هذا الطراز لا يمكن للشيطان أبداً أن يغويه .

وإن التعميد بالروح القدس والنار الذي جاء به محمد ، يفسره لنا التنزيل الإلهي في آيـــة واحدة فقط من سورة البقرة (آية / ١٣٨) « « صِبْغَةَ اللهِ ، ومن أحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً ، ونحنُ لَهُ عابِدون » .

(١) إن الروح القُدُس في جميع الأدبيات الدينية المسيحية : وباللغات المختلفة ، ليس لديهم ما يدلون على وضعه من حيث التأنيث والتذكير ، فهم يستعملون He ، She ، It بصورة شائعة وتستخدم كأسماء شخصية للروح القدس . [المؤلف]

ويفهم المفسرون المسلمون – وهم مصيبون في ذلك – كلمة صبغة ليس بمعناها الحرفي « الصبغ » ولكن بمعناها الروحي أو المجازي وهو « الدين » وهذه الآية القرآنية تنسخ وتبطل أديان « السبعوثا » و « المعموديثا » أو الصابئة والنصارى معــاً . إن « صبغة الله » هي معمودية دين الله ، ليس بالماء ولكن بالروح القدس والنار ؟ والدين الذي آمن به كل واحدٍ من أصحاب الرسول في السنوات الأولى من الهجرة ، هو نفسه الدّين الذي يعتنقه اليوم بكامله كل مسلم . ولا يمكن أن يقال هذا عن الدين التعميدي . لقد انعقد أكثر من ستة عشر مجمعاً كنسياً لتحديد وتعريف دين المسيحية ، ولم يكن ذلك إلا ليكتشف مجمع الفاتيكان في القرن التاسع عشر أن أسرار العصمة والحمل بلا دنس كانتا من التعاليم الرئيسية ، وكلا المسألتين لم تكن معروفة للرسول بطرس ولمريم العذراء عليها السلام . وإن أي دين يعتمد على مداولات وقرارات المجامع العامة – المؤمنة أو الملحدة – هو دين مصطنع . إن دين الإسلام هو الإيمان بالله الواحد والتسليم المطلق لمشيئته ، وهذا الإيمان يعتنقه الملائكة في السماء والمسلمون في الأرض . إنه دين التقديس والاستنارة وقلعة لا يمكن للوثنية اقتحامها .

ولنحــاول مزيداً من التوضيح والبلورة لهــذه النقــاط :

إن المعمودية الروحية هي العمل المباشر لله نفسه . وكما يفعل القصار أو الغسالة حين تغسل الكتان أو أي شيء آخر بالماء ، وكما يصبغ الصباغ الصوف أو القطن بصبغة تعطيه لوناً جديداً ، هــكذا يمحو المعمدان الخطايا السابقة للمؤمن الحقيقي التائب ، حيث أن الله تعالى لا يعمد الجسم ، بل يعمد روح الشخص الذي يتولاه برحمته وحسن توجيهه وإرشاده ليدخل في دين الإسلام المقدس القــويم .

هذه هي صبغة الله ، معمودية الله ، التي تجعل من الشخص إنساناً مهذّباً حسن السمت بحيث يصلح لأن يكون مواطناً في مملكة الله وعضواً في دينه . وعندما نقل المــلاك جبريل كلمة الله لأول مرة إلى محمد ، فقد أصبح محمد بذلك محلاً لهبة النبُوَّة ، وتم تطهير روحه وتساميها بالروح القــدس ، إلى درجة أنه عندما قام بدوره بإعلان هذه الكلمة إلى أُولئك الذين أراد الله بمشيئته أن يهديهم ، وجدهم على استعداد لتقبل التطهير والتزكية والهــداية . وهكذا فقد أصبحوا هم أيضاً قادة

أبراراً في جيش المسلمين المؤمنين . وهذا التعميد الروحي لا يجعل من المسلمين أنبياء وقديسين معصومين أو صانعي معجزات ، لأنه بعد تنزيل مشيئة الله وكلمته في القــرآن الكريم ، فقد ختمت النبوة وانتهى الوحـــي ؛ ولم يصبحوا قديسين معصومين لأن تقواهم وأعمالهم الطيبة ليست نتيجة جهودٍ وصراع ضد الشيطان ، وهذا لا يعني أنها غير جديرة بالتقدير ، فهم غير مكلفين بصنع المعجزات والخوارق ليصبحوا مؤمنين . إنهم في غنى عن ذلك ؛ لأنهم ذوو اعتقاد راسخ وسليم بربهم .

كذلك فإن صبغة الله هذه تجعل المسلمين الحقيقيّين جادين ومواظبين على واجباتهم تجــاه الله وتجاه رفاقهم من البشر وتجاه أسرهم بصورة خاصة .

ولا يدفعهم ذلك إلى حماقة الاعتقاد بأنهم هم أكثر صلاحاً من بني دينهم ، ليستأثروا عليهم أو ينتحلوا لأنفسهم مركز الرعوية على الآخرين كما لو كانوا قطعاناً لهم ، فالتعصب والغرور الديني وما شاكل ذلك ليس من أعمال الروح الطاهرة . إن كل مسلم يتلقى عند تكوينه وخلقه الصبغة الإلهية ، وكذلك نفس الديانة ونفس التزكية الروحية ، وعليه أن يسير رحلة حياته الدنيوية بأفضل ما يستطيع من السبل والجهـــود من أجل إحراز تاج المجـــد في العالم الآخر . وما يحتاجه المسلم إنما هو التعليم والتهذيب الديني بالممارسة طبقاً للحكمة التي تتضمنها كلمة الله . ولكنه ليس بحـــاجة إلى وساطة من قسيس أو طقوس معينة أو قديس . وكل مؤمن مستنير يمكن أن يُصبح إماماً أو داعياً لدينه أو واعظاً حسب تعليمه وحماسه الديني ، وليس من أجل المجـــد الفارغ أو المكسب المـــادي .

وباختصار ، فإن كل مسلم سواء ولد على الإسلام أو اعتنقه بعد ذلك ، يُطَهَّرُ روحياً ، ويصبح مواطناً لمملكة الله ، ورجلاً حراً ، ويملك حقوقاً والتزامات متكافئة حسب قدرته وفضائله وعلمه وثروته ودرجته .

وهـــكذا فإن يوحنا المعمدان يعزو هذه المعمودية الروحية والنارية لرسول الله العظيم ، ليس باعتباره كائناً إلهياً أو إلهـــاً أو ابن إلـــه ، ولكن باعتباره وكيلاً ربانياً ووسيلة يتم عن طريقها ذلك التعميد الإلهي . لقد بَلَّغ محمد رسالة الله التي كانت

كلمته العليا ، (أي كلمة الله) وكان يؤم في الصلوات ، ويقوم بالشعائر الدينية ، ويخوض الحروب المقدسة ضد الكفرة والوثنيين للدفاع عن قضيته ، ولكن النجاح والنصر الذي كان يتحقق كان من عند الله . وبنفس الطريقة وعظ يوحنا وعَمَّد ، ولكن قبول التوبة والكفارة وطرح الخطايا لا يمكن حصولها إلا من قبل الله ، وإن تَنَبّؤ يوحنا النبي بقوله : « إن الذي يأتي بعدي أقوى مني ، وسوف يعمدكم بالروح وبالنار » ، تنبؤ مفهوم ، لأن هذه المعمودية الروحية قد أُعطيت لمحمد وحده ، ونفذت عن طريق « محمد » وحـــده .

وجـــدير بالملاحظة أن شكل ومضمون هذه المعمودية هو بصورة كاملة ، إلهي علوي يتعلق بالغيبيات . إن أحدنا يشعر ويرى الآثار المترتبة على سبب ما غير محسوس ، وهذا السبب حقيقي يؤدي إلى ذلك التأثير . إن الماء في المعمودية لم يعد هو المادة المؤثرة ، والمعمدان لم يعد هو القائم بالوظيفة الدينية في أداء الطقوس ، ولكن الله هو الذي يقوم بذلك من خلال الروح . وحسب عبارة المعمدان ، فإن وسائل « صبغة الله » هي الروح القدس والنار . والصورة أو الشكل الخاص بالمعمودية هو من عند الله وحده ، ولا نَستطيع أن نعزو لله تعالى عملاً ما سوى كلمته للشيء « كن » فيكون ، والنتيجة أن المسلم يصبح إنساناً صالحاً ومستنيراً وجندياً مرابطاً لقتال الشيطان والوثنية التي تنتسب إليه ، وهذه الآثار الثلاثة لصبغة الله تستحق تمعناً جاداً أو دراسة ، وسوف نستعرضها :

١ ــ الروح القدس : سواء كان كبير الملائكة جبريل أو غيره من المخلوقات العليا ، يبارك روح المسلم بأمر الله عند مولده أو عند دخوله في الإسلام ، على أي حـــال وهذا التبريك يعني :

(أ) طبع الإيمان الكامل بإلـــه حقيقي واحد . وصبغة الله تجعل روح المسلم الحقيقي تؤمن بوحدانية الله المطلقة وتعتمد عليه ، وتعترف به وحـــده كسيدٍ ومالكٍ وربٍّ لهذا المؤمن . ويتضح هذا الإيمان بالإلـــه الحقيقي في نفس كل شخص يقول إنه مسلم . وعلامة هذا الإيمان المطبوع في نفس المسلم تشع عندما يقول : « أنا مسلم والحمد لله » وأية إشارة أوضح وأكثر دلالة على الإيمان من الكراهية والنفور اللذين

يحس بهما المسلم تجاه أي معبود سوى الله ؟ أيهما أكثر طهراً واستقامة في نظر الله : الشخص الذي يعبد خالقه في جوف المسجد البسيط ، أو الذي يعبد الأربع عشرة صورة وتمثالاً ، وهي تمثل مناظر الصلب ، في مبنى ، جدرانه ومذابحه مزينة بالتماثيل الوثنية ، وأرضه مغطاة بعظام الموتى ، وقبته مزخرفة بصور الملائـــكة والقديسين ؟ ! !

(ب) إن تطهير روح المسلم ، الذي يتم بالروح القدس وبالنار ، بأمر الله ، معناه : أنّ الله يملأ تلك الروح بالحب والخضوع له . والزوج الشريف يفضل أن يطلق زوجته المحبوبة على أن يرى رجلاً آخريشا طرها حبه . وسوف ينبذ الله تعالى أي مؤمن يُشركُ به (١) شيئاً أو كائناً ما من الكائنات . وحب المسلم لله ليس نظرياً أو مثالياً بل هو واقعيٌ وعملي . ولن يتردد لحظة واحدة في أن يطرد من بيته زوجته أو ابنه أو صديقه ، إذا تفوّه بكلمات كفر أو تجديف على اسم الله أو ذاته العلية . وقد يبدي الكافر أوالشخص الذي يعتنق ديناً آخر حماساً شديداً مماثلاً تجاه معبوده ، ولكن ذلك الحب الذي يبديه المؤمنون لله الواحد الحق حب مقدس . وهذا الحب لا يمكن أن يوجد إلا في قلب المسلم . وهذه الصيغة المباركة الطيبة : « بسم الله » و « الحمد لله » في بداية كل عمل أو مشروع وعند نهايته ، أكثر التعبيرات مصداقيّة للروح المسلمة الطاهرة التي طبعت على حب الله والانفعال به ، وهو حب يتسامى عن أي حب ويتفوق عليه . وهذه المقولات ليست تعابير مصطنعة أو متملقة صادرة من فم المسلم ، ولكنها نابعة من الروح الزكية التي تسكن جسمه في صلاته ومناجاته . وإذا ما كان النصراني واليهودي يتمتعان بنفس الإيمان والإخلاص ، وتتدفق من روح أحدهما تلك التعابير التي تتدفق من المسلم ، فهو مسلم أيضاً في هذه الحالة ، مع أنه لا يدرك ذلك .

(ج) إن التطهير المعمداني الذي تضفيه « صبغة الله » على روح المسلم الموحد ، إضافة إلى الإيمان والمحبة ، يعني الاستسلام الكامل والتسليم لمشيئة الله العليا ، وهـذا الاستسلام المطلق نابع ليس من الحب والإيمان وحسب ، ولكن أيضاً من التقوى ومن الاحترام العميق الكامن في أعماق النفس والروح لكل مؤمن حقيقي .

---

(١) قال تعالى :(إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ) . سورة النساء الآية : ٤٨ . [المترجم]

هذه هي الخصائص الرئيسية للمعمدانية الروحية ، وهي ليست واضحة إلا عند أتباع الإسلام . لقد آمن يوحنا المعمدان وعيسى المسيح وحواريوه وأحبوا وخافوا الله الذي يؤمن به ويحبه ويخشاه كل مسلم حسب درجة سموه الروحي وعاطفته الدينية . وكذلك الروح القدس نفسه ، فهو أيضاً مخلوق يُحِب الله ويخافه مثلما نؤمن به نحن ونحبه ونخشاه .

٢ — العلامة الثانية في المعمدانية الروحية هي الهداية والاستنارة :

إن معرفــة الله الحقيقية ، ومعرفة مشيئته ، بالقدر الذي يتأتى للناس أن يحيطوا به منها ، هذه المعرفة لا تشاهد مطلقاً إلا عند المسلمين دون غيرهم ، وهي تنبعث كالأشعة التي تبهر الأبصار وتوجه سلوك كل مسلم وتؤثر في سمته العام .

إن جوهر الذات الإلهية ، أمر لا يُحاط به ولا يُدرَك مداه ، كما أن الطفل يعجز عن فهم طبيعة والديه وخصائصهما ، ومع ذلك فالطفل الرضيع يعرف أمه من بين جميع النساء الأخريات . وهذا القياس أو التشبيه دون الحقيقة بكثير ، ويكون البون أكبر عند المقارنة بين المسلم الجيد المستنير وعلاقته بخالقه من جهة ، وبين الطفل الذي يبكي من أجل أُمه من جهة أُخرى . وكل مسلم مهما كان جاهلاً وفقيراً وخاطئاً يرى في كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة آية تدل على الله وعلاقة تشير إليه . ومهما حدث للمسلم من سَرَّاء أو ضَرَّاء فإن الله حاضر في فكره دائماً . ونداء المسلم للصلاة شاهد على استنارته . وشهادة أن « لا إله إلا الله » هي احتجاج وإنكار أبــدي ضد جميع أُولئك الذين يُشْرِكون بالله أشياء لا تستحق العبادة . وكل مسلم يقرّ ويشهد أنّ الله وحده هو المستحق للعبــادة .

وفي هذا المقام يمكن القول بأن (النفس) الإنسانية تختلف عن الروح الإنسانية . إن الروح الطيبة هي التي تضيء النفس وتغرس فيها معرفة الحقيقة . وبالمقابل ، فإن الروح الشريرة هي التي تُغري النفس بالخطيئة ، وتوقعها في الكفر والإشراك بالله .

٣ — إن « صبغة الله » هي المعمودية التي تقوم على التطهير بالنار وتُمِدّ المسلم بالسلاح اللازم لكي يصبح دعامة ضدّ الباطل والخرافة ، وضدّ الوثنية من كافة

الأنواع ، بصفة رئيسية . وهذه النار المعمدانية هي التي تذيب نفس المسلم وروحه ، وبذلك تفصل عنصرها الذهبي الخالص عن الشوائب والأوضار . وقوة الله هي التي توطِّد العلاقة وتوثقها بين الله والعبد المؤمن ، وتعدّه ليحارب في سبيل دين الله . وإن حماس المسلم لله ودينه حماس فريد ومقدس ، كذلك فإن المتوحشين يحاربون في سبيل آلهتهم ، التي يعبدونها ، والكفرة من أجل أصنامهم ، والنصارى في سبيل الصليب ، ولكن ما أبعد الفرق بين هذه الأمور التي لا تستحق العبادة وبين معبود المسلمين بحـــق ! ! .

وفي الختام لابد من توجيه انتباه إخواني المسلمين ليحاولوا أن يُدركوا ذواتهم وأن يتذكروا نِعَم الله عليهم ، وأن يعيشوا طبقاً لذلك .



ليس البارقليط هو الروح القدس

" Paraclete "

في هذه الحلقة نستطيع الآن أن نناقش موضوع « البارقليط » الذي اشتهر ذكره في الإنجيل الرابع . فلقد أعلن يسوع المسيح كما أعلن يوحنا المعمدان قدوم مملكة الله ، ودعا الناس إلى التوبة ، وعمّدهم لتكفير خطاياهم ، وقام بأداء رسالة الله بكل شرف وأمانة إلى شعب إسرائيل ، ولم يكن هو نفسه مؤسس مملكة الله ، ولكنه كان مبشراً بها ؛ ولذلك لم يكتب شيئاً ، ولم يفوض أحداً بكتابة الإنجيل المقدس ، الذي كان منقوشاً في عقله . وقد بلغ أتباعه الإنجيل الذي يعني « الأخبار الطيبة » فيما يتعلق « بمملكة الله » و « البارقليط » (Pereiklitos) ، ليس عن طريق الكتابة ، ولكن بالحديث الشفوي والمواعظ العامة . والذين سمعوا هذه الأحاديث والمواعظ والحكم نقلوها إلى الذين لم يسمعوها . وفيما بعد صار انتقال أقوال السيد وتعاليمه بواسطة الكتابة . ولم يعد عيسى ذلك الحَبْر الرباني بل صار الكلمة الإلهية ، ولم يعد سلف البارقليط بل سيده ورئيسه . وهكذا فإن كلماته النقية الصادقة قد أخذت تمتزج وتختلط شيئاً فشيئاً بالأساطير والخرافات ، وكان يتوقع منه لبعض الوقت أن ينزل في أية لحظة من السحاب مع أعداد هائلة من الملائكة . لقد مات جميع الرسل ؛ وتأخر المجيء الثاني لعيسى ، وأدى ذلك إلى أن شخصه وتعاليمه أصبحت وسيلة إلى مجموعة من التكهنات الدينية والفلسفية . وتوالت الملل والنحل ، وظهرت الأناجيل والرسائل تحت أسماء وعناوين مختلفة في مراكز عديدة . وتخاصم العديد من العلماء والمدافعين عن النصرانية وانتقدوا نظريات بعضهم بعض . ولو كان هناك إنجيل مكتوب أثناء حياة عيسى ، أو حتى كتاب مجاز من قبل مجمع الرسل ، فإن تعاليم رسول الناصرة كانت ستحتفظ بنقائها وصحتها حتى ظهور البرقليط أو الفرقليط – أحمد . ولكن لم يكن الأمر هكذا . واتخذ كل كاتب رأياً مخالفاً لغيره مما أدى إلى مخالفة

السيد ودينه ، وإلى وصفه في الكتاب الذي كتبه وسماه الإنجيل أو الرسالة بأوصاف توافق تصوراته الخاصة به هو . أما الخيال الجامح حول ما تعنيه الكلمة ، والتنبؤ عن البارقليط ، وحديث عيسى الذي لا يمكن تفسيره بأنه يعني لحمه ودمه ، وكذلك جملة المعجزات والأحـــداث والأقوال المسجلة في الإنجيل الرابع ، فإنها لم تكن معروفة لأصحاب الأناجيل الثـــلاثة الأولى من العهـــد الجديد ، ومن باب أولى للغالبية العظمى من النصارى الذين لم يروه ، وقد كان بينه وبينهم نحو قرنين من الزمان على الأقـــل .

وأما الأنجيل الرابع فهو مثل أي كتاب أو سفر آخر في العهد الجديد ، فقد كتب باليونانية وليس بالآرامية التي كانت اللغة الوطنية لعيسى وتلاميذه . وبالتالي فإنه تُـواجهنا مرة أُخرى نفس الصعوبة التي لقيناها عندما كنا نبحث في « يودوكيا » " Eudokia " الخاصة بـ « مار لوقا » وهذه الصعوبة تتلخص في السؤال : ما هي الكلمة أو الاسم الذي استعمله يسوع في لغته الأصلية والتي نقلها الإنجيل الرابع بلفظ « البرقليط أو الفرقليط » ثم ترجمت إلى « المعزي » في جميع نسخ ذلك الإنجيل .

قبل مناقشة الاشتقاق والأهمية الحقيقية لهذه الصيغة غير الكلاسيكية والمحرفة « للفرقليط » لابد من إبداء ملاحظة قصيرة حول أحد الملامح الخاصة بإنجيل مار يوحنا .

إن تأليف وصحة هذا الأنجيل من المسائل التي تخص النقد التوراتي في الدرجة الأولى ، غير أنه من المستحيل التصديق أن الرسول كتب هذا الإنجيل كما هو بين أيدينا من حيث شكله ومحتواه . فالمؤلف سواء كان يوحنا بن زبيدي أو شخصاً آخر يحمل ذلك الاسم ، يبدو مُلِمـًّا بتعاليم الفيلسوف والعالم اليهودي فيلون فيما يتعلق بالكلمة Logos ، فمن المعروف جيداً أن فتح الإسكندر الكبير لفلسطين وتأسيسه الإسكندرية قد استهل ولأول مرة عصراً جديداً في الثقافة والحضارة . حينئذ بدأ تلاميذ موسى يجتمعون مع تلاميذ ابيقوروس ، وحدث التأثير الهائل للتعاليم الروحية التوراتية على مادية الوثنية اليونانية . وأصبح الفن والفلسفة اليونانيان موضع إعجاب ودراسة كبار العلماء اليهود في القانون في فلسطين ومصر ، حيث كانت لديهم جالية كبيرة العدد جداً . وأدى تسرب الفكر اليوناني والآداب اليونانية للمدارس اليهودية إلى شعور الأحبار

والعلماء بالهلع . والواقع أن العبرانية كانت مهملة لدرجة أن الكتاب المقدس كان يُقرأ في كُنُسِ الإسكندرية بالترجمة السبعينية ، لكن هذا الغزو الذي قامت به المعرفة الأجنبية ، دفع اليهود للقيام بدراسة أفضل لقانونهم والدفاع عنه ضد الروح الجديدة المشؤومة . ولذلك حاولوا أن يجدوا طريقة جديدة لتفسير التوراة ، بقصد توفير إمكانية التقارب والمصالحة أو التوفيق بين الحقائق التوراتية والفكر الهليني ، لأن اسلوبهم السابق في التفسير الحرفي للقانون كان يُنظر إليه على أنه غير عملي ، وأضعفُ من أن يصمد أمام المنطق الجذاب لأفلاطون وأرسطو . وفي ذات الوقت فإن النشاطات القوية لليهود وإخلاصهم العميق لدينهم ، كثيراً ما أثار ضدهم حسد اليونان وكراهيتهم . وكان « مانيثو » الراهب المصري قد قام بكتابة افتراءات وقدْح ضد اليهودية ، وذلك في زمن الإسكندر الكبير . وكذلك قام الخطيب الشهير أبيون في عهد الإمبراطور طيباريوس بإحياء إهانات « مانيثو » وزيادة حدّتها . وهكذا فإن الأدبيات سَمَّمَت عقول الناس الذين قاموا فيما بعد باضطهاد شرس لمن آمنوا بإلــهٍ واحد حــق .

وبناءً على ذلك تم العثور على الأسلوب الجديد وصار متبعاً . وكان تفسيراً مجازياً لكل قانون وتعليم ورواية ، حتى أسماء الشخصيات العظيمة كان يعتقد أنها تخفي في طياتها فكرة سرية تحاول إخراجها للنور . وسرعان ما ادّعت هذه الطريقة في التفسير المجازي لنفسها مكانة التوراة وكانت أشبه بغلاف يضم داخله نظاماً للفلسفة الدينية .

وكان أبرز رجل جسّد هذا العلم هو « فيلون » الذي ولد من أُسرة يهودية ثرية في الإسكندرية سنة ٢٥ ق . م . وكان جيد الإلمـــام بفلسفة أفلاطون ، وكتب مؤلفه المجازي بأسلوب يوناني نقي ومتناسق . وكان يؤمن أن نظريات أو تعاليم الوحي يمكن أن تتفق مع أَسمى ضروب المعرفة والحكمة البشرية . وكان أكثر ما يشغل فكره هو ظاهرة التعامل الإلهي المتسم بالروحية النقية ، مع البشر أو الكائنات الأرضية . وعلى غرار نظرية المـُثُل أو الأفكار لأفلاطون ، اخترع سلسلة من الأفكار الوسيطة سميت « الفيض الإلهي » فحوّلها إلى حلقات تصل بين الله والعالم — وكان العنصر الأساسي في هذه الأفكار ، أو الكلمة الإلهية ، أو المبدأ العقلاني في الكون ، يؤلف أسمى حكمة وجدت في العالم وأقوى تعبير عن التصرفات التي تصدر عن العناية الإلهية.

وتَبِعت المدرسة الإسكندرانية خطى اليهودية إثر انتصار الأخيرة على الوثنية . ولكن كما يقول كبير الربانيين « بول هاجوناور » بحق في كتابه الصغير الممتع « كُتَيِّبٌ عن الأدب اليهودي » (ص / ٢٤) : إنها أنظمة بغيضة فعلاً ليس لليهودية فحسب بل وللنصرانية أيضاً .

ولابد لذلك من تتبع أصل نظرية الكلمة ، في لاهوت فيلون أو الرسول يوحنا أو مؤلف الأنجيل الرابع كائناً من كان . فقد وضع على شكل تعاليم نظرية المُثُل أو الأفكار التي نَبعَتْ لأول مرة من عقل أفلاطون العبقري . وكما سبق القـــول في الحلقة الأولى من هذه السلسلة ، فإن الكلمة الإلهية تعني كلمة الله ولا تعني الله الكلمة . والكلمة صفة تتعلق بكائن عقلاني ، وهي تخص أي متكلم ولكنها ليست الكائن العقلاني أو المتكلم نفسه ، والكلمة الإلهية ليست خالدة ، إذ أن لها أصلاً أو بداية (١) ، ولم توجد قبل البداية إلا بصورة كامنة . والكلمة ليست الجوهر . ومن الخطأ الفادح إعطاء الذاتية الخاصة لأية صفة مهما كانت . وإذا كان مسموحاً القول بأن الله هو الكلمة فلماذا لا يسمح بالقول : الله الحب ، والله الانتقام ، والله الحياة ، والله القوة وهلم جرا (٢) ؟ إنني أفهم جيـــداً وأتقبل تسمية عيسى « بالروح الإلهـــي » أو روح

(١) عاد الكاتب مرة أخرى إلى الحديث عن كلام الله ، والزعم بأنه مخلوق ، له بداية ونهاية – وقد سبق الردّ على ذلك .

(٢) لا يقال : الله الحب ، الله الانتقام ، الله الحيـــاة . .

وإنما يقال عن الذات الإلهيـة : ذات حب ، ذات انتقام ، ذات وجود ، ذات قـــدرة ، ذات علم ، ذات كرم . . . الخ .

لأنه لا يتصور انفصال الذات عن الصفات ، ولذا لا تستعمل إلا مضافة ، والموصوف بصفاته شيء واحد غير متعـــدد .

فإذا قلت : أعوذ بالله ، فقد عذت بالذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال المقدسة الثابتة التي لا تقبل الانفصال بوجه من الوجوه .

وكذلك إذا قلت : أعوذ بعزة الله ، فقد عـذت بصفة من صفات الله تعالى ، ولم تعذ بغير الله سبحانه . =

الله (١) وموسى بكليم الله ، ومحمد برسول الله أي روح الله و كلمة الله ورسول الله على التوالي، ولكنني لا أستطيع أن أفهم أو أقبل أبداً أن الروح أو الكلمة أو الرسول شخص إلهي له طبيعتان ، إلهيــة وبشرية .

والآن نتقــدم لنُعَرِّي وندحض الخطأ النصراني حول « الفرقليط » وسأحاول أن أُبرهن في هذه الحلقة أن الفرقليط كما تعتقد الكنائس النصرانية ليس هو الروح القدس. ولا تعني كلمة « الفرقليط » المعزي أو الشفيع ، وفي الحلقة التالية إن شاء الله سوف أُبين بوضوح أن الكلمة التي تعني أحمد بمعنى الأشهر والأكثر حمداً وشهرةً هي ليست براكليت Paraclete ، بل هي بيريكلايت Periclyte :

١ – الروح القدس موصوف في العهد الجديد بأنه شيء آخر غير مُشَخَّص :

إن دراسة دقيقة للعبارات التالية في العهد الجديد سوف تقنع القراء أن الروح القدس ليس هو « الأقنوم » الثالث للثالوث كما أنه ليس شخصية مستقلة ، ولذلك فهذا الفرق الأساسي بين الأمرين حجة قاطعة ضد الافتراض بأنهما نفس الشخص :

(أ) في إنجيل لوقا (١١ / ١٣) يقال إن الروح القدس « هبة » من الله . والمفارقة بين « الهبات الطيبة » التي يعطيها الآباء الشريرون والروح القدس الذي يُمنح للمؤمنين

= والقول بأن تعــدد الصفات يلزم منه تعدد القدماء ، شبهة ابتدعها المعتزلة ، ودعتهم إلى إنكار صفات المعاني . . وهذا هو التعطيل ، وهو باطل . . إذ أن الصفات ثابتة نقلاً وعقلاً . . لايجوزإنكارها . . ثم إن الممتنع هو تعدد القدماء ، إذا كانت ذواتاً مستقلة ، لا تعدد الصفات لذات واحدة . فذاك شرك وهذا توحيد . . وشتان ما بينهما . . وهل يمكن أن يعقل موجود بدون صفات ؟ !

ثم إن هذه الصفات مصدرها الكتاب والسنة . قال الإمام أحمد بن حنبل : « لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ، لا يتجاوز القرآن والحــديث . » . .

(انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ١٢٩ وما بعدها) . [المعلق]

(١) سبق التعليق على مثل هذه العبارة ، والتعبير الصحيح أنه « روح من الله » . [المعلق]

بالله . تَستبعدُ كليةً فكرة وجود أية شخصية للروح . فهل نستطيع بدقة وثقة وراحة ضمير أن نؤكد أن عيسى المسيح عندما ذكر المفارقة آنفة الذكر ، كان يقصد تعليم سامعيه أن « الله الأب » يقدم هبة الله الروح القدس « لأبنائه » في الأرض ؟ هل لمّح قط إلى اعتقاده بأن الأقنوم الثالث في الثالوث هو هبة الأقنوم الأول ؟ هل نستطيع التسليم براحة ضمير بأن الرسل آمنوا أن هذه الهبة كانت هي الله تعالى الذي قدمه الله تعالى للبشر ؟ إن مجرد التفكير بهذا المعتقد تثير الذعر في نفس المسلم .

(ب) في سفر الكورنثيين الأول (٢ / ١٢) يُوصف هذا « الروح القدس » بصيغة المُحيِّر « الذي لا هو مؤنث ولا مذكر » "Neuter Gender" « الروح من الله » . ويذكر القديس بولس بوضوح أنه : كما أن الروح التي في الإنسان تجعله يعرف الأشياء التي تخصه . فإن روح الله تجعل الإنسان يعرف الأشياء الإلهية (الكورنثيين ١ / ١١) .

وبالتالي فإن الروح القدس هنا ليس هو الله . ولكنه منفذ أو طريق أو وسيط يختص الله بواسطته من يشاء من عباده بالتعليم والتنوير والإلهام . وهو مجرد عمل من الله بذاته . وقد ذكرت أن « فيلون » كان تلميذاً للفلسفة الأفلاطونية . إنه لم ير أفلاطون ولكنه تعلم فلسفة أفلاطون وأصبح فيلسوفاً وأفلاطونياً . وبنفس المعنى أقول : إن الإلهام الإلهي تلقاه بطرس الرسول . وتلقاه الإمام علي . وأصبح كلاهما ملهماً في معرفة الله . فهما روحانيان ربانيان . وكما أن فلسفة أفلاطون ليست أفلاطون نفسه . وأن « فيلون » الأفلاطوني ليس هو الذي أوجد تلك الحكمة بالذات . فإن بطرس وعلياً لم يكونا هما الله . لقد كانا ربّانييّن لأنهما استنارا بنور الله . ويوضح القديس بولس بجلاء في العبارة التي سبق اقتباسها أن الروح الإنسانية لا يمكن أن تدرك الحقائق المتعلقة بالله ، إلا عن طريقه سبحانه وعن طريق إلهامه وتوجيهه فقط .

(ج) مرة أخرى في سفر الكورنثيين الأول (٦ / ١٩) نقرأ أن عباد الله الأتقياء يُطلق عليهم : « هيكل الروح القدس » تلك التسمية التي « تلقوها من الله » . وهنا مرة أخرى دليل على أن الروح الإلهي ليس شخصاً أو ملاكاً . ولكنه كلمة الله أو قداسة الله أو قوة الله ودينه . وإن روح الإنسان المؤمن الصادق وجسده ليشبهان معبداً مخصصاً لعبادة الله الباقي .

(د) في الرسالة الموجهة إلى الرومان (٨ / ٩) فإن هذه الروح نفسها التي « تعيش » داخـــل المؤمنين تسمى « روح الله » و « روح المسيح » بالتناوب ، وفي هذه العبارة فإن الروح تعني ببساطة الإيمان ودين الله الحقيقي الذي نادى به عيسى . وبالتأكيد فإن هذه الروح لا يمكن أن تعني المثل الأعلى النصراني للروح القدس أي : « ثالث الثلاثة الأخير » ونحن المسلمين نرغب ونصمم دائماً على تنظيم حياتنا وسلوكنا حسب الروح المحمدية . ونقصد بذلك أننا عازمون على البقاء مخلصين لدين الله بنفس الطريقة التي كان عليها خاتم الأنبياء ؛ لأن روح محمد الطاهرة وروح عيسى وروح كل نبي آخر ، لم تكن إلا من أمر الله تبارك وتعالى . . وهذه الروح تدعى « طاهرة » لتمييزها عن روح الشيطان الدنسة الشريرة وأرواح أتباعه الساقطين ، وهذه الروح ليست شخصاً مقدساً بل شعاعٌ رباني يهدي عباد الله ويطهر نفوسهم .

(ﻫ) إن صيغة الإنجيل « باسم الآب والإبن والروح القدس » حتى ولو كانت صحيحة ومؤيدة حقاً من قبل المسيح ، فإن قبولها بصورة مشروعة كصيغة للإيمان يتوقف مع نزول الإسلام الذي هو مملكة الله الحقيقية على الأرض . والله تعالى بصفته الخالق هو الأب لجميع الكائنات والأشياء والعقول ، ولكنه ليس أباً لأحد من الخلق أيّاً كان . ويعرف المستشرقون أن الكلمة السامية : أب أو آبا التي تترجم إلى « والد » تعني : « الشخص المنتج أو الذي يحمل الثمار » . (إبا) معناها : فاكهة أو ثمر . هـــذا المعنى للكلمة مفهوم واستعمالها جائز ، وكثيراً ما تستعمل التوراة اسم الأب . وفي مكان ما من التوراة يقول الله : « إن إسرائيل هو أول أبنائي ولادة » كما يقال عن الله في مكان آخر في سفـر أيوب إنه «أبو الأمطار » والقـرآن يستنكف عن استعمال هذه التسمية الإلهية للخالق ؛ لأن النصرانية أساءَتْ استعمالها . ومن ناحية العقيدة الإسلامية أو التوحيدية البحتة ، فإن التعاليم النصرانية المتعلقة بالميلاد الأبدي للابن هي كفر .

وسواء كانت الصيغة المعمدانية النصرانية صحيحة أو ملفقة ، فإنني أعتقد بوجود حقيقة مخفية فيها . إذ يجب أن نعترف بأن الإنجيليين لم يسمحوا قط باستعمالها في أي طقس آخر أو صلاة أو عقيدة أُخرى تختلف عن صيغة المعمدانية ، وهذه نقطة بالغة الأهمية . وقد كان القديس يوحنا قد تنبأ عن المعمودية بالروح القدس والنار على يد

الرسول محمد ، كما رأينا في المقالات السابقة ، والمُعَمِّدُ المباشر هو الله نفسه ، والوسيط هو ابن الإنسان أو « بارناشا » ، كما جاء في رؤيا دانيال . وكان من العدالة والدقة بمكان ، ذكر هذين الاسمين على أنهما السببان : الأول والثاني، الكافيان الفاعلان ، وكذلك اسم الروح القدس على أنه الأساس أو السبب المادي لصبغة الله ؟ وقد جرت الاستعانة بحق بكلمة أب قبل أن أساءت الكنيسة استعمالها . والواقع أن صبغة الله هي ميلاد جديد في ملكوت الله وهو الإسلام . والمُعَمِّدُ الذي يسبب هذا الميلاد الجديد هو الله مباشرة ، وإنّ كون المرءِ يُولَدُ في ظل الإسلام ويُمنح الإيمانَ بالله الحق ، هو أعظم فضل وهبة من الأب السماوي (على حد التعبير الإنجيلي) . وبهذا المعنى فإن الله أكثر إنعاماً من أي أبٍ بشري .

أما فيما يتعلق بالاسم الثاني في المعادلة وهو : « الابن » فالمرء يحار في معرفة من هذا الابن وما هو ؟ إبن من هو ؟ وإذا ما صح لنا أن نخاطب الله على أنه « الأب » فعندما يكون المرء راغباً في الاستطلاع والاستفسار ومعرفة الابن المقصود ، فَمَن سَيكون هذا الابن من بين الأبناء ، الذين لا حصر لهم في الصيغة المعمودية .

وقد علمنا عيسى أن نصلي قائلين « أبانا الذي في السماوات » فإنا جميعنا أبناؤه بمعنى مخلوقاته . إذن مجرد ذكر كلمة « إبن » في الصيغة أو المعادلة يصبح إلى حد ما عديم المعنى بل ومضحكاً . إننا نعرف أن الاسم « ابن الإنسان » أو (بارناشا) مذكور ثلاثاً وثمانين مرة في أحاديث عيسى . ولا يذكر القرآن قط عيسى على أنه « ابن الإنسان » بل يدعوه دائماً « ابن مريم » . . هو لا يستطيع أن يسمي نفسه ابن الإنسان أو ابن الرجل لأنه كان ابن امرأة ، ولا مهرب من الحقيقة . بإمكانكم أن تجعلوه ابن إلـه كما تفعلون بحماقة دائماً ، ولكنكم لا تستطيعون أن تجعلوا منه ابن الإنسان ، إلا إذا اعتقدتم أنه ابن يوسف (النجار) أو شخص آخر ، وبالتالي تثبتون عليه وصمة اللاشرعية .

ولا أعرف بالضبط هل عن طريق الإيماء أو الالهام أو الحلم قد تعلمت واقتنعت أن الاسم الثاني في المعادلة هو التحريف المشؤوم لابن الإنسان أي برناشا كما أورده (دانيال / ٧) ولذلك فإن أحمد هو الفـرِقليط Periqlytos الوارد في إنجيل القديس يوحنا .

أما بالنسبة للروح القدس في المعادلة فهو ليس شخصاً أو روح فرد ، بل وسيلة أو قوة أو قدرة الله التي يولد بها الإنسان أو يُهدى إلى الدين ، وإلى معرفة إلهٍ واحد .

٢ — ماذا يقول الآباء النصارى الأولون عن الروح القدس ؟

(أ) يفهم هرماس (التشنيه ٥ / ٥ — ٦) أن الروح القدس يعني العنصر الإلهي في المسيح ، أي الابن الذي خُلِقَ قبل كل الأشياء ، ودون دخولٍ في نقاش عقيم سقيم ، نسأل : هل يخلط هرماس بين الروح القدس والكلمة ، وهل الروح القدس عنصر خاص قائم بذاته ويختص بالمسيح ؟ من المسلّم به أن المسيح قد خُلِقَ قبل كل الأشياء أي في البداية ، وأن الروح حسب اعتقاد هرماس ليست مشخّصة .

(ب) جوستين المسمى بالشهيد (١٠٠ — ١٦٧م) (Justin the martyr) وتيوفيلُس (Theophilus) ، يفهمان أن الروح القدس تعني أحياناً نوعاً غريباً من إظهار الكلمة وأحياناً صفة إلهية ، ولكن لا تعني شخصاً إلهياً أبداً . ويجب أن نتذكر أن هذين الأبوين والكاتبين اليونانيين في القرن الميلادي الثاني لم تكن لديهما معرفة محددة واعتقاد محدد حول الروح القدس كما كان عند الثالوثيين الذين جاءوا في القرن الرابع وما تلاه .

(ج) يقول أثينا غوراس (١١٠ — ١٨٠ م) إن الروح القدس هي فيض من الله يأتي منه ويعود إليه كأشعة الشمس (راجع : Deprecatio Pro christianis ix, x) ويقول أيرينايوس (Irenaeus) (١٣٠ — ٢٠٢) : إن الروح القدس والابن خادمان لله ، وإن الملائكة يخضعون لهما . والفرق الشاسع بين الإيمان والمفاهيم لهذين الأبوين الأولين عن الروح القدس أوضح من أن يحتاج إلى أي تعليق ، ومن الغريب أن هذين الخادمين من خدم الله حسب إعلان شخصٍ ثقةٍ قبل إيرينايوس ، يُرَفّعان بعد قرنين من ذلك إلى رتبة الإله نفسه ، ويُنَادى بهما على أنهما شخصان إلهيان ، جنباً إلى جنب مع الإله الذي خلقهما ! ! . .

(د) كان أشهر وأعلم الآباء كلهم قبل مجمع نيقية (٣٢٥م) وأعظم المدافعين النصارى هو أُوريجِن (Origen) (١٨٥ — ٢٥٤) ويعطي مؤلف الهكسبلا —

(Hexepla) شخصيةً للروح القدس ، ولكنه يجعله من مخلوقات الابن ، ولا يمكن أن يكون الابن هو الذي خلق الروح القدس في البداية ، عندما خلق الله الكلمة (١) أو — الابن .

ولم يتم تطوير النظرية المتعلقة بهذا الروح القدس بصورة كافية سنة ٣٢٥ م ، ولذلك لم يحددها أو يُعرّفها « مجمع نيقية » ، ولم يعلن عن الأقنوم الثالث للثالوث المشترك في المادة والزمن مع الأب والإبن إلا سنة ٣٨٦ في المجمع المسكوني الثاني في القسطنطينية .

٣ — الفرقليط لا تعني المُعَزّي أو المحامي في الواقع ، وهي ليست كلمة كلاسيكية بالمرة . والتهجئة للكلمة هي (Paraklytos) ومعناها في الأدبيات الكنسية « شخص يدعى للمساعدة ، محامٍ ، وسيط » . (راجع القاموس اليوناني — الفرنسي تصنيف (Alexandre) « اسكندر ») ، ولا حاجة لأن يَدّعي المرء أنه عالم يوناني ليعرف أن الكلمة اليونانية التي ترادف المعزي ليست (باراكليتوس — Paraclytos) بل (باراكالون — Paracalon) وليس لديَّ نسخةٌ من الترجمة السبعينية اليونانية ، ولكنني أتذكر جيداً أن الكلمة العبرية المرادفة لكلمة « معزي » هي « مناحيم » . وذلك في نواح إرميا (١/٢ ، ٩ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢١٢ .. الخ) وهي مترجمة إلى باراكالون (Parakalon) من الفعل باراكالو (Parakaloo) الذي يعني : « ينادي ، يدعو ، يحث ، يُعَزّى ، يرجو ، يناشد » ، ويجب أن نلاحظ أن هناك حرف علة ألفا (Alpha) طويلاً بعد الحرف الساكن (Kappa) في " Parakalon " وهو غير موجود في (Paraclytos) ، وفي العبارة « الشخص الذي يعزينا في جميع أحزاننا » تستعمل كلمة Paracalon وليس Paraclytos بمعنى (أنا أحثك أو أدعوك إلى العمل) ويمكن إيراد عدة أمثلة هنا .

وثمة كلمة يونانية أُخرى مرادفة لكلمة « مُعَزّي » وهي باريجوريتس (Parygorytys) بمعنى « أنا أعزي » .

---

(١) كلمة الله قديمة غير مخلوقة ، وأما ما يحدث عنها من كائنات فهو مخلوق ، لأنها تتعلق بها . (انظر التعليق السابق على هذا الموضوع) . [المعلق]

أما بالنسبة للمعنى الآخر لكلمة « وسيط أو محامي » الذي تتضمنه الكلمة الكنسية (Paraclete) فإنني أصر ثانية على أن باراكالون (Paracaloon) وليس باراكليتوس (Paraclytos) هي الكلمة التي تعطي معـــنى مشابهاً ، واللفظــة اليونانية المرادفة لكلمة Advocate « محامي هي Sanegorus ولكلمة « وسيط » أو « شفيـــع » هي (meditea) ميديتيا .

وفي الحلقة التالية سأذكر الصيغة اليونانية الحقيقية التي جاءت كلمة (باراكليتوس) (Paraklytos) تحريفاً لها . وبهذه المناسبة أود تصحيح خطـــأ وقع فيه عـــالم فرنسي آخر وهو أرنست رينان . وإذا لم تخنّي الذاكرة فإن السيد رينان في كتابه الشهير « حياة المسيح » يترجم (باراكليت) (Paraclete) كما جـــاء في إنجيـــل القديس يوحنا (١٤ / ١٦ – ٢٦ ، ١٥ / ٧) إلى « محامي » . ويورد الصيغة السريانية الكلدانية (Paraklit) في مقابل (Ktighra) أي المتّهـم ، من أصل (Kategorus) ، والمرادف السرياني للوسيط أو الشفيـــع هو (مسعايا misaaya) ولكن في المحاكم تستخدم Snighra من الكلمة اليونانية Sunegorus لتعـــني المحامي ، وكثيرون من السريان غيرِ الملمّين باليونانية يَعتبِرون (باراكليتا Paraqlita) هي في الواقـــع الصيغة الآرامية أو السريانية لكلمة « باراكليت » Paraclete الواردة في نسخة « البشيتا » وأنها مكونة من كلمتين : باراق Paraq بمعنى ينقذ أو يخلص من ، وكلمة (ليتا (Lita) ومعناها : الملعون ، والفكرة القائلة بأن المسيح هو « المخلِّص من لعنة القانون » وعليه فهو نفسه أيضاً « باراكليتا » Paraqlita (يوحنا ٢ / ١) هذه الفكرة ربمـــا حدَتْ بالبعض إلى الاعتقاد بأن الكلمة اليونانية إنما هي آرامية ، تماماً مثل الجملة اليونانية " Maran - Atha " تقابلها في الآرامية " Maran Athi " ومعناها : « سيدنا قادم » (يوحنا ١ – ١٦ / ٢٢) ويبدو أنها تعبير بين المؤمنين يتعلق بقدوم آخر نبي عظيم ، وعبارة " Maran - Athi " هذه ولاسيما الصيغة المعمدانية تحوي نقـــاطاً لا يجوز إغفالها لأهميتها . وكلتا الجملتين تستحقان دراسة خاصة وعرضاً قيماً ، وكلتاهما تجسدان علامات ودلائل لا تنطبق على النصرانية .

أعتقـــد أنني برهنت بقـــدرٍ كاف على أن باراكليتوس " Paraclytos " من ناحية لغوية واشتقاقية لا تتضمن معنى « المحامي أو المـُعَزِّي » . وقد وصفت هذا في

مكان آخر على أنه « بربري » لكنني أسحب هذا التعبير وأصفه بأنه تحريف . والجهل يؤدي إلى ارتكاب أخطاء عديدةٍ . ولقرونٍ متطاولةٍ كان الأوروبيون واللاتينيون الجهلة يكتبون اسم Muhamad على أنه Mahomet واسم Mushi على أنه Moses . لذلك هل من عجب أن يكون أحـد الرهبان النصارى والنساخين قـد كتب الاسم الصحيح في صيغة خاطئة وهي « باراكليتوس » " Paraklytos " وتعني « الأشهر ، أو الجدير بالحمد » ؟ ولكن الصيغة المحرفة لا تعني شيئاً إلا العار لأولئك الذين جعلوها تحمل معنى المُعَزِّي أو المحامي منذ مـدة ثمانية عشر قرناً ! ! . . .



البرقليطوس PERIQLYTOS " يعني أحمد

(وَإذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إسْرَائِيلَ إنِّي رَسُولُ اللهِ إلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) قرآن كريم « سورة الصف آية : ٦ » .

ثم « وسوف أسأل الأب وسوف يعطيكم برقليطوس آخر يبقى معكم إلى الأبد » (يوحنا ١٤ / ١٦ . . الخ) .

نلاحظ أن هناك قدراً من عدم التماسك في الكلمات المعزوّة إلى عيسى في الإنجيل الرابع ، فيظهر من القراءة كما لو كان عدة « فراقليطيين » قد جاؤوا وذهبوا وأن « فرقليطاً » آخر سوف يأتي بناءً على طلب عيسى فقط ، وتَترُكُ هذه الكلمات انطباعاً مفاده أن الرسل قد أصبحوا مسبقاً على بيّنةٍ من هذا الاسم الذي يرد في النص اليوناني « Periqlytos ».وإن كلمة « آخر » وهي صيغة تتبع اسماً أجنبياً يُعلن لأول مرة ، تبدو في غاية الغرابة ولا داعي لها البتة . ولا ريب في أن النص كان عرضةً للتلاعب والتشويه ، إذ يظهر فيه أن الأب سيرسل « البرقليط » عندما يطلب عيسى ذلك ، وإلا فإن « البرقليط » لن يأتي قط ؟ . كذلك فإن كلمة « Ask » تبدو سطحية وتبين بصورة غير عادلة لمسة من الوقاحة من جانب الرسول الناصري . وإذا أردنا أن نجد المعنى الحقيقي لهذه الكلمات فعلينا تصحيح النص ووضع الكلمات المسروقة أو المُحرّفة على الصورة التالية :

« وسوف أذهب إلى الآب . وسيرسل لكم رسولاً سيكون اسمه « البرقليطوس » لكي يبقى معكم إلى الأبد » . وبالكلمات التي أُضيفت والتي تحتها خط ، يعود تواضع عيسى الذي سُلِبَ منه ، كما نتعرف على طبيعة « البرقليطوس » .

وسبق أن رأينا أن « البرقليط » ليس بالروح القدس ، أي أنه ليس شخصاً إلهياً ، ولا هو جبريل ، أو أي ملاك آخر . ويبقى الآن أن نثبت أن البرقليط أو « البرقليطوس » لا يمكن أن يكون معزياً ولا محامياً أو وسيطاً عن الله والبشر :

(١) ان « البرقليط » ليس هو « المعزّي » ولا « الوسيط » ولقد أظهرنا بوضوح استحالة العثور على معنى « العزاء » أو « الوساطة » . والمسيح لم يستخدم كلمة " Paraqalon " « باراكالون » ، يضاف إلى ذلك أنه من ناحية دينية وأخلاقية ، فإن فكرة التعزية أو الوساطة ليست مقبولة :

أ - إن الاعتقاد بأن موت عيسى على الصليب قد فدى المؤمنين من لعنة الخطيئة الأصلية ، وأن روحه وبركته وحضوره في القربان المقدس سيبقى معهم إلى الأبد ؛ هذا الاعتقاد تركهم دون حاجة إلى عـزاء أو إلى مجيء معزٍّ . ومن ناحية أُخرى فإنهم إذا كانوا بحاجة إلى معزٍّ كهذا فإن جميع الادعاءات والمزاعم النصرانية حول تضحية المسيح وتحمله آلام الصلب ، تتهافت وتصبح باطلة . والواقع أن لغـة الأناجيل والرسائل تدل بوضوح على أن العَوْدَ الثاني لعيسى فوق السحاب كان وشيكاً . (متى ١٦ / ٢٨ ، مرقص ٩ / ١ ، لوقا ٩ / ٢٧ ، يوحنا ٢ / ١٨ ، طماوس ٢ / ١ ، التّساليون ٢ / ٣ .. الخ) .

ب - لا يمكن للعزاء أن يعوض الخسارة ، إذ أن تعزية رجل فقد بصره أو ثروته أو ابنه أو مركزه لا يمكن أن تعيد أياً من هذه المفقودات ، والوعد بأن الله سيرسل معزياً بعد أن يكون عيسى قد ذهب ، يدل على انهيارٍ كاملٍ لكافة الآمال بانتصار مملكة الله . والوعد بِمُعَزٍّ يدل على الندب والنواح ، وبالطبع سيدفع الرسل إلى حالة من خيبة الأمل إن لم تَـكن حالة من اليأس ، فهم ليسوا بحاجة إلى مُعَزٍّ في محنتهم وآلامهم بل إلى محاربٍ ظافر ليسحق الشيطان وقوته ، ويضع حداً لمتاعبهم واضطهادهم .

ج - إن فكرة وسيط بين الله والناس هي أكثر استحالة حتى من فكرة المُعَزِّي ؛ إذ لا يوجد وسيط مطلق بين الخالق والمخلوق . ووسيطنا أو شفيعنا المطلق هو وحدانية الله فقط . إن المسيح كان ينصح بالصلاة إلى الله سراً والدخول في مقصوراتهم وإقفال الأبواب عليهم عند أداء الصلاة - لأنه تحت هذه الظروف فقط يستمع « أبوهم الذي في السماء » لصلواتهم ويمنحهم بركته وغَوْثَه - فإن المسيح لم يستطع أن يعـدهم بوسيط أو شفيع ، فكيف نستطيع التوفيق بين هذه المتناقضات ؟ ! ؟ ! . . .

د – جميع المؤمنين يدعون ويسترحمون بعضهم لبعض في صلواتهم كما يفعل الأنبياء والملائكة الشيء ذاته ، ومن واجبنا أن نستجدي رحمة الله وعفوه وعونه لنـــا وللآخرين أيضاً ، ولكن الله ليس مضطـراً لقبول شفاعة أحد وإنما تكون بإذنه تعالى وحسب إرادته هو . فإذا قبـــل الله شفاعة عبده المبارك « محمد » فإنه يكـون بالإمكان تحويل جميع الرجال والنساء إلى الدين الإسلامي .

وسأكون شاكراً بحق للشخص الذي نلت العفو والنجاة بواسطته ، لكنني سوف أخاف دائماً من القاضي أو الطاغية الذي سلمني إلى قبضة الجلاد . ما أغزر علم هؤلاء النصارى عندما يعتقدون أن عيسى يشفع لهم وهو على يد أبيه اليُمْنَى ، ويعتقدون في الوقت عينه بشفيع آخر ، أقل منه ، يجلس على عرش الله تعالى ! ؟ ! ويمنع القرآن منعاً باتاً الاتكال على الشفيع(١) . بالطبع ليست لدينا معرفة أكيدة ولكن من الممكن والمفهوم أن بعض الملائكة وأرواح الأنبياء والصدّيقين قادرون بإذن من الله على تقديم العون والإرشاد لأولئك الذين تحت حمايتهم . وقد تكون فكرة محـام أمام محكمة الله يدافع عن قضية موكليه فكرة جد مدهشة . ولكنها خاطئة لأن الله ليس قاضياً بشرياً عرضة للانفعالات والجهل والتحيز وما إلى ذلك . إن المـُسلمين أو المؤمنين لا يحتاجون إلا إلى التعليم والتدريب الديني . ولله معـرفة بأعمـــال البشر وقلوبهم ، معرفة لا تقاس بها معرفة الملائكة والأنبياء ، وبالتالي ليس ثمة من حاجة إلى وسطاء بين الذات الإلهية ومخلوقاتها .

هـ – ينبثق الإيمان بالوسطاء أو الشفعاء من الإيمان بالتضحيات وحرق القرابين والرهبنة والخرافات التي لا حصر لها . وهذا الاعتقاد يقود البشر إلى عبادة الأضرحة

---

(١) أ – قال تعالى : (مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ). (سورة يونس : ٣)
ب– (قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) .
(سورة الزمر : ٤٤) .
ج – (لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ) . (سورة الانعام : ٧٠)
د – (لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمنِ عَهْـــداً) .
(سورة مريم الآية : ٨٧) . [المترجم]

وصور أو تماثيل القديسيين والشهداء ، كما يساعد على زيادة نفوذ القديس والراهب وسيطرتهما ، ويبقى الناس في حالة جهل للأشياء الإلهية . إن اللجوء إلى الوسيط الميت ، ليقف بمثابة السحابة الكثيفة تعكر صفاء الجو الروحـــي ، وتحجب المرء عن ربه . إن هذا الاعتقاد يؤدي بالناس – الذين يزعمون أنهم مبشرون بالدين لهداية الآخرين – إلى الاندفاع من أجل المال ، يجمعون منه مبالغ ضخمة من أجل تكوين إرساليات قوية غنية ، وصروح فخمة ، ولكنّ هؤلاء المبشرين ، في حقيقة أمرهم ، جواسيس ، كلٌّ لحكومته . وهم السبب الحقيقي للمصائب التي حلت بساحة الأرمن واليونان والآشوريين والكلدان في تركيا وإيران ، بما وضعوه من التعليم الخائن والثوري الذي تقدمه جميع الإرساليات الأجنبية في الشرق . والواقع أن الاعتقاد بالوسطاء كان دائماً مجالاً لسوء الاستعمال والتعصب والاضطهاد والجهل وغيره من الشرور الأخرى الكثيرة .

وبعد أن أثبتنا أن البرقليطوس المذكور في إنجيل القديس يوحنا لا يعني ولا يمكن أن يعني « المعزّي أو المحامي أو أي شيء البتة » وأن الكلمة صورة مشوهة عن كلمة أُخرى هي برقليطس Periqlytos ، بعد أن فعلنا ذلك نرجو أن نتـــابع مسيرتنا في مناقشة هذا الأمر وإبراز أهميته الحقيقية .

(٢) إن كلمة برقليطوس تعني من الناحية اللغوية البحتة : « الأمجـــد والأشهر والمستحق للمديح » ، وإنني أتناول مرجعاً هو قاموس الاسكندر الإغريقي – الافرنسي حيث يفسر كلمة « Periqleitos » فيقـــول (١) :

"Qu'on peut entendre de tous les côtés; qu'il est facile à entendre. Très célèbre," etc.;" = Periqleitos, très célèbre, illustre, glorieux; = Periqleys, trés célèbre, illustre, glorieux," from = Kleos, glorire, renommée, célébrité."

هذا الاسم المركب مكون من المقطع الأول « peri, » والمقطع الأخير « Kleotis, » ، وهذا مشتق من التمجيد أو الثنـــاء . والاسم الذي أكتبه بالحروف الانجليزية وهو : « Periqleitos » أو « Periqlytos » يعني بالضبط ما يعنيـــه اسم أحمد باللغة العربية

---

(١) « الذي هو معروف للجميع والذي يُسمع ذكره بسهولة وهو مشهور جداً ولامع جداً » . [المترجم]

أي المشهور والمُمَجّد . والصعوبة الوحيدة التي ينبغي حلها والتغلب عليها هي اكتشاف الاسم السامي الأصلي الذي استخدمه عيسى المسيح إما بالعبرية أو الآرامية :

أ – إن نسخة البشيتا السريانية ، بينما هي تحتوي على كلمة « براقليطا » إلا أنها لا تعطي لها معنى ، حتى في معرض تفسير المفردات . ولكن الترجمة المعتمدة لدى الكنيسة الكاثوليكية واسمها: فالجيت " Vulgate " ترجم الاسم إلى مَعَزٍّ . وإذا لم أكن مخطئاً فإن الصيغة الآرامية لابد أنها كانت « مْحَامْدَا » أو « حَميدا » وذلك لتتناسب مع كلمة « محمد » العربية أو « أحمد » والبرقليط اليونانية .

وإن تفسير الكلمة اليونانية بمعنى التعزية لا يعني ضمناً أن « البرقليط » نفسه هو المُعَزِّي ، ولكن يعني الإيمان والأمل في الوعد بمجيئه المستقبلي لتعزية المسيحيين الأوائل . وإن التوقع بأن عيسى سينزل ثانية محفوفاً بالمجد ، قبل أن يكون الكثير من مستمعيه قد طواهم الموت ، سبّب خيبة أمل لهم وركّز جميع آمالهم في مجيء « الفرقليط » .

ب – إن التنزيل القرآني القائل بأن عيسى بن مريم أعلن لبني إسرائيل أنه كان « مُبَشِّراً بِرَسولٍ يأتي مِنْ بَعْدي اسْمُهُ أَحْمَدُ » واحدٌ من أقوى البراهين على أنّ محمداً كان حقيقة نبياً وأن القرآن تنزيل إلهي فعلاً ؛ إذ لم يكن في وسعه أبداً أن يعرف أن كلمة البرقليط كانت تعني أحمد إلا من خلال الوحي والتنزيل الإلهي . وحجة القرآن قاطعة ونهائية ؛ لأن الدلالة الحرفية للاسم اليوناني تعادل بالدقة ودون شك كلمتي « أحمد ، ومحمد » .

والواقع أن الملاك جبريل أو الروح القدس يبدو أنه استطاع تمييز صيغة أفعل التفضيل من غيرها مما يدل بدقة أن الكلمتين : إحداهما « أحمد » والأخرى « محمد » .

ومن المدهش أن هذا الاسم الفريد ، الذي لم يُعطَ لأحدٍ من قبل ، كان محجوزاً بصورةٍ معجزةٍ لأشهر رسل الله وأجدرهم بالثناء . ونحن لا نجد أبداً أي يوناني كان يحمل اسم برقليطس ولا أي عربي كان يحمل اسم أحمد ، صحيح أنه كان هناك أثينيٌّ مشهور اسمه بركليس Periqles وهي تعني الشهير .. إلخ ، ولكنها لا تعني الأشهر .

ج – من الواضح تماماً من وصف الإنجيل الرابع أن برقليط اسم شخص محدد المعالم وروح مقدسة مخلوقة ، ستأتي وتسكن جسماً بشرياً ، لتؤدي العمل الهائل المحدد لها من قِبَل الله ، ذلك العمل الذي لم يقم به أو ينجزه قط أحد من الأنبياء بما فيهم موسى وعيسى وغيرهما .

نحن بالطبع لا ننكر أن تلاميذ عيسى قد تلقوا روح الله (١) ، وأن الذين تحولوا صدقاً إلى دين عيسى كانوا مقدسين بالروح القدس ، وأن هناك العديد من النصارى الموحدين عاشوا عيشة أولياء وحياة استقامة ، وفي يوم عيد العنصرة أي بعد صعود عيسى المسيح بعشرة أيام ، نزلت روح الله على التلاميذ والمؤمنين الآخرين البالغ عددهم مائة وعشرين شخصاً على شكل ألسنة من اللهيب (أعمال الرسل ٢) وهذا العدد الذي تلقى الروح القدس على مائة وعشرين لساناً من النار قد ازداد إلى ثلاثة آلاف نفس كانوا قد تعمدوا ولكن لم تنزل عليهم ألسنة النار . بالتأكيد لا يمكن قسمة روح واحدة إلى ١٢٠ فرداً ، ويمكننا أن نفهم من الروح القدس – ما لم توصف بصورة محددة كشخصية – أنها قوة الله ونعمته وعطاؤه وعمله وإلهامه . وكان عيسى قد وُعِد هذه الموهبة والقدرة السماوية على التقديس والتنوير والتقوية والتعليم لأتباعه . ولكن هذه الروح كانت مختلفة تماماً عن « البرقليط » الذي استطاع وحده إنجاز العمل العظيم الذي لم يكن لعيسى أو للرسل من بعده أن يُخوَّلوا بإتمامه كما سنرى فيما بعد .

د – إن المسيحيين الأوائل في القرن الأول والثاني ، كانوا أكثر اعتماداً على التقاليد والروايات ، منهم على الكتابات المتعلقة بالدين الجديد ، « وبابياس » وآخرون يعتبرون من هذه الفئة . وحتى في أيام الرسل أدى العديد من النحل ، والمسيحيين الكذَبَة ، والدجالين والمعلمين المزيفين ، إلى إحداث انشقاقات في الكنيسة (يوحنا I ٢ / ١٨ – ٢٦) ، (التشاليون ٢ / ١ – ١٢ ، بطرس ا ، ٢ ، ٣ / ١ ، يوحنا ٧ – ١٣ طيماوس II ٣ / ١ – ١٣ . . إلخ) ويُنصَحُ المؤمنون بالالتزام بالتقاليد أي تعاليم

(١) في هذا التعبير ما يشي بعقيدة الحلول والاتحاد . وهي باطلة في الإسلام . وما كان للمؤلف أن ينسبها إلى المسلمين بقوله « نحن » . ولو نسبها إلى النصارى لما احتاج الأمر إلى تعليق . [المعلق]

الرسل الشفوية . أما النِحَل « المتزندقة » مثل الغنوصميين والأبوليناريين والدوكيتيين Docetac وغيرهم ، فيبدو أنهــم لا يؤمنون بالأساطير والخرافات والآراء المبالغ فيها عن تضحية المسيح وفدائه ، كما جاء في العديد من الكتابات الخرافية التي تحدث عنها لوقا (١/١ – ٤) ، وقد اتخذ رجل – نسيت اسمه من زعماء إحدى الطوائف ، اتخذ اسم البرقليط ، وادعى أنه النبي « الأحمد » الذي تنبأ به عيسى وصار له أتباع كثيرون . ولو كان هناك إنجيل حقيقي مصدق من عيسى أو من جميع الرسل ، لمــا كانت هناك نحل متعددة وكلها تعارض محتويات الكتب الموجودة في داخل العهد الجديد أو خارجه . ونستطيع أن نستنتج باطمئنان من عمل البرقليط المزيف أن النصارى الأوائل اعتبروا « روح الحقيقة » الموعودة شخصاً عادياً وآخر الأنبياء من عند الله .

(٣) لا يوجد أدنى شك أن المقصود « بالبرقليط » هو محمد أي أحمد . فالاسمان لهما نفس الدلالة بالضبط ، واحد باليونانية والآخر بالعربية ، لهما معنى واحد وهو : « الأشهر أو الأكثر حمداً » . كما أن كلمة « Pneuma » وروح ، تعنيان نفس المعنى وهو « روح » باللغتين ، ورأينا أن ترجمة الكلمة إلى « مُعزٍّ » أو « محام » مستحيلة وخاطئة . والصيغة المركبة لبراقلون « Paraqalon » مشتقة من الفعل المؤلف من « Para - qulo » بينما « periqlyte » مشتقة من « Peri—qluo » . والفرق واضح كل الوضوح . إذن فلنفحص علامات الـ « Periqlyte » التي لا توجد إلا في أحمد – محمد :

أ – محمد فقط هو الذي جلّى كل الحقيقة عن الله وعن وحدانيته ودينه ، وصحح الافتراءات والأكاذيب التي كانت مدونة ومعتقداً بها ضد ذاته سبحانه وضد الكثيرين من عباده الصالحين ، ويقال إن عيسى صرّح عن برقليط بأنه « روح الحقيقة » التي سوف تُدلي بالشهادة عن الطبيعة الحقيقية لعيسى ورسالته (يوحنا ١٤ / ١٧ ، ٢٥ / ٢٦) ويتحدث عيسى في خطبه وأقواله عن الوجود السابق لروحه هو (يوحنا ٨ / ٥٨ و ١٧ / ٥ . . الخ) . وفي إنجيل برنابا يقال إن عيسى تحدث مراراً عن مجــد روح « محمد » التي رآها وعن بهاء هذه الروح ، ولا شك في أن روحَ آخر الرسل قد خُلقت قبل آدم بأمد طويل . ولذلك فإن عيسى في معرض حديثه عن محمد يعلن عنه

ويصفه بأنه روح « الحقيقة » ، وكانت « روح الحقيقة » هذه هي التي وبخت النصارى على تقسيم وحدة الله إلى ثالوث من الأقانيم أو الأشخاص ، وكذلك على رفع درجة عيسى إلى مرتبة إلـه وابن إلـه ، وعلى اختراعهم جميع ضروب الأساطير والبدع. وكانت « روح الحقيقة » هذه هي التي فضحت أضاليل كل من اليهود والنصارى في تزييف كتبهم المقدسة ، ونددت باليهود بسبب افتراءاتهم ضد عذرية و طهارة مريم عليها السلام وضد مولد ابنها عيسى . وكانت « روح الحقيقة » هذه هي التي برهنت على حق البكورية لإسماعيل وبراءةِ لوط وسليمان وكثيرين من الأنبياء القدامى الآخرين ، وطهرت أسماءهم من الدنس والعيب الذي ألحقه المزيفون اليهود بها . وكانت « روح الحقيقة » هذه هي التي شهدت بحقيقة عيسى كنبي وإنسان وعبدٍ من عباد الله ، وجعلت من المستحيل بتاتاً على المسلمين أن يصيروا وثنيين وسحرة ومؤمنين بأكثر من إلـه واحد ألا وهو « الله » .

ب - من العلامات الرئيسية « للبرقليط » « روح الحقيقة » عنـدما يأتي على صورة ابن الإنسان - أحمد - أنه سوف « يبكّت العالم على الخطيئة » (يوحنا ١٤ / ٩٢٨) . ولا يوجد عبد آخر من عباد الله ، سواء كان ملكاً مثل داود وسليمان ، أو نبياً مثل إبراهيم وموسى ، بلغ بهذا التبكيت إلى مداه بتصميم وحماس وشجاعة ، كما فعل محمد . فكل خرق للشريعة أو القانون إثم وخطيئة . ولكن الوثنية هي أُم الخطايا وأصلها . فنحن نأثم في حق الله إذا أحببنا شيئاً أكثر من حبنا إياه ، ولكن عبادة أي شخص أو كائن آخر إلى جانب الله ، تعتبر كفراً وهي شر واطّراح كامل للخير . إن جميع العاملين لله قاموا بإنزال العقوبة على مرتكبي الخطايا من جيرانهم وشعوبهم ، ولكن لم يفعلوا ذلك على نطاق العالم كله كما فعل محمد ، إذ لم يقتصر عمله فقط على اقتلاع الوثنية من شبه الجزيرة العربية أثناء حياته ، بل قام بإرسال مبعوثين إلى كسرى أبرويز وهرقل ، وهما حاكمان لأعظم إمبراطوريتين (فارس وروما) وإلى ملك أثيوبيا ، وحاكم مصر ، والعديد من الملوك والأمراء الآخرين ، يدعوهم إلى اعتناق دين الإسلام ونبذ الكفر والعقائد الباطلة . وَبَدأ هذا التبكيت من محمد بتبليغ كلمة الله كما تلقاها ، أي بترتيل آيات من القرآن ، ثم بالوعظ والتعليم وممارسة الدين الحقيقي .

ولكن عندما عارضته قوى الظلام والكفر بالسلاح ، استل سيفه وعاقب العدو الكافر . وكان ذلك تنفيذاً لأمر الله (دانيال / ٧) . وقد منح الله لمحمد القــوة والسلطان لتأسيس مملكة الله ، وليصبح أول أميرٍ وقائدٍ عامٍّ لهـا تحت سلطة « ملك الملوك ورب الأرباب » .

ج ـ والخاصيـة المميزة الأخرى لمنجزات البارقليط ـ أحمد ـ هي أنه « سوف يوبخ عالمَ الاستقامة والعدالة » وتأويل « الاستقامة » بما نُسب إلى عيسى من قوله : « لأنني ذاهب إلى أبي » (يوحنا ١٦ / ١٠) هو تأويل غامض مبهم . إذ يجعل عـودة عيسى إلى ربه على أنها أحد الأسباب لتأنيب العالم بواسطة « البرقليط » ، لمـــاذا ؟ ومن الذى أنّب العالم بسبب ذلك ؟ لقد اعتقد اليهــود أنهم صلبوا عيسى وقتلوه ولم يؤمنوا أنه رُفع وأُخِذَ إلى السماء . وكان محمد هو الذي عاقبهم ووبخهم بشدة بسبب كفرهم هذا .

وقد وقع هذا التقريع نفسه على النصارى الذين اعتقدوا ومازالوا يعتقدون أنه قد صُلبَ وماتَ على الصليب ، ويتصورون أنه إلــه أو ابن الله . وقد أجاب القرآن هؤلاء : (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ، مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً ، بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ ، وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً) « سورة النساء ١٥٧ ، ١٥٨ » . وقد أنكر كثيرون من المؤمنين بعيسى في بداية النصرانية ، أن المسيح نفسه هو الذي رفع على الصليب ، وأصروا على أن أحد أتباعه « يهوذا الاسخريوطي » أو شخصًا آخر يشبهه تماماً هو الذي أُلقي القبض عليه وصلب بدلاً منه . وقد اعتقد بنفس هذا الرأي الكورنثيون والبازيليون والقربوقراطيون وغيرهم كثيرون . وقد ناقشتُ بصورة مطــولة مسألة الصلب هذه في كتابي الذي عنوانه « الإنجيل والصليب » والذي صدر منه مجلد واحد فقط بالتركية قبل نشوب الحرب العالمية الأولى . وسأكرس حلقة أُخرى لهذا الموضوع ، ولذلك فالانصاف الذي جاء من أحمد لعيسى ، كان الإعلان القطعي أنه روح من الله ، وأنه لم يُصلب أو يُقتل ، وأنه كان بشراً ، ولكنه رسول كريم ومحبوب من الله . وهذا ما قصده عيسى بالعدالة حول شخصهِ ورسالتهِ ورفعهِ إلى السماء ، وهذا هو ما حققه رسول الله فعلاً .

د ــ أهم علامة « للبرقليط » هي أنه سوف يؤنب العالم لأجل الدينونة « لأن رئيس هـذا العـالم قد دين » (يوحنا ١٦ / ١١) . وكان مَلِك هذا العالم أو رئيسه هو الشيطان (يوحنا ١٢ / ٣١ ، ١٤ / ٣٠) لأن العـالم كان خاضعاً له . ويجب أن ألفت انتباهَ قرائي الأكارم إلىٰ الإصحاح السابعْ من كتاب دانيال المكتوب باللهجة الآرامية أو البابلية ، فهناك يوضح كيف أن العروش (كُرْسَوان) والحكم أو الدينونة (دينا) قد نُصِبتْ وأن الكتب (سفرين) قد فُتحت ، (وفي اللغة العربية نجد أيضاً كلمة « دين » كما هي في الآرامية « دينا » (وتعني : الحكم أو الدينونة ؛ ولكنها تستعمل بشكل عام في معنىٰ الدين) . وإن استعمال القرآن لكلمة (دينا) الواردة في سفر دانيال كتعبير عن الحكم والدين أمر في غاية الأهمية . وفي رأيي المتواضع فإن هذا دليل وإشارة مباشرة للصدق الذي أنزله الروح القدس أو جبريل على دانيال وعيسى ومحمد . ولم يكن باستطاعة محمد أن يختلق هذا أو يلفقه حتى ولو كان فيلسوفاً ضليعاً كأرسطو . والحكم الذي جرى وصفه بكل روعته وجلاله ، كان لإدانة الشيطان المتشكل بصورة الوحش الرابع المخيف ، وذلك على يد الحاكم الأكبر وهو الله السرمدي . وعندئذ ظهر شخص مثل « ابن الإنسان » Kbar - inish «كبارينش » أو Barnasha « برناشا » وقُدِّم لله تعالى ، وأُعطي القوة والشرف والملك إلى الأبد ، وأُسندت له مهمة قتل الوحش وإقامة مملكة لعباد الله تعالى من الأبرار الطيبين .

ولم تُسنَد مهمة القضاء على الوحش إلى عيسى ؛ لأنه كان عازفاً عن الشؤون السياسية ، وقد دفع الجزية لقيصر ، وهرب عندما أرادوا تتويجه ملكاً . وهو يعلن بوضوح أن سيد هذا العالم قادم ، لأن « البرقليط » سوف يجتثّ عبادة الأوثان البغيضة . وتَمَّ ذلك كله على يد محمد في سنوات قليلة . والإسلامُ مملكة الله وحكمه ، وهو الدين ، وله كتاب تشريع وهو القــرآن الكريم . والله هو الحَكَمُ الأعظم والملك الأعلى ، ومحمد هو بطله الظافر ذو البركة الأبدية والمجــد .

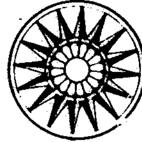
هـ ــ والعلامة الأخيرة وليست أقل العلامات قيمة للبرقليط هي أنه : « لا يتكلمّ من عنده ، بل يتكلم بكل ما يسمع ، ويخبركم بما يأتي » (يوحنا ١٥ / ١٣) . ولا يوجد شيء أو كلمة أو تعليق من محمد وأصحابه الطاهرين ضمن نصوص القرآن

الكريم ، فكل محتوياته من كلام الله المنزل ؛ إذ كان محمد ينطق بكلمة الله كما سمعها من جبريل ، وكانت تدوّن على يد كتبة الوحي الأمناء . وكلمات الرسول وأقواله وتعاليمه على قداستها ورفعة قدرها ليست من كلام الله ، ولذلك فهي تدعى بالأحاديث .

« إذن أليس هو الفرقليط الحقيقي حتّى بهذا الوصف ؟ وهل باستطاعتكم أن تُبيّنوا شخصاً آخر إلى جانب أحمد لديه كل هذه الصفات المادية والمعنوية والعملية ، وتلك العلامات والمميزات التي للفرقليط ؟ إنكم لا تستطيعون ! . .

أعتقد أنني قلت ما يكفي عن الفرقليط . وسأختم حلقتي هذه بآية كريمة من القرآن : (إنْ أَتّبِـعُ إلّا مَا يُوحَى إلَيَّ وَمَا أنَا إلّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) . صدق الله العظيم .

(سورة الأحقاف آية : ٩)



ابن الإنسان - من هو ؟

يقـــدم لنـــا القرآن الكريم عيسى المسيح على أنه ابن مريم . كما أن الأناجيل المقدسة تقدمه لنا على أنه ابن مريم . ولكن ذلك الإنجيل الذي كتب على الصحائف البيض لقلب عيسى ، ونقل إلى تلاميذه وأتباعه شفهياً ، فإنه لسوء الحظ سرعان ما أصابه التحريف بكثير من الخرافات والأساطير . فأصبح ابن مريم ابن يوسف وله إخوة وأخوات(١) ثم أصبح ابن داود (٢) ، ثم ابن الإنسان (٣) ، ثم ابن الله (٤) ، ثم الإبن فقط(٥) ، ثم المسيح(٦) ، ثم الحَمَل (٧) .

وذات يوم منـــذ سنوات عـــدة زرت « قاعة إكستر "Exeter Hall" » في لندن ، وكنت قسيساً كاثوليكياً آنئذ ، وأُخِذْتُ طوعاً أو كرهاً ، إلى القاعة ، حيث

---

(١) متى ١٣ / ٥٥ ، ٥٦ مرقص ٦ / ٣ ، ٣ / ٣١ ، لوقا ٢ / ٤٨ ، ٨ / ٩ — ٢١ يوحنا ٢ / ١٢ ، ٧ / ٣ — ٥ الأعمال ١ / ١٤ الكورنتيين ٩ / ٥ ، الجليل ١٩/١ ، يهودا ١/ .

(٢) متى ٢٢ / ٤٤ ، مرقص ١٢ / ٣٥ ، لوقا ٢٠ / ٤١ ، متى ٢٢ / ٣٠ ، ٩ / ٢٧ ، ٢١ / ٩ ، الأعمال ١٣ / ٢٢ ، ٢٣ ، الرؤيا ٥ / ٥ .

(٣) تكررت هذه التسمية ثلاثاً وثمانين مرة تقريباً في خطب عيسى .

(٤) متى ١٤ / ٢٣ ، ١٦ / ١٦ ، يوحنا ١١ / ٢٧ ، الأعمال ٩ / ٢٠ ، يوحنا ٤ / ١٥ .

(٥) يوحنا ٥ / ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ . . الخ وفي الصحيفة المعمدانية متى ٨ / ١٩ ، يوحنا ١ / ٣٤ . . الخ .

(٦) متى ١٦ / ١٦ وتكرر ذلك في الرسائل .

(٧) يوحنا ١ / ٢٩ ، ٣٦ وكذلك يتكرر في سفر الرؤيا . [المؤلف]

بدأ طبيب شاب في الوعظ في اجتماع لـجمعية الشبان المسيحيين . وقال هذا الطبيب : « أكرر ما سبق أنْ قُلتُه مراراً وهو أن عيسى يجب أن يكوْن أحد اثنين : إما هو ما يدعيه في الإنجيل ، أو أن يكون أكبرَ أفـّاقٍ ودجال شهده العالم ! ولم أنسَ قط هذا القول الجازم . والذي أراد قوله هو أن عيسى إمّا أن يكون ابن الله أو أكبر دجـّال . فإذا ما قـَبـِلـْتَ الفرضيةَ الأولى فأنت مسيحي وتثليثي ، وإذا قـَبـِلـْتَ الفرضية الثانية فأنت يهودي كافر . أما نحن الذين لا نقبل أياً منهما فمسلمون موحـّدون بالطـّبع .

ونحن المسلمين لا نستطيع قبول أي من هذين النعتين اللذين أُعطيا لعيسى المسيح ، بالمعنى الذي تحدده الكنائس وكتبها المقدسة غير الموثوقة لهاتين التسميتين ، فهو ليس وحده « ابن الله » وليس وحده « ابن الإنسان » لأنه إذا سمح لنا بأن ندعو الله آباً ، فإن كل نبي ومؤمن مستقيم وليس عيسى فقط سيكون « ابناً لله » حتماً وبنفس الطريقة. فإذا كان عيسى؛"ابن يوسف النجار" ، وكان له أربعة إخوة وعدة أخوات متزوجات كما تدّعي الأناجيل ؛ إذاً لمـــاذا يكون وحده يحمل هذا اللقب الغريب « ابن الإنسان » وهو ينطبق على كل بشر ؟ ؟ . .

ويبدو أن هؤلاء القسس والرعاة واللاهوتيين والمدافعين النصارى ، لهم منطقهم الغريـب الخاص بهم في الجدل ، ولديهم ميـل خاص للأمور الغامضة والسخيفة . ومنطقهم لا يعرف التوسط أو تمييز الاصطلاحات أو الفكرة المحددة للألقاب والتسميات التي يستخدمونها ، ولديهم ذوق يحسدون عليه في الميل إلى الأقوال المتناقضة التي لا يمكن التوفيق بينها ، والتي لا يستطيع أحد غيرهم ابتلاعها كابتلاع البيض المسلوق ، فهُم قادرون على الاعتقاد دون تردد أن مريم كانت عذراء وزوجة في وقت معاً ، وأن يوسف كان القرين والزوج ، وأن جيمس (يعقوب) ويوسي وسمعان ويهودا كانوا أبناء عمومة وإخواناً لعيسى في الوقت عينه ، وأن عيسى إلـــه كامل وبشر كامل ؛ وأن ابن الله وابن الإنسان والحمَل وابن داود كلها تشير إلى نفس الشخص ، وهم يتغذون بتعاليم متنوعة تمثلها هذه الاصطلاحات ويتقبلونها بشهية كشهيتهم للبيض ولحم الخنزير لوجبة الإفطار . ولا يتوقفون للتفكير والتأمل في الشيء الذي يعبدونه ؛ وهم يعبدون المصلوب، ويعبدون الله تعالى ، كما لو كانوا يقبّلون الخنجر الدامي لقاتل أخيهم في حضرة أبيهم !

ولا اعتقد أنه يوجد مسيحي واحد في كل عشرة ملايين ، لديه فعلاً فكرة دقيقة أو معرفة محددة عن أصل الاصطلاح « ابن الإنسان » ودلالته الحقيقية ! ! . . وجميع الكنائس وكافة الشارحين فيها دون استثناء سيقولون لك إن « ابن الله » قد اتخذ اسم ابن الإنسان أو "بارناشا" بدافعٍ من التواضع ولين الجانب ، ولم يعرفوا قــطّ أن أسفار الرؤيا اليهودية التي آمن بها عيسى وتلاميذه إيماناً تاماً لم تتنبأ بمجيء ابن الإنسان الذي سيكون لَيِّن الجانب ، متواضعاً ، وليس لديه مكان يضع فيه رأسه ، ويُسلَّم لأيدي الأشرار ويُقتَل ، ولكنها تتنبأ برجل قوي ذي عزيمة وقدرة خارقة على تدمير وتشتيت الطيور المفترسة والوحوش الشرسة التي كانت تفتك بخرافِهِ وحُمْلانه . وإن اليهود الذين سمعوا عيسى يتكلم عن ابن الإنسان كانوا يعرفون حق المعرفة إلى من كان يشير ، ولم يكن اسم "بارناشا أو ابن الإنسان" من مخترعات عيسى بل استعاره من أسفار الرؤيا اليهودية مثل سفر إينوخ ، والأسفار السبلينية ، ورفع موسى ، وسفر دانيال ، . . الخ . ولنحاول مناقشة أصل هذا اللقب " بارناشا أو ابن الإنسان " :

١ — إن ابنَ الإنسان هو آخر الأنبياء الذي أقام مملكة الله على أنقاض العبودية والاضطهادات التي كانت تُمارس تحت إشراف سلطان الشيطان « الوثنية » . ولَقَبُ بارناشا هو تعبير رمزي لتمييز المخلِّص عن شعب الله الذين يُمثَّلون على أنهم « خِراف » ، بينما تمثَّل الأمم الكافرة الأخرى في العالم على أنها أصناف من الطيور الجارحة ، والوحوش الشرسة ، والحيوانات الدنسة ، ونلاحظ أن النبي حزقيال يخاطبه الله دائماً على أنه « ابن آدم » أي ابن الإنسان أو آدم بمعنى راعي خراف إسرائيل . ولهذا النبي أيضاً بعض الرؤى المتفرقة في كتابه . وفي أول رؤيا له يبـدأ كتابه التنبؤي بها أنه يُشاهد بجانب العرش النوراني لله تعالى صورةً لابن الإنسان ، وابن الإنسان هذا الذي يتكرر ذكره على أنه دائماً في حضرة الله وفوق الملائكة ليس حزقيال نفسه بل إنه النبي ابن الإنسان أو آخر الأنبياء الذي أُوكلَ إليهِ إنقاذ شعب الله من أيدي الكفرة ، هنا على هذه الأرض وليس في مكان آخر !

(أ) « ابن الإنسان » حسب رؤيا إينوخ (أو خانوخ) :

لا ريب أن عيسى كان على معرفة تامة برؤيا إينوخ والتي يعتقد أنها كتبت على

يد البطريرك السابع بعد آدم ؛ لأن يهوذا « أخا يعقوب » و « خادم عيسى المسيح » أي : أخو عيسى ، يُعتقد أن إينوخ كان المؤلف الحقيقي للكتاب الذي يحمل اسمه (١) ، وهناك بعض النتف المبعثرة لهذه الرؤيا محفوظة في مقتبسات للكُتَّاب المسيحيين الأوائل، وقد ضاع السفر قبل زمن « فوتيوس » . ولم يظهر هذا السفر الهام إلا في أوائل القرن الماضي وذلك في لائحة الأسفار التي تخص الكنيسة الحبشية . وقام الدكتور دِلْمَان « Dillmann » بترجمتها من الأثيوبية إلى الألمانية مع ملاحظـــات وتفسيرات(٢) ، ويقسم الكتاب إلى خمسة أجزاء أو كتب ويحتوي جميعه على (١١٠) فصول أو إصحاحات مختلفة الطول . ويصف المؤلف سقوط الملائكة وتجارتهم غير المشروعة ببنات البشر اللائي يلدن نتيجة ذلك سلالات من العمالقة ، يخترعون جميع ضروب الحيل والمعرفة الضارة . ثم تزداد الرذيلة والشر لدرجة أن الله سبحانه وتعالى يعاقبهم جميعاً بالطوفان . كما أنه يذكر أيضاً رحلته التي تكررت مرتين إلى السماوات انطلاقاً من الأرض يقوده فيها الملائـــكة البررة ، كما يذكر الغرائب والعجائب التي شاهدها أثناء ذلك . أما في الجزء الثاني الذي هو وصف لمملكة السلام ، فيمسك « ابن الإنسان » بالملوك في خِضَمِّ حياتهم الشهوانية ويقذفُ بِهم إلى جهنم (٣) . لكن هذا الكتاب الثاني لا يخص مؤلفاً واحداً ، ولا مِراءَ في أنّ الأيدي النصرانية قامت بتحريفه . أما الكتاب أو الجزء الثالث فيحتوي بعض الأفكار الغريبة المتطورة في الفلك والطبيعة . ويمثل الجزء الرابع مشهداً دنيوياً للجنس البشري منذ البداية وحتى أيام الإسلام ، ويدعوها المؤلف بالعصور المسيحانية Messianic وذلك في حكايتين أخلاقيتين أو بالأحرى قضيتـــين رمزيتين ، يمثلهما خروج ثور أبيض من الأرض ثم تنضم إليه عِجْلَةٌ بيضاء وينجبان عجلين : أحدهما أسود والآخر أحمر ، ويتغلب الثور الأسود على الأحمر ويطرده ، ثم يلتقي ببقرة صغيرة وينجبان عدة عجول سوداء إلى أن تترك البقرة الأم الثور الأسود بحثاً عن الأحمر ، ولأنها لم تجده فقد أخذت في الخوار والصياح بصوت عالٍ ، وعندها

(١) يهوذا ١ / ١٤ ويذكر في الاناجيل على أنه واحد من أربعة أخوة لعيسى (متى ١٣ / ٥٥ ، ٥٦ . . . الخ) .
(٢) ترجمها إلى الانجليزية اسقف إرلندي إسمه لورنس إينوخ .
(٣) إينـــوخ ٤٦ / ٨٤ . [المؤلف]

يظهر ثور أحمر ويبدءان في التناسل والتكاثر . بالطبع هذه الحكاية ذات المغزى ترمز إلى آدم وحــواء وقابيل وهابيل وشيت . . الخ حتى يعقوب الذي يرمز إلى سلالته على أنها قطيع غــنم ، وهم شعب إسرائيل المختار . أما سلالة أخيه ، عيساو وهم الأدوميون فيوصفون بأنهم قطيع من الخنازير البرية . وفي هذه القصة الثانية كثيراً ما يتعرض قطيع الغنم للمضايقة والهجوم والتشتيت والذبح على يد الحيوانات المفترسة والطيــور الجارحة ، إلى أن نأتي إلى ما يسمى بالعصور المسيحانية عندما تقــوم الغربان والحيوانات المفترسة الأخرى بمهاجمة قطيع الأغنام بشدة . ولكن كبشاً شجاعاً يقــاوم ببسالة وشدة بأس ، وحينئذ يأتي « ابن الإنسان » وذلك هو السيد والمــالك الحقيقي للقطيع ، لتخليص قطيعه .

إن العالم أو الدارس غير المسلم لا يستطيع أبداً أن يفسر رُؤيا الصوفي أو المُشاهد ، بل إنه كما يفعل الجميع – يوصل الرؤيا إلى المكابيين والملك انطيوخوس أبيفاني في أواسط القرن الثاني ق . م عندما يأتي المُخلِّص أو المُنقذ ومعه عصاً أو صولجان هائل يضرب به يمنــةً ويسرةً على الطيور والحيوانات محدثاً بينها مذبحة عظيمة ، وتقوم الأرض وقد فغرت فاها ، بابتلاعهم ، أما البقية فتولي الادبار . ثم توزع السيوف على الخِراف ويقودها ثور أبيض قُدُماً في سلام وطمأنينة كاملين .

أمــا بالنسبة للجزء أو الكتاب الخامس ، فهو يحتوي نصائح ومواعــظ دينية وأخلاقية ، والسفر بكاملِهِ وفي شكله الحالي يعرض إشارات تدل على أنه تم تدوينه في تاريخ متأخر قد يكون عام ١١٠ ق . م . هذا على الأقل هو رأي الموسوعة الفرنسية .

ويسمي القرآن إينوخ باسمه المستعار أو لقبه وهو « إدريس » وجاء الاسم العربي من كلمة دريشا Drisha الآرامية من نفس فئــة الأسماء البسيطة كإبليس وبليسا (١) ومعنى كلمة « إدريس ودريسا » : عالم غزير العلم ، من داراش « Darash » وفي العربية « دَرَسَ » . ويقول النص القرآني : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً ، وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾ (٢) .

(١) إبليس : الصيغــة العربية للكلمة الآرامية « بليسا » "Blisa" وهي صفــة أُعطيت للشيطان وتعني « المرضوض أو المكدوم أو المقهور » . [المؤلف]

(٢) سورة مريم الآية : ٥٦ ، ٥٧ .

ويبدو أن المُفَسِّرَيْن المُسلمين « البيضاوي ، وجلال الدين » يعرفان أن إينوخ أو « إدريس » قد درس الفلك والفيزياء والحساب وأنه كان أول من كتب بالقلم ، وأن إدريس تعني رجلاً واسع المعرفة ، ويدلان بذلك على أن رؤيا إينوخ لم تكن قد ضاعت في أيامهما .

وبعد اختتام لائحة الكتب العبرية المقدسة في القرن الرابع ق . م. وذلك من قِبَل « أعضاء المجمع الكنسي العظيم » الذي أسسه « عزرا ونحميا » ، وجميع المدوّنات الأخرى المقدسة أو الدينية إضافة لتلك التي تحتويها المجموعة ، أصبحت تسمى « الأبوكريفا » (١) واستبعدها من التوراة العبرية – مجمع من العلماء والأتقياء اليهود وكان آخرهم سمعان العادل الشهير الذي توفي سنة ٣١٠ ق . م . ومن بين هذه الكتب الأبوكريفية رؤى إينـوخ وباروخ وموسى وعزرا وكتب سيبل « Sibyline » وقد كتبت في فترات مختلفة بين عهد المكابيين وبعد تدمير القدس على يد « تيطس » ، ويبدو أن من الشائع بين الحكماء اليهود تأليف أدبيات أبوكريفية ودينية تحت اسم بعض الشخصيات القديمة الشهيرة ، ولا تشذ الرؤيا الموجودة في آخر العهد الجديد والتي تحمل اسم يوحنا الإلهي عن هذه العادة اليهودية النصرانية . وإذا كان يهودا «أخو السيد» قادرا على تصديق أن « خانوخ السابع بعد آدم » كان حقيقة مؤلفاً لواحدٍ من المائة وعشرة فصول التي تحمل ذلك الاسم ، فلا عجب أن يصدق جوستين الشهيد وبابياس ويوزيبيوس صحة تأليف متّى ويوحنا .

غير أن هدفي ليس إنتقاد التأليف أو التعليق على هذه الرؤى الغامضة المميزة ، والتي تم تدوينها تحت أشد الظروف قسوة وإيلاماً في تاريخ الأمة اليهودية . ولكن هدفي هو رواية أصل اسم « ابن الإنسان » وإلقاء بعض الضوء على دلالته الحقيقية ، وكتاب إينوخ أيضاً مثله في ذلك مثل رؤى الكنائس والأناجيل ، يتحدث عن مجيء « ابن الإنسان » لإنقاذ شعب الله من أعدائهم ، وهو يخلط بين هذه الرؤيا وبين يوم الدينونة .

---

(١) (أو الأسفار الملحقة بالعهد القديم ».والتي لا يعترف البروتستانت بصحتها) [المُعرّب] .

(ب) الروٴيا السبيلية التي تم تأليفها بعد الانهيار الأخير للقدس تحت أقدام الجيوش الرومانية تقول إن « ابن الإنسان » سوف يظهر ويدمر الإمبراطورية الرومانية ويخلص المؤمنين بإلـــهٍ واحد ، وتمت كتابة هذا السفر بعد المسيح بحوالي ثمانين عاماً على الأقل .

(ج) سبق أن قدمنا عرضاً لابن الإنسان وذلك عندما ناقشنا روٴيا دانيال ، حيث يُقَدَّم إلى الله تعالى ويُفَوَّضُ بالقضاء على الوحش الروماني . وهكذا فإن الروٴى في رفـــع « طموحات موسى » "Assumption of Moses" في كتـــاب باروخ ، هي روٴى متشابهة إلى حدٍ ما في نظراتها وتوقعاتها لأئلك الذين سبق وصفهم في « الرؤى » التي مر ذكرها . وجميعها تصف مخلّص شعب الله على أنه « بارناشا » أو ابن الإنسان لتمييزه عن الوحش ، لأن ابن الإنسان مخلوق على صورة إلــه ، والوحش على صورة الشيطان ! ! . .

٢ – لا يمكن أن يكون « ابن الإنسان » الوارد في الروٴى هو عيسى المسيح :

إن لقب « ابن الإنسان » لا ينطبق إطلاقاً على ابن مريم . وإن جميع الادعاءات الواردة في ما يسمى « الأناجيل » والتي تجعل « حَمَل » الناصرة يمسك بالملوك خلال حياتهم الفاجرة ويلقي بهم في الجحيم (١) تفتقر إلى الحد الأدنى من الموثوقية . والمسافة التي تفصله عن « ابن الإنسان » الذي يزحف مع أعداد هائلة من الملائكة فوق السحاب نحو عرش الله تعالى ، أبعد من المسافة التي تفصِل بين كوكبنا الأرضي وكوكب المشتري ، وقد يكون « ابن الإنسان » و « مسيحا » ، كأي ملك يهودي ونبي وحبر ، ولكنه لم يكن ابن الإنسان ولا المسيح الذي تنبأ به الأنبياء العبرانيون وأصحاب الروٴى . وكان اليهود على حق في إنكار ذلك اللقب وتلك الوظيفة عليه ، لكنهم كانوا حتماً مخطئين في إنكار نبوته عليه ، كما كانوا مجرمين في أنهم سفكوا دمه البريء – كما يعتقدون وكما يعتقد المسيحيون . وقد حل محل مجمع الكنيس اليهودي الأعظم بعد وفاة سمعان العـــادل سنة ٣١٠ ق . م مجلس (السَّنهِدرين Sanhedrin) الذي كان رئيسه يلقب بلقب الرئيس أو الأمير « ناسي » ، ومن المدهش أن يكون نبيا (٢) هذا الأمير الذي

(١) سفر دانيال : (٧) . (٢) يوحنا : ١١ / ٥ .

نطق بالحكم ضد عيسى قائلاً : « من الأجدى أن يموت رجل واحد بدلاً من أن يُقضى على أمة بكاملها (١) » فإذا كان نبياً فعلاً ، فكيف لم يعترف بالمهمة النبويّة أو الطابع المسيحاني « للمسيح » .

ها هي إذن الأسباب الرئيسية في أن عيسى لم يكن « ابن الإنسان » أو المسيح الموعود في الرؤيا :

(أ) أيٌّ مرسل من الله ليس من مهمته أن يتنبأ عن نفسه كشخص يخص فترة قادمة ، أو يتنبأ عن إعادة تجسّده ، وبذلك يقدم نفسه على أنه بطل رواية مستقبلية عظيمة في العالم .

وقد تنبأ يعقوب عن « رسول الله » (٢) ، وموسى عن النبي الذي سيأتي بعده مع الشريعة ، وطلب إلى إسرائيل بإلحاح أن تطيعه (٣) ، وتنبأ حاجّاي Haggai عن أحمد (٤) ، وملاخي عن مجيء « رسول العهد » وعن إيليا (٥) ولكن لم يتنبأ أحد من الأنبياء عن مجيئه ثانية إلى هذا العالم . والذي يعتبر خارقاً للعادة في حالة عيسى هو أنه جعل يزعم أن هويته هي هوية « ابن الإنسان » ومع ذلك فهو غير قادر على أن يقوم بأدنى حد من العمل الذي يتوقع من « ابن الإنسان » القيام به . وإن الإعلان لليهود الذين تحت قبضة بيلاطس أنه كان ابن الإنسان ثم يدفع بعدها الجزية لقيصر ويعترف أن ابن الإنسان لم يجد محلاً يضع عليه رأسه ، ثم يؤجل خلاص الناس من النير الروماني إلى وقت غير محدد في المستقبل ، إن ذلك من الناحية العملية كان بمثابة استهتار بأمته ، وإن أولئك الذين نسبوا هذه الأقوال المتهافتة إلى عيسى ظهروا بمظهر البلهاء .

(ب) كان عيسى يعرف أكثر من أي شخص آخر في إسرائيل من كان « ابن الإنسان » وماذا كانت مهمته . إذ كان عليه أن يُنْزِلَ الملوك الفاسدين عن عروشهم ، ويقذف بهم في نار جهنم . إن رؤيا باروخ وعزرا (الكتاب الرابع لـ « إيزدراس ») في الترجمة المعتمدة لدى الكاثوليك Vulgate تتحدث عن ظهور ابن الإنسان الذي يقيم مملكة السلام القوية على أنقاض الإمبراطورية الرومانية . وجميع

---

(١) يوحنا : ١١ / ٥٠ .

(٢) تكوين : ٤٩ / ١٠ .

(٣) تثنيه : ١٨ / ١٥ .

(٤) حاجاي : ٢ / ٧ .

(٥) ملاخي : ٣ / ١ ، ٤ / ٥ .

الرؤى الأبوقريفية هذه ترينا حالة العقل اليهودي ، إزاء مجيء آخر المخلّصين العظماء الذي يلقبونه « بابن الإنسان » والمسيح المنتظر ، ولا يمكن أن يكون عيسى جاهلاً أو غير مُلِمٍّ بهذه الكتابات وهذا التوقع المتحمس من قبل قومه ، ولا يستطيع مع ذلك أن يتخذ أيّاً من هذين اللقبين لنفسه بالمعنى الذي أعطاه لهما السَّنهِدْرين – المجلس الكنسي الأعلى في القدس – واليهودية . لأنه لم يكن « ابن الإنسان » أو المسيح المنتظر ، إذ لم يكن لديه برنامج سياسي أو خطة اجتماعية ، ولأنه كان هو نفسه السلف لـ « ابن الإنسان » و « للمسيح المنتظر » – السيد والنبي الظافر ، والممسوح بالزيت ، والمتوج سلطاناً على الأنبياء .

(ج) والفحص الناقد للقب « ابن الإنسان » الذي ورد ثلاثاً وثمانين مرة على لسان السيد ، سوف يَنْتُج عنه ولابدّ ، الاستنتاج الوحيد الذي لم يتخذه لنفسه ، والواقع أنه كثيراً ما يستعمل ذلك اللقب بصيغة الغائب . وتكفي أمثلة قليلة لإقناعنا أن عيسى طبق ذلك اللقب على شخص آخر كان سيظهر في المستقبل .

١– يقول أحد الكتبة Scribe أي « أحد العلماء » : سأتبعك أنَّى ذهبت ، فيجيب عيسى : « للثعالب جحورها ، ولطيور السماء أعشاشها ، أما ابن الإنسان فليس له مكان يضع رأسه عليه » . وفي العبارة التالية فإنه لا يسمح لأحد أتباعه بالذهاب لدفن والده ، أو لأحد المعلّقين بإزعاج نفسه أو مهاراته في الجدل من أجل اكتشاف المعنى البسيط جداً ، والكامن في رفض عيسى السماح للكاتب العالم أن يتبعه . وإذا كان لديه مكان لثلاثة عشر رأساً ، فإنه حتماً قادر على إيجاد مكان للرأس الرابع عشر أيضاً ، يضاف إلى ذلك أنه كان بإمكانه تسجيله بين السبعين تابعاً الذين كانوا يتبعونه . والكاتب العالم لم يكن صياد سمك جاهلاً كأبناء « زبيدي ويونس » . لقد كان عالماً وقانونياً ضليعاً متمرساً . وليس هناك ما يدعو للشك في إخلاصه ، وقد حُمِلَ على الاعتقاد بأن عيسى كان هو المخلّص المنتظَر ، أي « ابن الإنسان » الذي قد يدعو في أية لحظة جنوده السماويين الكُثْر ويجلس على عرش جده داود . لقد لاحظ عيسى فكرة الكاتب الخاطئة وجعله يفهم بصراحة أن الذي لا يملك ذراعين مربعين من الأرض ليضع رأسه عليهما لا يمكن بالطبع أن يكون « ابن الإنسان » . إنه لم يعامل الكاتب بجفاء بل تلطف وأنقذه من إضاعة وقته في أمل لا طائل تحته .

٢- يقال إن عيسى المسيح أعلن أن « ابن الإنسان » سوف يفرز الخراف من الماعز ، والخراف ترمز إلى الإسرائيليين المؤمنين الذين سيدخلون الملكوت . أما الماعز فتدل على اليهود غير المؤمنين الذين انضموا إلى جانب أعداء الدين الحقيقي ، وبالتالي كان مقضياً عليهم بالهلاك . هذا عملياً ما كانت رؤيا إينوخ قد تنبأت به عن « ابن الإنسان » . وقد أيد عيسى ببساطة رؤيا إينوخ وأعطاها طابعاً إلهياً . وأرسل بنفسه لحث خراف إسرائيل على البقاء مؤمنة بالله موالية له تنتظر بصبرٍ مجيء ابن ا لإنسان ، الذي سيجيء لإنقاذهم إلى الأبد من أعدائهم . لكنه هو نفسه لم يكن « ابن الإنسان » ولم تكن له علاقة بعالم السياسة ولا بالخراف والماعز التي رفضته كلها واحتقرته ، باستثناء العدد القليل جداً الذين أحبوه وآمنوا به .

٣- يقال إن ابن الإنسان هو « سيد يوم السبت » أي أنه مخوّل بإيقاف القانون الذي جعل من هذا اليوم يوماً مقدساً للراحة من التعب والعمل . وكان عيسى ملتزماً بالسبت بدقة ، وفي ذلك اليوم اعتاد أن يحضر الصلوات في الهيكل أو في الكنيس (Synagogue) . وهو يأمر أتباعه أمراً صريحاً بالصلاة أن لا يكون الانهيار القومي عند دمار القدس في يوم سبت . إذن كيف يستطيع عيسى أن يزعم أنه ابن الإنسان ، وسيد يوم السبت ، بينما كان مضطراً لمراعاته والحفاظ على قدسيته كأي يهودي ؟ وكيف يستطيع أن يتجرأ على اتخاذ ذلك اللقب الجليل ثم يتنبأ بدمار الهيكل والعاصمة ؟ .

هذه الأمثلة وغيرها كثير، ترينا أن عيسى لم يكن قادراً قط على اتخاذ لقب « بارناشا » أو « ابن الإنسان » لنفسه . ولكنه نسب هذا اللقب إلى خاتم الأنبياء القوي الذي أنقذ « الخراف » حقيقةً أي اليهود والمؤمنين ، وقضى على الكافرين من بينهم ، أو شتتهم وألغى يوم السبت وأقام مملكةَ السلام ووعد أن هذا الدين وهذه المملكة سيَدومان إلى يوم الدينونة .

وسنوجه انتباهنا في الحلقة التالية لنعثر على العلامات والصفات التي تصف « ابن الإنسان » في الرؤى والتي هي موجودة حرفياً وبصورة كاملة في آخر رسل الله عليه الصلاة والسلام .

"محمد" هو المقصود بابن الإنسان، الذي جاء في الرؤى

بينت في الحلقة السابقة أن « ابن الإنسان » الذي تنبأتْ به الرؤى اليهودية لم يكن عيسى المسيح ، وأن عيسى لم يتخذ ذلك الاسم لنفسه ، إذ أنه كان سيجعل من نفسه أضحوكة في عيون أتباعه وأنصاره لو أنه فَعَلَ ذلك .

وليس أمامه سوى طريق واحد : إما إنكار النبوءات المسيحانية والرُّؤى المتعلقة بـ « بارناشا » على أنها زيف وأساطير ، أو أن يؤكدها ، وفي ذات الوقت يشغل مركز « ابن الإنسان » إذا كان هو تلك الشخصية المرموقة ، والقول بأن « ابن الإنسان » جاء ليخدم (الآخرين) لا ليُخدَمَ (من قبل الآخرين) (١) ، أو أن « ابن الإنسان » سوف يُسلَّم لأيدي كبار القسس والكتبة (٢) ، أو « جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب الخمر » مع الخاطئين وأصحاب الحانات(٣) ، والاعتراف في نفس الوقت أنه كان شحاذاً يعيش على صدقات الآخرين وكرمهم ، وكان ذلك يعني الإهانة لأمته ولأقدس عواطفها الدينية . وأن التباهي بالقول بأنه « ابن الإنسان » وجاء لإنقاذ واسترداد خِراف إسرائيل المفقودة(٤) ، ولكنه اضطر لترك هذا الخلاص إلى يوم الدينونة ، وحتى في ذلك الوقت فإنهم سيُلقى بهم في النار الخالدة ؛ كان هذا يعني إحباط كل آمال ذلك الشعب المضطهد الذي كان وحده من بين سائر البشر قد تشرف بكونه الأمّة الوحيدة التي اعتنقت دين الله الحق وعقيدته ، كما أن ذلك فيه احتقار لأنبيائهم وأصحاب الرؤيا فيهم .

هل كان باستطاعة يسوع المسيح اتخاذ ذلك اللقب ؟ وهل كُتَّابُ الأناجيل الأربعة هم من العبرانيين ؟ هل يستطيع عيسى أن يُصدِّقَ براحة ضمير أنه هو نفسه ما تزعمه

(١) متّى : ٢٠ / ٢٨ . (٢) نفس المرجع : ٢٠ / ١٨ .
(٣) نفس المرجع : ١١ / ١٨ . (٤) نفس المرجع : ١٨ / ١١ .

عنه الأناجيل المشكوك في صحتها ؟ هل كان باستطاعة يهودي أن يكتب بإخلاص هذه القصص التي كُتبت عمداً لإزعاج الناس وإحباط توقعاتهم ؟ بالطبع لا يمكن أن يصدر جوابٌ غير سلبي مني عن هذه الأسئلة ! ! إذ لا يمكن لعيسى أو لرسله أبداً استعمال هذا اللقب الفضفاض بين شعب سبق أن كان يعرف كل المعرفة الصاحب الشرعي لذلك اللقب . وسيكون ذلك مشابهاً لوضع تاج الملك على رأس سفيره ، بينما الأخير ليس له جيش ينادي به ملكاً . وسيكون ذلك ببساطة عملية اغتصاب حمقاء لحقوق وامتيازات « ابن الإنسان الشرعي » وبالتالي فإن هذا الاغتصاب الذي لا مبرر له من طرف عيسى ، سوف يعادل اتخاذ صفة « الابن المزيف للإنسان وصفة الدجال عدو المسيح » ؟ ! . وإن مجرد تصور عملي وقح من جانب عيسى المسيح عليه السلام يثيرني إثارة كاملة . وكلما ازددتُ قراءةً لهذه الأناجيل ، ازداد اقتناعي بالاعتقاد أنها نوع من « الإنتاج » – على الأقل في وصفها ومحتواها الحالي – لمؤلفين من غير اليهود ، وهذه الأناجيل عبارة عن عملية توازن في مقابلة الرؤى اليهودية ، أو ربما تكون على الأخص بمثـــابة مشروع لمضاهاة أو معارضة الكتب السبيلية « Sibyllian Books » ولا يمكن القيـــام بمثـــل ذلك العمل إلا من قبـــل النصارى اليونان الذين لم يكن لهم اهتمام أو مصلحة في ادعاءات أبناء إبراهيم . ومؤلف الكتب السبيلية يقف جنباً إلى جنب مع الأنبياء اليهـــود (إينوخ ، ودانيال ، وعزرا) وأسماء حكماء اليـــونان (هيرمِس ، هوميروس ، أورفيوس ، فيثاغورس ، وغيرهم) . وما الهدف الواضح من ذلك إلا الدعاية للدين العبراني . وكُتبَت هذه الكتب عندما كان الهيكل والقدس خراباً ، وذلك قبل أو بعد نشر رؤيا القديس يوحنا بوقت قصير . وخلاصة الرؤيا السبيلية أن ابن الإنسان العبري(١) أو المسيح سوف يأتي ليدمر قـــوة روما ويقيم دين الله الحـــق لجميع البشر .

ونستطيع التوصل إلى حجج سليمة لإثبات هوية « ابن الإنسان » بالنسبة لمحمد فقط وسوف نقسم هذه الحجج بالشكل التالي : –

(١) تطلق التسمية (عبري) بمعناها الأوسع على جميع سلالة إبراهيم والذين اتخذوا فيما بعد أسماء أجدادهم كبني اسماعيل ، والإسرائيليين ، والأدوميين ، . . الخ [المؤلف]

حجـــج من الأناجيل ومن الرّؤى :

في أبرز العبارات وأكثرها تماسكاً من أحاديث عيسى ، نجـــد أن لقب « بارناشا » أو ابن الإنسان ، لا ينطبق إلاّ على « محمد » وحده ، وقد تحققت النبوءة الموجودة في هذه الأحاديث تحققاً حرفياً في « محمد » دون غيره . وفي بعض العبارات ، حيث يفترض أن عيسى قد اتخذ ذلك اللقب لنفسه ، تصبح العبـــارة مفككة ، عديمة المعنى ، وفي غاية الغموض . ولنأخذ العبارات التالية على سبيل المثـــال :

جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب . . . وقالوا انظروا (١) . . . وكان يوحنا المعمدان لا يشرب الخمر ولم يعش إلا على الماء والجراد والعسل البري . وقالوا إنه كان شيطانياً . ولكن ابن الإنسان هو عيسى (؟) الذي أكل وشرب النبيذ ، وكان موصوفاً بأنه « صديق أصحاب الحانات والخاطئين » ؟ ؟ . وإن لوم نبي على صيامه وعفته خطيئة تنطوي على عدم الإيمان أو على الجهل المطبق . ولكن لوم شخص ، يدعي أنه رسول الله على التردد على ولائم الخمارين والخاطئين وبأنه مولع بالنبيذ ، هذه تهمة عادية ولكنها خطيرة جداً ضد إخلاص ذلك الشخص الذي يتظاهر أنه المرشد الروحـــي للبشر ، فهل نستطيع نحن المسلمين أن نعتقد بأمانةِ وإخلاصِ « المعلم » أو « الملاّ » ، عندما نراه يختلط بالسكيرين والبغايا ؟ ؟ ! هل يستطيع النصارى تحمل قسيس أو راعٍ للكنيسة يسلك هذا السلوك ؟ ؟ بالتأكيد كلا . قد يختلط المرشدُ الروحي بجميع أنواع الخاطئين من أجل إرشادهم وإصلاحهم شريطة أن يكون هو متزناً ومعتدلاً في مأكله ومشربه ومخلصاً . وبموجب الاقتباس الذي سبق ذكره قبل قليل ، يعترف المسيح أن سلوكه سبَّبَ صدمة للزعماء الدينيين في أُمته . صحيح أن موظفي الجمرك الذين يُدْعَون المُحَصّلِين أو العشارين كانوا مكروهين من قبل اليهود بسبب وظيفتهم ، (وقيل لنا إن اثنين من العشارين (٢) « وعاهرة » (٣) واحدة ، وامرأة أُخرى بها مَسّ من الشيطان أو معتوهة . . قد هداهم عيسى إلى دينه) (٤) ، ولكن جميع رجال الدين ، ورجال

(١) إنجيـــل متّى : ١١ / ١٩ .

(٢) متّى وزخيوس (متّى ٩ / ٩ ، لوقا : ١ / ١١) .

(٣) يوحنا : ٤ .   (٤) مريم المجدلية (لوقا : ٨ / ٢) .

القانون كانت تَصِمُهُم اللعنات والشتائم (١)، وكل هذا يبدو مزعجاً وغير قابل للتصديق ! ! وإن الفكرة بأن نبياً مباركاً وطاهراً ومعصوماً مثل عيسى كان مغرماً بالنبيذ ، وأنه غيرّ ستة براميل من الماء إلى نبيذ قوي التأثير من أجل أن يذهب بعقل مجموعة من الضيوف كانوا يترنحون من السكر في قاعة عرس في قانا (٢) ، هو تصوير له من ناحيةٍ عمليةٍ على أنه أفاق ومشعوذ فكّر في أعجوبة نفذها صانع معجزات أو ساحر أمام جمهور من السكارى ! وإن وصف عيسى بالسكير والنَّهِم وصديق المستهترين بالله ثم إعطاءه بعدئذ لقب « ابن الإنسان » ، كل ذلك إنكار لجميع الإيحاءات اليهودية والدين اليهــودي .

ومرة أخرى يقال إن « ابن الإنسان » جاء ليسترد كل ما ضاع ، وبالطبع يفسر المفسرون هذه العبارة تفسيراً روحياً فقط . حسناً ، إنّ مهمــة ووظيفة كل نبي وواعظ في الدين دعوة الخاطئين للندم والتوبة من أخطائهم وشرورهم . ونحن نعترف أن عيسى أرسل فقط ، إلى خِرافِ إسرائيل الضالة ، لإصلاحها وتغيير دينها إلى المسيحية ، ولاسيما أن يُعلِّمَهم بشكل أوضح أشياء عن « ابن الإنسان » الذي كان سيأتي بالقوة والخلاص لإعادة ما فُقد ، وإعادة بناء ما أصبح خراباً ، لا بل وهزيمة وإبادة أعداء المؤمنين حقاً ، ولايستطيع عيسى أن يتخذ لنفسه لقب « بارناشا » المنسوب إلى الرؤيا ثم يعجز عن إنقاذ شعبه ما عدا « زخيوس » وامرأة سامرية وعدداً قليلاً من اليهــود الآخرين بما في ذلك الرسل الذين قُتِل معظمهم فيما بعد بسببه . والأرجح أن ما صرح به عيسى هو قوله : إن (« ابن الإنسان » سيأتي ليبحث عما ضاع ويسترده) وفي محمد فقط وجد اليهود والعرب المؤمنون وغيرهم من المؤمنين ماكان قد ضاع ودُمِّر إلى غير رجعة ـ القدس ومكة وجميع الأراضي الموعودة ، وكثيراً من الحقائق التي تتعلق بالدين الحق ، وقوة مملكة الله ، والسلام والبركة التي يُضفيها الإسلام على هذا العالم والعــالم الآخر .

وليس لدينا متّسع لمزيد من الاقتباسات ، من العبارات العديدة التي تأتي فيها عبارة « ابن الإنسان » إما كمسندٍ أو كمسندٍ إليه أو مفعول به في الجملة . ولكن يكفي

---

(١) متى : ١٣ . . الخ .   (٢) يوحنا : ٢ .

اقتباس واحد آخر ، هو أن (« ابن الإنسان » سوف يُسَلَّم إلى أيدي الرجال) . . الخ وجميع العبارات التي أصبح فيها عيسى موضوع الآلام والموت.. هذه أقوال افتراها على عيسى كاتب دجال ليس عبرياً ، ولكن بِهدف تحريف الحقيقة حول « ابن الإنسان » كما فهمها اليهود واعتقدوا بها وجعلهم يعتقدون أن يسوع الناصري كان المخلص الظافر الذي جاء عنه في الرؤى أنه سوف يظهر يوم القيامة فقط ، وكانت تلك سياسة ودعاية خبيثة لتشكيك الناس ثم لإقناعهم ، وقد صيغت خصيصاً لليهود ولكن الحيلة اكتشفت ، والنصارى اليهود ينتمون إلى الكنيسة التي تقول إن هذه الأناجيل منزلة من عند الله ؛ لأنه لا يوجد شيء أكثر معاكسة للتطلعات اليهودية القوية ، وللنزعة اليهودية الدينية من تقديم المسيح الذي ينتظرونه « البرناشا العظـيم » على أنه عيسى الذي حكم عليه كبار الأحبار ورجال الدين بالصَّلب بتهمة غوايته للناس . لذلك فمن الواضح أن عيسى لم يتخذ قط لقب « ابن الإنسان » لكنه ادّخره لمحمد ، وإليكم بعض الحجج : —

(أ) يعزو اليهود ذوو الرؤى ألقاب « المسيح الموعود » و « ابن الإنسان » لآخر الأنبياء فقط ، وهو الذي سيحارب قوى الظلام ، ويهزمها ، ثم يقيم مملكة السلام والنور على الأرض ، وهكذا فاللقبان مترادفان والتنصل من أي منهما هو التنصل من كل ادعاء بأنه آخر الأنبياء ، ونقرأ الآن في الأناجيل الثلاثة الأولى من العهد الجديد أن عيسى نفى نفياً باتاً كونه المسيح ، ومنع تلاميذه من أن يلقبوه « بالمسيح المنتظر » ويروي سمعان بطرس أنّ عيسى سأل يوماً : « من قـال بأنني هو ؟ » فقال سمعان بطرس : أنت المسيح من عند الله (١) ، وعندئذ أمر المسيح تلاميذه أن لا يقولوا لأحد أنه هو المسيح (٢) ولا يعرف القديس مرقص ولا القديس لوقا شيئاً عن « قوة المفاتيح » التي أُعطيت لبطرس ، وبما أنهما لم يكونا هناك فإنهما لم يسمعا بذلك . ولم يعرف يوحنا شيئاً عن هذا التحويل المسيحاني ، بل وربما نَسِيَهُ على الأرجح . ويذكر

(١) لوقا ٩ / ٢٠ .

(٢) لوقا ٩ — ٢١ يقول : لقد وبخهم وأمرهم أن لا يقولوا بأنه هو المسيح المنتظر ! ! (متىّ ١٦/ ٢٠ ، مرقص ٨ / ٣٠) .

القديس مَتَّى أنه عندما أمرهم عيسى أن لا يقولوا أنه هو المسيح ، فقد شرح لهم كيف سينجو ثم يُقتل . وعندئذ أخذ بطرس في تقريعـــه وتحذيره أن لا يكرر نفس الكلمات عن آلامه وموته . وبموجب قصة القديس مَتّى هذه ، فإن بطرس كان مصيباً تماماً عندما قـــال : « أيُّها السيد ، ليكن هـذا بعيداً عنك » ، وإذا صح أن اعترافه « ألا إنك المسيح » أدخل السرور على عيسى الذي خلع لقب Sapha أو " Cepha " على سمعان أعلن بعد ذلك أن « ابن الإنسان » كان عليه أن يعاني الموت المزري على الصليب ، فذلك لم يكن سوى إنكار صريح لطابعه المسيحاني لا أكثر ولا أقل . ولكن عيسى أصبح أكثر إيجابية ، ووبخ بطرس بشدة قائلا : « اذهب خلفي يا شيطان » ، ثم أتبعَ هذا التقريع الحـــاد ، بكلماته الواضحة جداً التي قالها بحيث لم يترك ذرة واحدة من الشك في أنه لم يكن « المسيح المنتظر » أو « ابن الإنسان » ، فكيف يمكن التوفيق بين « إيمـــان » بطرس الذي كوفىء بلقب « سافا » Sapha الرفيع وسلطة مفاتيح الجنة والجحيم ، مع « كفر » بطرس الذي عوقب بالوصف البغيض بأنه « شيطان » خلال نصف ساعة أو نحو ذلك . . ؟

كثير من التأملات تطرح نفسها أمام عقلي وأشعر أن من واجبي المحتم تدوينها خطياً وإذا كان عيسى ابن الإنسان أو « المسيح المنتظر » كما شاهده وتنبأ به « دانيال وعزرا وإينوخ » و « الأنبياء » و « الأحبار » واليهود الآخرون ، فإنه يكون قد فوض تلاميذه أن ينادوا به ويحيوه بذلك ، ويساعدهم على ذلك بنفسه . والواقع أنه تصرف بعكس هذا .

ومرة أُخرى إذا كان هو المسيح المنتظر أو ابن الإنسان ، فإنه لابد وأن يكون قد أصاب خصومه بالذعر ودمر بمعونة ملائكته غير المرئيين الدولتين العظيمتين : الرومانية والفارسية ، واللتين كانتا تسيطران على العالم المتمدين . ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، أو أنه مثل محمد سيجند محاربين أشداء أمثال عليٍّ وعمر وخالد . . الخ . وليس من أمثال « زبيدي ويونس » اللذين اختفيا كالشبح المذعور عندما قَدِمَت الشرطةُ الرومانية للقبض عليهم .

وثمـــة قولان متناقضان قالهما مَتّى (أو جرى دسهما عليه من قبل أحد المحرفين) وكلاهما يبطل بعضهما بعضاً من ناحية منطقية . ففي خلال ساعة واحدة يكون بطرس

« صخرة الإيمان » كما تتباهى به الكاثوليكية ، « وشيطان الكفر » كما تصفه البرتستانتية في معرض السخرية منه – لماذا ؟ لأنه عندما اعتقد أن عيسى سيكون المسيح المنتظر كوفيء على ذلك ، ولكن عندما رفض الإدلاء بأن سيده لم يكن هو المسيح ، كان جزاؤه التقبيح ، « ابنان للإنسان » أحدهما سيكون أمير المؤمنين ويخوض بسيفه حروباً في سبيل الله ويجتثُّ الوثنية وإمبراطورياتها وممالكها ، أما الآخر فكان راهباً من الزاهدين المساكين على رأس الفرسان ، يقاتل والصليب بيده في سبيل الله ويستشهد بصورة مزرية على يد الرومان الوثنيين والأحبار والربانيين اليهود غير المؤمنين . « ابن الإنسان » الذي شوهدت يداه تحت أجنحة الملائكة من قبل النبي حزقيال وأمام عرش الله تعالى من قبل النبي دانيال ، كما وُصف في رؤى يهودية أُخرى أنه لم يُقَدَّر له أن يشنق على . . . « الجولجوثا » (١) ولكن قُدِّرَ له أن يحول عروش الملوك الكفرة إلى صلبان لهم ، ويُغيِّر قصورهم إلى مقابر ويحوّل عواصمهم إلى أضرحة ومدافن ، ولم يكن عيسى بل محمد هو الذي حصل على لقب « ابن الإنسان » هذا . والحقائق أبلغ حتى من الرؤى والأحلام . فالفتوحات التي أنجزها محمد رسول الله الكريم على الأعداء إنما هي فتوحات لا تُبارى ولا تضاهي .

(ب) يسمى عيسى « ابن الإنسان » بأنه « سيد يوم السبت » وهذا أمر يلفت النظر فعلاً ، لأن قداسة اليوم السابع هي أساس شريعة موسى . ولقد أتمّ الله عملية الخلق في ستة أيام ، واستراح من العمل في اليوم السابع (٢) وحتى الحيوانات الأليفة فُرِض عليها الاستراحة من كل عمل تحت طائلة عقوبة الموت ، وتأمر الوصية الرابعة من الوصايا العشر شعب إسرائيل قائلة « تذكروا يوم السبت وقدسوه » ويعرف طلبة التوراة كم كان الله غيوراً كما قيل حول مراعاة يوم الراحة بدقة . وقبل موسى لم تكن هناك شريعة خاصة حول ذلك . ويبدو أن البطاركة الرُحل لم يراعوه . ومن المحتمل جداً أن السبت اليهودي جاء أصلاً من « السباتو » "Sabattu" البابلي .

---

(١) الجولجوثا : هو المكان الذي يزعم النصارى أن المسيح صلب فيه . وقد فنّد القرآن هذا الزعم الباطل بقوله تعالى : (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ، وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ » . وقد سبق كلام المؤلف في هذا الصدد . [المترجم]

(٢) سيأتي التعليق على هذا الخطأ في صفحة ٢٤٩ . [المعلق]

ويرفض القرآن الفكرة اليهودية القائلة بتحول الإله إلى بشر ؛ لأنها تقصد أن تقول : إن الله عمل ستة أيام ثم تعب ، كما لو كان إنساناً فاستراح ونام . وهكذا تقول الآية الكريمة في القرآن :

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)(١) .

والفكرة اليهودية عن السبت قد اسرفت في طابعها المادي وشرورها . فبدلاً من جعله يوم راحة وعطلة ممتعة ، تحول إلى يوم من الحرمان والحبس فلم يكن مسموحاً بالطبخ أو المشي أو الإحسان أو تقديم الصدقات ، وكان رجال الدين في الهيكل يخبزون الخبز ويقدمون التضحيات في يوم السبت ولكنهم وبّخوا نبيّ الناصرة عندما شفى بمعجزة رجلاً تقلصت ذراعه ، وأجاب المسيح على هذا بأن السبت وُجِدَ لفائدة البشر وليس البشر لفائدةِ السبت . وبدلاً من جعله يوم عبادة ثم يوم ترويح ومتعة بريئة واستراحة حقيقية ، جعلوه يوم سجن وتعب وملل . وكان أقل خرق لأية تعاليم حول اليوم السابع يعاقب عليه بالرجم أو عقوبة أُخرى . وحكم موسى نفسه بالرجم على رجل مسكين التقط بعض العصي من الأرض يوم السبت ، وجرى تقريع تلامذة عيسى لأنهم التقطوا بعض السنابل يوم السبت مع أنهم كانوا جائعين ، ومن الواضح تماماً أن يسوع المسيح لم يكن من أهل السبت ولم يتقيد بالتفسير الحرفي للتعليمات المشددة القاسية حول السبت . لقد أراد الرحمة أو العطف وليس التضحيات. ومع ذلك فلم يفكر أبداً في إلغاء السبت ولم يكن في وسعه أن يقامر بذلك . ولو غامر بإعلان إلغاء ذلك اليوم أو إبدال يوم الأحد به لهَجَرَهُ أتباعه حتماً ولهاجمه الجمهور فوراً وضربه بالحجارة . وحسبما نعرف من المؤرخ اليهودي « يوسف فلافيوس » ومن يوزيبوس والآخرين فإن يعقوب « أخا » عيسى كان إيبونايتيا « Ibionite » متشدداً ورأس النصارى اليهود الذين تقيدوا بشريعة موسى وبالسبت بكل ما فيه من مظاهر التشديد . وبالتدريج استبدل النصارى الهلينيون به أو الآمر « يوم السيد » أي يوم الأحد ، ولكن الكنائس الشرقية حتى القرن الرابع كانت تراعي اليومين .

(١) سورة الأعراف آية : ٥٤ .

والآن لو كان عيسى « سيد يوم السبت » لكان بالتأكيد إما عدَّل من قانونه الشديد أو ألغاه بالمرة . ولكن لم يفعل هذا ولا ذاك . وفهم اليهود الذين سمعوه جيداً أنه كان يشير إلى المسيح المنتظر على أنه سيد السبت وهذا هو السبب في سكوتهم . وقد حذف منقح الأسفار الثلاثة الأولى من العهد الجديد هنا كما في بقية الأماكن ، بعض كلمات لعيسى عندما كان ابن الإنسان موضوع محاضرته ، وهذا الحذف هو سبب نواحي الغموض فيها والتناقض وسوء الفهم . وما لم نأخذ القرآن الكريم دليلاً لنا ورسول الله كهدف للتوراة ، فإن جميع المحاولات للعثور على الحقيقة والتوصل إلى استنتاج مرضٍ ستنتهي بالفشل . وسوف يذهب بكم النقد التوراتي العالي حتى يوصلكم باب الضريح المقدس للصدق ، وهناك يتوقف ، وقد أُصيب بالرهبة وعدم التصديق . ولا يفتح الباب للدخول والبحث عن الوثائق الأبدية الموجودة هناك ، وكل البحث والعلم الذي أظهره هؤلاء النقاد العلماء سواء كانوا من المفكرين المتحررين أو العقلانيين أو الكتاب غير ذوي الشأن ، فإنهم جميعاً في نهاية المطاف سيصابون بالبرود والتشكك وخيبة الأمل .

لقد كنت مؤخراً أقرأ مؤلفات العالم الفرنسي « أرنست رِيان » وهي عن حياة المسيح والقديس بولس والدجال ، وقد أذهلني مدى تلك المؤلفات القديمة والحديثة التي دقَّقها وذكرني « بجيبون » والآخرين . ولكن ويا لـلأسف ؟ ! ماذا كانت نتيجة أبحاثهم ودراساتهم الدؤوبة ؟ صفراً أو لا شيء . ففي ميدان العلم يكتشف « أصحاب علم اليقين » عجائب الطبيعة ، ولكن في ميدان الدين يستغله هؤلاء العلماء ويَسَمِّمُون العواطف الدينية لقرائهم ، وإذا كان لهؤلاء النقاد العلماء أن يسترشدوا بروح القرآن ويعتبروا محمداً هو المصداق الحرفي والواقعي والمعنوي للكتاب المقدس ، فإنه لا يمكن لأبحاثهم حينئذ أن تكون عشوائية مدمرة بهذا القدر ، فالمتدينون يريدون ديناً حقيقياً وليس مثالياً ، يريدون ابن الإنسان الذي يجرد سيفه ويزحف على رأس جيشه الباسل للقضاء على أعداء الله وليثبت قولاً وعملاً أنه « سيد يوم السبت » فيلغيه بالمرة ، لأن اليهود أساؤا استعماله كما أُسيء استعمال أبوة الله على يد النصارى . وقد فعل محمد هذا . وكما كررت مراراً في هذه الصفحات فإننا لا نفهم هذه الكتب الدينية المحرَّفة إلا عندما نتغلغل على هدي نور القرآن ، في صميم أقوالها الغامضة المتناقضة ، وحينئذ

فقط نستطيع غربلتها بغربال الصدق وتمييز الحقيقي منها عن المزيف . وعلى سبيل المثال ، عندما نتحدث عن الرهبان الذين يحلون السبت باستمرار في الهيكل ، فإنه يروى عن عيسى قوله : « انظروا هنا الشخص الذي هو أعظم من الهيكل » لا استطيع أن أجد معنى لوجود الظرف (هنا) (here) في هذه العبارة إلا إذا أضفنا لها حرفاً (بالإنجليزية) لتصبح " there " لأنه إذا كان عيسى أو أي نبي قبله كانت له الجرأة لأن يعلن أنه نفسه أعظم من الهيكل (١) فإنه سيكون قد تعرض فوراً للاعتداء والرجم من قبل اليهود بتهمة الكفر ، ما لم يثبت أنه « ابن الإنسان » ومزود بقوى وعظمة تضارع ما هو عليه حال رسول الله .

وإن إلغاء يوم السبت من قبل محمد أمير الأنبياء كان موضوع إشارة في القرآن الكريم في سورة الجمعة ،وقبل محمد كان العرب يدعون يوم الجمعة « بالعَرُوبَه » وفي نسخة بشيتا السريانية نجد كلمة « عَرُوبتا » من الكلمة الآرامية « عَرَابْ » بمعنى « عند مغيب الشمس » ويسمى كذلك لأنه بعد غروب شمس يوم الجمعة يبدأ يوم السبت . والسبب في إضفاء الطابع المقدس على يوم السبت هو أنه في ذلك اليوم استراح الله من عناء الخلق (٢) . ولكن سبب اختيار الجمعة ، كما يمكن فهمه بسهولة ، له طابع مزدوج : —

أولاً : لأنه في هذا اليوم اكتملت عملية الخلق العظيمة أو التكوين العام لجميع العوالم التي لا حصر لها ، وكذلك الكائنات والأشياء المرئية وغير المرئية والكواكب والمكروبات . وكان هذا أول حدث قطع السرمدية حيث بدأ الزمان والمكان وبرزت المادة للوجود ، إن إحياء هذه الذكرى — ذكرى خلق هذا الكون وما فيه من كائنات ، والاحتفاء بذكرى هذا الحدث المعجز ، وإضفاء طابع القداسة عليه ،

---

(١) إنجيل متّى : ١٢ / ٦ .

(٢) الله سبحانه منزّه أن يناله تعب أو عناء حتى يحتاج إلى راحة . . فهذه صفة نقص في المخلوقين ، أما الخالق فهو عز وجل متصف بكل كمال ، منزّه عن كل نقص . وفي نفي هذا الزعم الباطل يقول تعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنا السَّموات وَالأرْضَ وما بَيْنَهُما في سِتَّةِ أيّامٍ وَما مَسَّنا مِنْ لُغوب » . سورة ق / ٣٨ .
وقد أشار المؤلف إلى ذلك في صفحة : ٢٤٧ . [المعلق]

له ما يبرره ويجعله معقولاً بل ضرورياً . والسبب الثاني لإطلاق اسم الجمعة على هذا اليوم ، هو أن المؤمنين يلتقون فيه ويكوّنون تجمعات كبيرة ، فمن هنا سمي « الجمعة » أي التجمع أو الاجتماع . والآية الكريمة حول هذا الموضوع تبين طابع التزامنا بيوم الجمعة ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ . . . الخ) (١) .

في هذا اليوم ، يُطلب من المؤمنين أن يتجمعوا معاً للصلاة في بيت مخصص لعبادة الله وأن يتركوا في ذلك الوقت كل عمل مُدرٍّ للرّبح الدنيوي . ولكن بعد انتهاء الصلاة الجامعة فإنهم غير ممنوعين من ممارسة عملهم المعتاد . والمسلم الحقيقي خلال الـ ٢٤ ساعة اليومية يتَعبَّدُ لِربِّه خمس مرات يقضيها في العبادة والتهجد .

(جـ) لقد سبق أن بينا بعض الملاحظات حول عبارة القديس متّى (١٨ / ١١) أنّ مهمة « ابن الإنسان » هي البحث عن المفقود ، ورده . وها هنا نبوءة أخرى – وإن كانت صيغتها محرفة بدون شك – عن محمد أو ابن الإنسان الذي تحدثت عنه الرؤى . هذه الأشياء المفقودة التي يجب على ابن الإنسان البحث عنها وردها على نوعين : دينية وقومية . ولنبحث الأمر مفصلاً :

١– كانت مهمة أو رسالة بارناشا (ابن الإنسان) إعادة النقاء لدين إبراهيم وعموميته اللتين ضاعتا منه . وكان لابد من إعادة جميع المؤمنين من الشعوب والقبائل التي انحدرت من ذلك الأب البشري الجليل إلى حظيرة دين السلام الذي هو « ديناذي شلاما » أو « دين الإسلام » وليس شيئاً سواه . لقد كان دين موسى قومياً خاصاً ، ولذلك فإن رهبانيته الوراثية وتضحياته اللاوية وطقوسه الفخمة ، وأيام سبته ، ومواسمه وأعياده وكل شرائعه وكتبه التي غُيِّرت من بعده ، يجب أن تُلغى ويحل محلها كتاب من طراز جديد شامل في طابعه وقوته وديمومته . لقد كان المسيح يهودياً ولا يمكن أن يكون في وسعه إنجاز واجب ضخم كهذا ، لأن ذلك كان مستحيلاً من ناحية مادية بالنسبة للمسيح الذي يقول : « لَمْ آتِ لِتَغْيِيرِ القانون أو الأنْبياءِ » (٢)

(١) سورة الجمعة الآية : ٩ – ١٠ .

(٢) متّى : ٥ / ١٧ – ١٩ .

ومن ناحية أخرى فإن الوثنية المستفحلة بكل ما فيها من ممارسات ملحدة كريهة وأساطير وشعوذة كانت منتشرة بين العرب ، هذه كلها كان لابد من محوها ، ومن إعادة عقيدة التوحيد والدين تحت علم رسول الله الذي يحمل الكلمات المقدسة التالية :

(أشْهدُ أن لا إلــهَ إلا اللهُ وأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّــداً رَسُولُ اللهِ)

٢– إن توحيد الأمم ، المُنحَدِرَةِ من إبراهيم ، وتوابعها ، كان لابد من إعادته وتحقيقه . ومن الأفكار العديدة الفاسدة الأنانية التي لا يمكن تبريرها والتي تحويها الكتب المقدسة العبرية ، ما يتضمن تحاملاً عشوائياً ضد الأمم غير الإسرائيلية . إنهم لا يحترمون أبداً الأبناء الآخرين لجدهم العظيم إبراهيم ، وهذه العداوة تظهر ضد إسماعيل والآدوميين وبقية القبائل الإبراهيمية حتى عندما أصبح بنو إسرائيل أسوأ الوثنيين والكفرة . والحقيقة القائلة انه بالإضافة إلى إبراهيم وإسماعيل ، فإن حوالي ثلاثمائة وأحد عشر عبداً ذكراً ومقاتلاً ، جميعهم قد جرى ختانهم (١) ، هذه الحقيقة تنتصب حجة دامغة ضد اليهود ، في موقفهم من الشعوب الأخرى من أبناء عمومتهم . إن مملكة داود لم تكد توسّع حدودها خارج المنطقة التي هيمنت عليها الدولة العثمانية وكوّنت ولايتين متجاورتين فقط . وقد يكون وقد لا يكون « ابن داود » الذي ينتظر اليهود مجيئه مع وصفه بالمسيح الأخير ، قادراً على احتلال حتى هاتين الولايتين . وفضلاً عن ذلك ، فإنّ مجيئه ينبغــي أن يكون من أجــل القضاء على الوحش الروماني » .

ذلك « الوحش » إنما يبتر ويذبح على يد محمد لا سواه ! فماذا يُتَوقَّعُ غير ذلك ؟ وعندما أسس محمد ابن الإنسان المنتظر مملكة السلام (الإسلام) فإن أكثر اليهود في شبه جزيرة العرب وسوريا والعراق . . الخ اندفعوا طوعاً نحو أعظم رعاة البشرية عندما ظهر بضرباته المخيفة التي كالها لوحش الوثنية . لقد أسس محمد أُخوّة شاملة وكانت نواتها بالتأكيد أُسرة إبراهيم التي تحوي بين أعضائها الفرس والأتراك والصينيين والزنوج والجاويين والهنود والإنجليز . . الخ . وكلهم يشكلون « أمة واحدة » « أمثادي شلاما » بالسريانية ، أي الأمة الإسلامية .

(١) سفر التكوين .

٣- ثم إن استرداد الأراضي الموعودة بما في ذلك أرض كنعان وجميع الأراضي من النيل إلى الفرات والامتداد التدريجي لمملكة الله من المحيط الهـادي إلى شواطىء الأطلسي الشرقية ، ما هو إلا تحقيق مدهش لجميع النبوءات عن أكرم وأعظم بني البشر.

وإذا ما أخذنا في الاعتبار العمل الضخم الذي أنجزه « محمد » لوجه الربِّ الواحد الحـق ، والوقت القصير الذي قضاه هو وأصحابه البواسل المخلصون في إنجازه ، والآثار الخالدة التي تركها عمل « محمد » ودينه على جميع الممالك والمفكرين من بني البشر ، فإن الإنسان ليحار في العرفان الذي ينبغي أن يُقِرَّ بِهِ ويقدمه لِنَبِيِّ بلاد العرب ، فضلاً عن الرغبة في مشاهدة أنواره تسطع بمزيد من البهاء أمام عرش الإلـه السرمدي كما رأى « دانيال » ذلك في رؤيـاه .



ابن الإنسان بحسب الرؤيا اليهودية

اعتماداً على ما تقدم بحثه في هذه الصفحات ، فلا يمكن أن يكون اسم « برناشا » أو « ابن الإنسان » لقباً « كالمسيح » مثلاً ، أو مما يمكن أن ينطبق على كل نبي أو كاهن عالي المقام ، أو مَلِك مُكَرَّس رسمياً ، وإنما هو « اسم علم » يختص بآخر الأنبياء وحده . إن العرّافين اليهود ، والمتصوفين ، وأصحابَ سفر الرؤيا ، يصفون « ابن الإنسان » على أنه : —

« القادم في الميعاد المحدد ، الذي اختصَّه الله لكي يخلص إسرائيل والقدس من الظلم الوثني ، وليقيم المملكة الأبدية لشعب القديسين وشعب الله العظيم » . وإن العرّافين والمتصوفين يتنبأون بعودة المخلّص القوي ، الذي يرون فيه دون غيره الرؤيا والإلهام ، ويعتقدون — بأنه صاحب القوة والمجد . ولم يقل أي نبيٍّ ولا متصوف قط عن نفسه بأنه هو المعنيّ بـ« ابن الإنسان » وأنه سوف « يعود مرة ثانية في اليوم الآخر ليقضي بين الأحياء مِنْ إنسان وغير إنسان » كما ينص على هذا قرار المجمع المسكوني حول السلطة المزعومة لأقوال عيسى المسيح ! !

إن الاستعمال المتكرر لتلك التسمية المذكورة من قبل المبشرين ، تشير بصورة أكيدة جداً إلى معرفتهم بسفر الرؤيا اليهودية ، واعتقادهم الثابت بأنهم ذوو عراقة وأصل مقدس . ومن الواضح جداً أن أصحاب سفر الرؤيا الذين يحملون أسماء « إينوك ، وموسى ، وباروخ ، وعزرا » يعرفون أن هذه الأسماء مكتوبة منذ زمن طويل قبل الأناجيل ، وأن الاسم « برناشا » المذكور هناك قد استعاره مؤلفو الأناجيل ؛ وإلا فإن تكرار استعمال هذا الاسم يصبح لغزاً مبهماً وغير مفهوم ، هذا إذا لم يكن بِدعةً جديدةً من البِدع التي لا تحملُ أي معنى . ولذلك ؛ فإن ما يتبع هذا الأمر أن المسيح إما أن يكون قد صدّق نفسه بأنه — حسب سفر الرؤيا — هو « ابن الإنسان » ،

أو أنه أدرك بأنّ « ابن الإنسان » هو – بدون شك – إنسان غيره ؛ فإذا كان قد ظن أنه « ابن الإنسان » فيترتب على ذلك أن يكون هو وأصحاب الرؤيا قد وقعوا في خطأ . وفي كلتا الحالتين ، لا مناص من كون الحجة على المسيح لا له ؛ لأن الخطأ الذي وقع فيه فيما يتعلق بذاته وبمهمته ، لا يقل فداحة عن تلك التنبؤات الخاطئة الصادرة عن أصحاب الرؤى الذين كان « عيسى » يعتبرهم من ذوى الإلهام . وبالتأكيد ، فإن هذا الاستنتاج الصعب سوف يؤدي بنا إلى نهاية ليست في صالحه ، وإن الطريق الوحيد لتبرئة المسيح من هذه الإهانة « هو أن ننظر إليه كما شرَّفه وصوَّره القرآن . وبناءً على ما تقدم فإننا نعزو جميع التصريحات المتنافرة والمتناقضة الواردة عنه في الأناجيل إلى مؤلفيها أو الذين نقَّحوها من بعدهم .

وقبل أن نتعمق في دراسة موضوع « ابن الإنسان » كما صوره سفر الرؤيا اليهودية ، يجب أخذ بعض الحقائق بعين الاعتبار :

أولاً : إن أسفار الرؤيا هذه لا تخص شريعة الكتاب اليهودي فحسب ، ولكنها أيضاً لم تُدرج بين أسفار الرؤيا نفسها ، والتي سميت « بأسفار تثنية الاشتراع » « "Deutro - Canonical" » من كتب العهد القديم .

ثانياً : لم يُعرف مؤلفو تلك الكتب ، فهي تحمل أسماء : « إينوك ، موسى ، باروخ ، وعزرا » ولكن يبدو أن المؤلفين الحقيقيين أو المحررين كانوا على علم بنهاية خراب القدس والعرافين اليهود تحت حكم الرومان . وهذه الأسماء المستعارة أو المنتحلة لم يتم اختيارها بدافع المخادعة أو الاحتيال ، ولكن استجابة لبعض الدوافع الدينية من قبل الصوفيين الذين ابتدعوها ! ! . . وذلك شبيه بما فعل (أفلاطون) حين وضع أفكاره ومناقشاته على لسان أستاذه سقراط ؟

ثالثاً : هذه الكتب جاءت بكلمات ومناقشات جدلية للحاخام الأكبر « بول هاجونوار » معروضة بصورة مبهمة ، غامضة ، غيبية ، تحاول تفسير أسرار الطبيعة ، وكذلك تبحث عن أصل الإله ، ومشكلات الخير والشرّ ، والسعادة والعدالة ، والماضي والحاضر . وإن سفر الرؤيا يضفي على جميع هذه المسائل

نوعاً من الوحي الذي يتجاوز الفهم الإنساني . هذه المخطوطات ــ كما يبدو واضحاً ــ وضعت في عهد اليهودية المؤلم المشئوم ، والشخصيات الرئيسية لأصحابها تتمثل في : (إينوك ، وموسى ، وباروخ ، وعزرا) . وبناءً على ما تقدم فلا يستطيع الإنسان أن يفهمها جيداً أكثر من سفر الرؤيا ، الذي يحمل اسم القديس يوحنا النبي .

رابعاً : لقــد حرّف المسيحيون أسفار الرؤيا هذه ، ففي كتاب (إينوك) نجد « ابن الإنسان » يدعى أيضاً « ابن المــرأة » وكذلك « ابن الله » ، وهكذا تنحرف نظرية الكنيسة حول تجسيد الإلــه . وبالتأكيد فإنه لا يوجد عرّاف يهودي يمكن أن يسطر في أي من كتاباته هذه الجملة وهي « ابن الله » ! !

خامساً : مما يمكن ملاحظته أن العقيدة المسيحانية ما هي إلا تطور أخير يلحق بالتنبؤات القديمة ، التي بشرت بآخر أنبياء الله ، كما تنبأ بذلك « يعقوب وأنبياء آخرون » ، ولم يُذكر اسمُ « المنقذ أو المخلّص الأخير » والذي يُدَّعى بأنه سيأتي من نسل داود ، إلا في « الأبوكريفا » (١) ، وفي أسفار الرؤيا ، وفي مخطوطات الحاخامين . هناك حقاً تنبؤات جاءت بعد الأسر البابلي ، بل بعد ترحيل القبائل العشر إلى بلاد الأشوريين ، حول « ابن داود » الذي سيأتي ؛ كي يلملم شَعَثَ إسرائيل المشتتة . ولكن هذه التنبؤات لم يتحقق إلا قسم منها تحت قيادة « زوروبابل » وهو من نسل الملك داود . ثم بعد غزو الإغريق كانت تُعلن نفس تلك التنبؤات وتستخدم في الوعظ ، ولكننا لا نرى إلا اليهودي المكابي يحارب بنجاح ضئيل ، لا يكاد يُذكر ، ضدّ « أنطيوخوس أبيفانس » . وعلاوة على ذلك ، فإن ذلك النجاح كان مؤقتاً ولم تكن له قيمة ثابتة . وإن أسفار الرؤيا التي تمتد رؤاها لتشمل ما بعد خراب القدس التي دمرها « تيطوس وفسباسيان » ، تنبيء بأن « ابن الإنسان » سوف يظهر ومعه قوة عظيمة لتحطيم القوى الرومانية وأعداء إسرائيل الآخرين . وكان لابد من مرور عشرين قرناً من الزمان قبل تحطيم إمبراطورية روما ، في القرن الخامس للميلاد ، بواسطة الإمبراطور التركي « أتيلا الهوني المغولي الوثني » وأخيراً على يد التركي المسلم السلطان محمد الفاتح

---

(١) الأبوكريفا : أربعة عشر سفراً تلحق أحياناً بالعهد القديم من الكتاب المقدس ، ولــكن البروتستانت لا يعترفون بصحتها . [المترجم]

الثاني . ولكن تلك القوة قد تحطمت تماماً وإلى غير رجعة ، في البلاد التي وعدها الله لإسماعيل ، بواسطة سلطان الأنبياء محمد المصطفى .

وتبقى هناك ملاحظتان أخريان لا نستطيع تجاهلهما بهذا الخصوص . فلو كنتُ صهيونياً متحمساً أو حاخاماً عالماً ، فإني أعود مرة أُخرى لدراسة هذه المسألة اليسوعية بقدر ما أستطيع من التعمق ومن عدم التحيز ، ثم بعد ذلك أحُضّ وأنصحُ بكل قوة زملائي من رجال الدين اليهودي بأن يكفوا عن هذا الأمل ويتخلوا عنه إلى الأبد . وحتى لو ظهر « ابن داود » على تل صهيون ثم نفخ في البوق وادعى بأنه « المسيح » فسأكون أول من يقول له بشجاعة : على رسلك يا سيدي! إنك متأخر جداً ! فلا تزعج التوازن في فلسطين ! ولا تسفك الدماء ! ولا تجعل ملائكتك تتداخل وتتشابك مع هذه الطائرات العجيبة ! ! . . . ومهما تُحقّقْ من نجاح في مخاطراتك ، فإنني أخشى بأنها لن تتفوق على تلك التي قام بها أجدادك : « داود ، وزوروبابل ، ويهودا المكابي »! . إن الفاتح اليهودي الكبير لم يكن داود بل كان « يشوع بارنوم » المسمى « يوشع » ؛ وقد كان هو المسيح الجديد ، الذي قام بذبح القبائل الوثنية الكنعانية ، التي أبدت منتهى الكرم والطيبة ، تجاه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فعل ذلك بدون شفقة ولا رحمة ، بدلاً من أن يحاول إصلاحهم وهدايتهم . وكان « يوشع هذا نبياً » ، وكان مسيح ذلك الزمن ، كما كان أيضاً كل قاضٍ يهودي خلال مدة ثلاثة قرون أو أكثر يدّعي أنه المسيح أو أنه المنقذ أو أنه المخلّص ، وهكذا فإننا نجد بأنه عندما تقع كارثة قومية ، خصوصاً إذا كانت كارثة كبرى ، فإن مسيحاً ما يُتَنَبّأُ بظهوره ، وحسب القاعدة فإن الخلاص يحصل دائماً بعد الكارثة ولكن إلى درجة غير كافية تماماً .

ومن غريب ما يتصف به اليهود ، أنهم وحدهم دون شعوب الأرض ، نزّاعون للهيمنة على العالم ، ويتطلعون إلى ذلك من خلال انتصارات خارقة ، على يد واحد من سلالة داود . ولكن هيهات ؛ فإن غلبة روح اللامبالاة والقصور الذاتي عليهم ، واتكالهم على الاعتقاد بقدوم « أسد يهوذا »،يعطلهم عن استغلال مواردهم القومية وطاقاتهم وقوتهم أن يكونوا شعباً حاكماً نفسه بنفسه (١) .

(١) هذا ما يشهد به الواقع الآن ؛ فإن « إسرائيل » تعتمد في وجودها كله على غيرها . ولايمكن أن تقف وحدها أو تستغني بنفسها مطلقاً . . ويوم تكفّ القوى العالمية =

والآن إلى المسيحيين الذين يدعون أن المسيح هو « ابن الإنسان » أود أن أقول بجراءة : إذا كان هو المحرر لإسرائيل فلابد أنه قد حرر ذلك الشعب من النير الروماني ، سواء صدقه اليهود أولم يصدقوه ، فالتحرير يأتي أولاً ، والعرفان بالجميل والإخلاص والولاء يأتي بعد ذلك ، وليس العكس ؟ ؟ . . فيجب أن يتحرر الإنسان أولاً من أيدي آسريه ، إما بقتلهم أو إرهابهم ، ثم بعد ذلك يُنتظر منه أن يبدي مودته وولاءه الدائم لمخلِّصِـــه .

إنّ اليهود لم يكونوا نزلاء مستشفى يشرف عليه الأطباء والممرضات ، لقد كانوا في الواقع سجناءمقيّدين ومحتاجين إلى بطل ليحررهم ، ولم يكن إيمانهم بالله وبشرائعة كاملاً ، كما كان أجدادهم في جانب جبـــل سيناء حينما أوحى الله إلى موسى ! ! . ولم يكونوا بحاجة إلى نبي يجترح المعجزات والخوارق ، فكل تاريخهم كان منسوجاً بالعجائب والمعجزات ؛ ذلك أن بعث الحياة في « أليعازر » بعد موته ، وكذلك عودة الأعمى « بارتيموس » بصيراً ، أو شِفاء المنبوذ من مرض الجـــذام ، كل هذا لم يثبت فيهم الإيمان ولم يرو ظمأهم للاستقلالية والتحرر ، فقد نبذ اليهود المسيح ، لا لأنه لم يكن « ابن الإنسان » المذكور في سفر الرؤيا ، أو لأنه لم يكن هو المسيح ، ولا لأنه لم يكن نبياً ، فقد كانوا يعلمون جيداً بأنه لم يدّعِ لنفسه أنه « ابن الإنسان » أو أنه نبي ، ولكن لأنهم كرهوه من أجل الكلمات التي تفوه بها ، فالمسيح لم يكن ابناً لداود ولكنه كان سيد داود (متّى ٢٢ / ٤٤ – ٤٦) و (مرقس ١٢ / ٣٥ – ٣٧) و (لوقا ٢٠ / ٤١ – ٤٤) .

وهذا الاعتراف الشامل يثبت التصريح الذي جاء به إنجيل (برنابا) عندما ذكر أنّ يسوعَ قد أفاد بأن العهد سوف يتم الوفاء به على يد « شيلواخ » وهو رسول من عند الله – يأتي من نسل إسماعيل ، ولهذا السبب يصف التلمود يسوعاً بأنه « بلعام الثاني » أي أنه « النبي الذي تنبأ لمصلحة الوثنيين على حساب شعب الله المختار » ؟ ؟ . . .

= في الشرق والغرب عن مساعدتها وإمدادها بأسباب القوة والبقاء ، فإنها لا تلبث أن تنهار وتتلاشى . [المعلق]

ولذلك فإنه من الواضح أن تقبل اليهود ليسوع أو رفضهم له لم يكن هو السبب لتأكيد طبيعة رسالته . فلو كان هو المنقــذ أو المخلّص الأخير ، لكان لابد من إخضاع اليهــود له كما فعل محمد . ولكن المقارنة بين الوضعين اللذين أحاطا بهذين النبيين ، وكذلك أعمالهما ، ليس لها مجال ، ولا تحدها أبعاد محددة ، ويكفي أن نقول بأن محمداً حوّل ما يقرب من عشرة ملايين عربي وثني إلى مؤمنين على جانب عظيم من الإخلاص والإيمان العميق بالله الحق . وكذلك اجتث نهائياً الوثنية من الأرض التي ضربت فيها جذور الشرك . هذا ما فعله ، فلقد حمل الشريعة بيد والسيف باليد الأخرى ، فكان في الأولى القرآن المجيد ، وفي الثانية شعار السلطة والحكم . وقد كرهه قومه ، وحقروه وظلموه وكانت أشرف القبائل العربية التي ينتمي إليها ، قد أرغمته على الخروج بنفسه ، ولكنه بسلطان الله وقوته استطاع أن يقوم بأعظم عمل من أجل قضية دينية صحيحة لم يستطع نبي من قبله أن يفعل ما فعله في هذا الصدد .

وسوف أمضي الآ ن لأبين أن « ابن الإنسان » في سفر الرؤيا لم يكن أحداً غير « محمــد » المصطفى (ﷺ) .

١ – إن أعظم وأهم إثبات مقنع بأن « البرناشا » في سفر الرؤيا ، إنما هو محمد ، نجده في ذلك الوصف الرائع الذي تضمنته رؤيا النبي دانيال (٧) وقد جئنا على ذكره في حلقة سابقة . وليست ثمة وسيلة البتة ، لجعل الأوصاف التي وُصف بها البرناشا هناك ، منطبقة على أحد من أبطال المكابيين أو على يسوع ؛ ولا يمكن لذلك الوحش الفظيع الذي قتله وحطمه « ابن الإنسان » المشار إليه أن يكون نموجاً أصليـاً « أنطيوغوس الابيفاني أو للقيصر الروماني نيرون . وإن الشر الذي بلغ الذروة لذلك الوحش المخيف كان متمثلاً في القرن الصغير ، الذي جدّف على الإله العظيم حين أشرك معه الأشخاص الثلاثة الأزليين من الكهان ، وكذلك باضطهاده أولئك الذين حافظوا على الدعوة لوحدانية الله . إنه لم يكن إلا قسطنطين الكبير الذي تَمَثّلَ بذلك القرن البشع .

٢ – إن سفر الرؤيا المختص باينوك اليهودي يتنبأ بظهور « ابن الإنسان » في تلك اللحظة التي تُهاجم بها طيورٌ جارحة تنقض من فوق على قطيع صغير من الغنم ،

وكذلك ينقضّ عليها من الأرض وحش مفترس ، رغم دفاع الكبش بضراوة عن القطيع ، وفي محيط الأعداء المنقضين على القطيع الصغير يظهر عدد آخر من الماعز والغنم قد ضَلَّت وتاهت . أما سيد القطيع وهو راع طيب ، فيظهر فجأة ويضرب الأرض بعصاه أو بسيفه ، فتنشق الأرض وتفتح فاها لتبتلع العدو المهاجم ، ويتابع الراعي مطاردته لقوى الشر من طيور جارحة ووحوش ضارية ، ليشتت شملها بعيداً عن الراعي .

وعندئذ يُسلَّمُ السيف إلى القطيع (وهو يمثل شعار القوة وسلاح التدمير) ثم بعد ذلك لا يترأس الكبش ذلك القطيع ، ولكنه يُستبدل بثور أبيض له قرنان أسودان .

إن هذه الرؤيا التشبيهية شَفَّافة إلى حد كاف ، ذلك لأنه منذ أيام « يعقوب » ومن تبعه من بعده ، فإن « الشعب المختار » يُرمز إليه بقطيع الغنم ، لكن أحفاد « عيساو » وُصفوا بأنهم خنازير برية ، أما الوثنيون والقبائل الأخرى ، فقد مُثِّلوا في هذه الرؤيا بحسب ميزاتهم المتتالية ، بالغربان ، وبالنسور ، وبالكائنات المتوحشة ، وبأصناف مختلفة من السباع الضارية ، وكلها عطشى لامتصاص دماء الغنم أو جياع لافتراسها . وإن معظم علماء الكتاب المقدس متفقون على أن الرؤيا تشير إلى الفترة المؤلمة للمكابيين ومشاحناتهم الدموية ، مع جيوش « أنطيوخوس الأبيفاني » وحتى موت « جون هوركانوس » في عام ١١٠ (؟) قبل الميلاد . وقد كانت هذه الفترة من تفسير الرؤيا فترة خاطئة ، وقد خَفَضت من قيمة الكتاب حتى وصل إلى لا شيء تقريباً .

ثم إنه لأمر سخيف ومثير للأسى ، أن يقوم ذلك النبي القديم فيما قبل الطوفان ، أو ذلك العَرّاف ، بشرح تاريخ البشرية من وجهة نظرٍ دينية ، تبدأ بآدم ، من خلال شعار الثور الأبيض ، وتنتهي مع « حنَّا هُوركانوس » أوْ أَخيه « يهودا المكابي » والموصوف بالثور الأبيض الأخير ، ومن ثم ترك تلك الجماعة من « المؤمنين » فريسة للرومان ، والمسيحيين ، والمسلمين إلى يومنا هذا . والحقيقة أن حروب المكابيين وما نتج عنها لم تكن ذات أهمية في تاريخ دين اللهّ ، حتى تكون منطلقاً لإحداث إصلاحات فيه ؛ لأنه لم يكن أحد من المكابيين نبيًّا ، ولم يكن كذلك مؤسس ما يدعى « بعهد

المخلّص اليسوعي » الذي تسميه الأناجيل « مملكة الرب » . وعلاوة على هذا ، فإن تفسير الرؤيا لا يتمشّى مع الشخصيات الممثلة في ذلك الحدث الخيالي الرمزي ، الذي يظهر فيه قائد القطيع ، وفي يده الصولجان ، ومعه الكبش والثور الأبيض ، ثم يُشْهَرُ سيف في أيدي الرعاة ، ليقتلوا به ويطردوا الوحوش والطيور النجسة القذرة .

وفوق ذلك كله ، فإن التفسير النّصراني لـ « رؤيا إينوك » لا يُشير إلى التحول ذي المغزى الروحي ، عن القدس إلى وجهة أُخرى شطر الجنوب ، وإن بيت الله الجديد المقام على البقعة القديمة ، يكفيه تكريماً أن يوصف بأنه ذلك الحرم المقدس العتيق ، الذي هُرعت إليه الخراف المؤمنة – اليهود المؤمنون – وفي إثرهم مختلف القبائل والشعوب الوثنية تعتنق ديانة « ابن الإنسان » الذي قهر أعداءه بالعصا والصولجان .

ولهذا فإن جميع هذه الأفعال الخاصة ، والمزاعم ، قد شوهدت ثم وصفت في هذه الرؤيا الدراماتيكية . وإن السلسلة التي تربط هذه الحوادث والتي تصورُها تلك اللغة المجازية تبدأ من آدم ثم تنتهي إلى شخصية نبي مكة . وهناك العديد من الحجج كلها تثبت هذه التأكيدات :

(أ) إن قطيع الخراف المقسوم إلى قسمين ، يشير إلى أهل الكتاب ، يهوداً كانوا أو نصارى ، بينهم أُولئك المؤمنون بوحدانية الله ، وأُولئك الذين جعلوا المسيح والروح القدس في مقام المساواة مع الله . وقد ميَّز العارفون المؤمنينَ عن المرتدين ، وتُحدِّثُنا الأناجيل أنه في يوم الدينونة الأخير « يُفَرّق بين الغنم والماعز » ، الأمر الذي يشير إلى نفس النظرية .

أما ما يتعلق بالكبش الرمزي ، فيمكننا أن نفهم أنه يشير إلى أريوس أو بعض القادة الرّوحيين الموحّدين من النصارى الصادقين ، والحاخام الأكبر لليهود المؤمنين ؛ ذلك أن كليهما كان يواجه نفس العدو المشترك . فإذا ما عرّفنا قسطنطين بالقرن الشرير ، فإننا وبكل إنصاف نستطيع تعريف (آريوس) بالكبش . وبالحقيقة فإن (آريوس) يستحق هذا الوقار والنبل ؛ لأنه ترأس أكبر مجموعة في المجلس المسكوني في (نيقيــة) ودافع بشدة عن الدين الصحيح ضد العقيدة الرهيبة المتمثلة في الكنيسة

الثالوثية وكنيسة الأسرار المقدسة . ومن وجهة نظر إسلامية محضة فإن اليهود ، ومنذ اللحظة التي أدانوا فيها المسيح وحكموا عليه بالموت ، بطلت عنهم صفة « الشعب المختار » وإن ذلك اللقب الشريف مُنح لأولئك الذين آمنوا برسالة الله فقط .

(ب) إن « ابن الإنسان » الذي خـلّـص قطيع الغنم من أعدائه المختلفين ، والذي بضربته العنيفة ورسالته الدينية خرق بهم صدر الأرض ، ثم أعطى الغنم ذلك السيف البتَّار لكي تذبح به الوحوش والطيور العنيفة النجسة المفترسة ، « ابن الإنسان » هذا كان بكل تأكيد هو « محمد » وإن الصولجان (وفي اللغة العبرية يقال له « شبت » أو العصا أو الهراوة) ما هو إلا شعار السلطة والتشريع ، والإدارة . أما ذلك الصولجان الصغير الذي منحه الله إلى عشيرة يهودا (سفر التكوين ٦٩ / ١٠) فقد أخذ منهم ، وأعطي نبي الله (شيلوه) صولجانا أكبر وأشد بطشاً عوضاً عنه . ومن العجيب المدهش حقاً ، كيفية تحقق الرؤيا التنبؤية للعرّافين عندما أصبح صولجان « محمد » شعاراً للسلطة الإسلامية العليا على جميع البلاد — في مصر وأشور وكلدان ، وسوريا ، والبلاد العربية — حيث كان شعب الله في تلك البلاد مضطهداً ومعذباً من قبل القوى الأجنبية الوثنية في فارس القديمة والإغريق والرومان . وما أروعها من رؤيا تحققت ! فبينما كانت قُطعان الأغنام ، ولقرون طويلة ، تتعرض إلى قسوة مناقير ومخالب الطيور المفترسة ، وإلى أسنان ومخالب الوحوش الحادة الضارية ، فإذا بها الآن قد تسلحت بسيف كبير يدفع الأذى عنها ، يحمله كل مسلم ، كي يثأر تماماً بذلك السيف لدماء القديسين والشهداء . (سفر الوحي ٦ / ٩ — ١١) .

(ج) الثور الأبيض : إلى عهد إسماعيل ، كان جميع الأنبياء يتمثلون بالثيران البيضاء ، ولكن من عهد يعقوب فما دون ذلك ، كان أمراء الشعب المختار يظهرون على صورة الكباش ، وقد تقلصت الديانة العالمية فأصبحت ديانة قومية ، وأصبح الإمبراطور زعيماً صغيراً . وهنا أيضاً تحققت رؤيا عجيبة في عصر محمد ؛ ذلك أن القواد أو الزعماء الكبار للديانة العالمية القديمة قد تمثلوا بالثيران البيضاء ، وكذلك القادة المسلمون المخلصون ، مع فارق واحد تميز به هؤلاء ، حيث كانت لهم قرون سوداء ، تمثل شعار السلطة المزدوجة الروحانية والدنيوية . ومن بين جميع الحيوانات النظيفة من ذوات الأربع لا يوجد شيء أجمل وأنقى من الثور الأبيض ، ويزيد جماله

أكثر بصورة خاصة عندما يُتوّجُ رأسه بزوج من القرون السوداء الكبيرة ، التي تبدو عندئذ أروع جلالاً وجمالاً . وإنه لمن الروعة بمكان عظيم أيضاً أن يكون إمام المؤمنين، سواء دُعيَ خليفةً أو سلطاناً ، أو كان يحمل اللقبين معاً ، يتميز بشكل ظاهر ، آناء الليل وأطراف النهار ، بالطهارة في إيمانه وأعماله ، وثبات سلطانه وعظمته ، وهو على رأس حشد هائل ، لا يعد ولا يحصى من المؤمنين ، الذين يتألفون من جميع السلالات والشعوب واللغات . هذه الرؤيا تدل بوضوح على أن المرتدين والكفار يدخلون إلى حظيرة القطيع . إنّ اليهود – آلاف اليهود – والنصارى والصابئين والملايين من العرب والشعوب الوثنية الأخرى ، آمنوا بوحدانية الله واعتنقوا الدين الإسلامي . وإنه لمن الجدير بالذكر في هذه المناسبة أن كل الدم الذي أريق في معارك بدرٍ وأحُد والغزوات الأخرى التي قادها محمد شخصياً ، لم تزد في مجموعها عن واحد بالمئة من الدم الذي أراقه « يوشع » ، ومع ذلك لم تقع ولم تسجل أية حادثة واحدة فيها قسوة أو ظلم على أحد من رسول الله ، فلقد كان رؤوفاً ، نبيلاً ، شهماً ، ومتسامحاً . ولهذا السبب كان وحده من بين جميع بني البشر ، يتمثل في كافة الرؤى التنبؤية التي بشرت به ، بأنه « ابن الإنسان » كمثل الإنسان الأول « آدم » قبل هبوطه من الجنة .

(د) « ابن الإنسان » أسس مملكة السلام ، وأسس العاصمة الروحية التي لم تعد القدس القديمة ولكنها القدس الجديدة – دار السلام ، ومدينة أو محكمة السلام . الصوفيّ أو العرّاف(١) في هذه الرؤيا العجيبة يروي لنا كيف رُفعت القدس من

---

(١) العراف : الملاحظ أن الكاتب قد تحدث عن العرافين في هذه الصفحات الأخيرة ، أكثر من مرة ، فإذا كان المقصود هم المنجمون أو الذين يدّعون علم الغيب . . فإن الاعتقاد بذلك باطل . ففي الحديث النبوي الصحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من أتى عرّافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد » .

(رواه الأربعة والحاكم ، وقال صحيح على شرطهما)

هذا في الإسلام . . أما في اليهودية ، فإنهم – حسب التوراة المحرفة – يعتمدون كثيراً على العرافين والكهنة والسحرة في استطلاع الغيب ، بل ويضمون هؤلاء إلى قائمة الأنبياء .

من أرضها وزُرعت في بلاد جنوبية ، وكيف قام هيكل ، أكبرُ وأعلى من الأول ، وكيف بُني فوق خرائب ذلك الصرح القـــديم .

يا الله ! ما أروع تلك المنجزات التي تمت على يـــدي عبدك المبـــارك النـــوراني محمد ﷺ . إن القدس الجـــديدة ، لم تكن إلا مكة ، ذلك أنها تقع إلى الجنوب ، والجبلان اللّذان تضمّهما وهما : « الصفا » « والمروة » يحملان نفس الاسمين « موريا » و « زيون » وهما من نفس الجذرين ولكل منهما نفس المعنى الذي للكلمة المقابلة ، إلا أن « الصفا » و « المروة » أقدم من حيث الأصل . إن إيروسالم أو « أورسالم » القديمة أصبحت مدينة « نور وسلام » . وهذا من الأسباب التي تجعل مكة التي تضمّ الكعبة المقدسة ، تصبح القبلة التي يولي المسلمون وجوههم إليها عند الصلاة . وهنا وفي كل عام يتوجه إليها عشرات الألوف من الحجاج المسلمين من جميع البلاد ليزوروا الكعبة ويقدموا الأضحيات ويجددوا عهودهم لله تعالى ، على أن ينهجوا حياة جديدة تليـــق بالمسلمين . وليس مـــكة وحدها بـــل المدينـــة والمناطق المحيطة بهما أيضاً ، أصبحت جميعها مقدسة ولا تُنتهكُ حرماتها ، ومحرمة على غير المسلم أو المسلمة . ولقد كان ذلك تحقيقاً للرؤيا التي رآها (إدريس) أو (إينوك) بأن الخليفة الثاني عمر أعاد بناء المسجد المقدس ، على جبل موريا ، وعلى بقعة هيكل سليمان . وكل هذه تُثبت بمنتهى الروعة أن الرؤيا التي رآها عرّافٌ شاهد الأحداث الإسلامية تتحقق في المستقبل البعيد ، إنما كانت إلهاماً من الله . فهل استطاعت روما أو بيزنطة أن تدعي أنها هي القدس الجديدة ؟ ؟ ؟ . . . وهل يستطيع "البابا" أو أي "بطريق" متمرد ، أن يدعي بأنه هو الثور الأبيض ذو القرنين الكبيرين الذي جاء وصفه في سفر الرؤيا ؟ ؟ وهل تستطيع المسيحية أن تدّعي بأنها مملـــكة السلام ؟ ! . . . (الإسلام = شالوم) بينما تجعل المسيحية من المسيح والروح القدس جوهراً واحداً متماثلاً مع الإله الواحد الأحـــد ؟ ؟ . . وهذا بالقطع وبكل تأكيد باطل وغير صحيح .

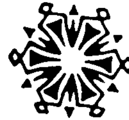
(هـ) وفي تلكم الفصول التي عالجنا فيها موضوع « مملكة السلام » يُدعى المسيح بأنه « ابن الإنسان » ولكن عند وصف « يوم الدينونة الأخير » الذي يتبع نهاية عهد السلام والإسلام فهو يدعى « ابن المرأة » و « ابن الله » وقد جُعل بحيث يتقاسم مع الله حـــكم هذا العـــالم .

وقد أقرَّ جميع العلماء أن هذه التصريحات المتهورة والجنونية ليست يهودية الأصل ولكنها تختص بالتصورات المسيحية ، حيث نسخوها وحَرَّفوها بأيديهم .

وإن أسفار الرؤيا الأخرى ، وهي تلك التي تحمل أسماء كلّ من : « موسى ، وباروخ ، وعزرا ، واليوبيليين ، والأوراكيولا سيبيليانا » يجب أن تُدرس بدون تحيز ، لأنه عندئذ فقط ، يمكن أن تفهم . وليس ذلك فحسب ، بل إنها كتلك التي في سفر « دانيال » و « سفر إينوك » ، يثبت تحققها في « محمد » وفي دينه « الإسلام » .

تم بحمـــــد الله ، ،

الفهـــرس



هـذا الكتـــاب

سبق أن طُبع باللغة الإنجليزية على نفقة
رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية
بدولـة قطــر ، ووُزِّع مجانًا على
الناطقين بهذه اللغة في كثير من بلدان العالم .

رقم الإيـداع بدار الكتب
القطــرية
٢٤٩ لسنة ١٩٨٤ م

تم تنضيد حروف الكتاب وتصحيحه في :
مطابـع الدوحــة الحديثـة

تمت الطباعـة في :

مطـابع البــاكر